اللورد سترانلي الشاب

روبرت بار



ترجمة أسماء عزب

اللورد ستر انلي الشاب

تأليف
روبرت بار

ترجمة
أسماء عزب

مراجعة
هاني فتحي سليمان



اللورد سترانلي الشاب

روبرت بار

Young Lord Stranleigh

Robert Barr

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤١٥ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٨.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات



استدار الأسير الغاضب ووجهه يستشيط غضبًا.

الفصل الأول

تحرُّكات الملك في المدينة

بعد التاسعة صباحًا بقليل، هبط اللورد سترانلي الشابُّ من ويتشوود الدَّرَج الأمامي لمنزله في البلدة إلى الشارع دونما أي استعجال. كاد مظهر الشاب أن يكون مثاليًّا أكثرَ من اللازم. فقد كانت كلُّ قطعة من زيِّه، بدءًا من قبَّعته اللامعة حتى حذائه المُلمَّع، كما يجب أن تكون عليه بالضبط، لدرجة أنَّ الناظر إليه كان سيظنَّه واحدًا من هؤلاء الأشخاص المُتأنِّقين الذين يظهرون في الرسومات الجميلة التي تُزيِّن متاجر خيَّاطي شارع بوند. وكان واضحًا أنه ممَّن لا يُنجِزون أيَّ عمل مفيد للعالم، وكما قد يقول الشخص العمَلي: لِمَ يَجب على أيِّ شخص دخله أكثر من ٣٠ ألف جنيه في السنة أن يفعل أي شيء؟ كان الملل البادي على وجهه، وتدلي جفنَيه، ومِشيتُه المُسترخية غيرُ المبالية التي ميَّزته، تُعلن جميعًا لأي شخص يتمتَّع بدقة الملاحظة أن هذا الشابَّ قد جرَّب كلَّ الأشياء، ووجد أنه لا يوجد شيء يستحقُّ التحمُّس من أجله. فمن الواضح أنه كان شخصًا بلا حماس، فحتى مظهره المثالي الرائع قد يُعزى إلى اهتمامِ خيَّاطه وحرصِه، وليس إلى بذل أي مجهود من جانبه في التفكير بشأن هذا الأمر. وبالفعل، فإنَّ هيئته الكسولة جعلت الكلمتين «نشيط» أو «حيوي» تبدوان غيرَ ضروريتَين في لغتنا. وقد وجد أصدقاؤه أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يُثيروا اهتمام اللورد سترانلي بأيِّ شيء حتى في سباق الخيل أو لعب القمار؛ لأنه كان يمتلك أموالًا أكثرَ بكثير مما يحتاج إليه، لدرجة أن الربح أو الخسارة لم يُثيرا في نفسه أي إحساس. وإذا كان يتمتَّع بالذكاء، كما كان بعض أصدقائه المقرَّبين يقولون مازحين، فإنه لم يُقدِّم حتى الآن أي دليل على ذلك. وعلى الرغم من تمتُّعه بصحةٍ جيدة، فلم يكن رياضيًّا. كان يطلِق النار قليلًا، ويصطاد فيما نَدَر، ويجيء إلى البلدة خلال موسم الفعاليات الاجتماعية، ويُسافر إلى أوروبا خلال الهجرة القارية، وكان يفعل الأشياء التقليدية دائمًا، لكنه لم يكن

يفعلها على نحوٍ جيد أو سيِّئ بما يكفي لإثارة التعليقات حوله. لقد كان التجسيد البشري لوجهة النظر: «لا يوجد شيء يستحق العناء حقًّا.»

وعلى نقيضه، وقف رجل في مثل عمره مُتردِّدًا واضعًا قدمًا واحدة على الدرجة الحجرية السفلية من الدَّرَج المؤدِّي إلى الباب الأمامي لمنزل اللورد في البلدة. لم يكن لملابسه تصميمٌ مميَّز، وبدَت من فرط لا مبالاته بها جاهزةَ الصنع. ودلَّت القبعة السوداء التي ألقاها على رأسه كما اتفق على الغرب الأمريكي أو جنوب قارة أفريقيا. وكان حذاؤه غير مُتقَن الصنع وغير ملمَّع.

وعلى عكس ملابسه غير اللافتة، كان وجهه مميزًا لدرجةٍ لا يَسَع الناظر إليه معها إلا أن يلقي عليه نظرة ثانية؛ فقد كان حليقَ الذقن، ضخمًا وقويًّا، صبغَتْه شمس إنجلترا بدرجةٍ خفيفة من البُني الضارب إلى الحمرة، وكانت عيناه عميقتَين، ثاقبتَين، حازمتَين، بارعتَين.

يعلو الشفةَ العليا الرفيعة للورد سترانلي شاربٌ ناعمٌ يحظى بعناية فائقة؛ وكانت عيناه ضعيفتَين ومُتعبتَين، لا يلتمع فيهما الشرر المتَّقد الذي ترامى عليه بحدة من عينَي مُحدِّثه.

قال الرجل: «أستميحك عذرًا، سيدي، ولكن هل أنت اللورد سترانلي من ويتشوود؟»

توقَّف اللورد أعلى الدرج، وردَّ بتكاسل بكلمة واحدة: «نعم.»

«اسمي بيتر ماكيلر، وقد أعطاني صاحب المقام الرفيع جون هازل رسالةَ تعريفٍ لك، قائلًا إنه من المُحتمَل أن أجدك هذه الساعة. ويبدو أنه استخفَّ بنشاطك؛ لأنك بالخارج بالفعل.»

كان في اللهجة المُتبرِّمة التي استخدمها ماكيلر بعض الاستياء، فمن الواضح أن هذا الممثِّل الحديث لعائلةٍ ضاربة في القِدَم لم يَرُقه، لكن الهدف الذي كان يضعه نُصْب عينيه جعله يكتم استياءه، ولو لم تُسعفه اللباقة بما يكفي لإخفاء آثار ذلك الاستياء من كلماته. لو فطن اللورد لهذا الاستياء، فإنه لا يفشي معرفته به في كلماته أو تعبيراته؛ فقد كان مدرَّبًا على نحوٍ مثاليٍّ أكثرَ من اللازم. وساعَدَه على ذلك عدم اكتراثه البتة برأي مُخالطيه. اكتفى اللورد بابتسامة خفيفة حرَّكت شاربه الناعم.

«جاك دائمًا ما يستخف بصفاتي الحميدة، لذلك لن نشغل بالَنا بشأن رسالته التعريفية. علاوة على ذلك، لا يستطيع المرء قراءةَ رسالةٍ في الشارع، أليس كذلك؟»

أجاب الآخر بحدة: «لا أرى أيَّ سبب يُعارض ذلك.»

«حقًّا لا ترى سببًا؟ حسنًا، سأذهب إلى النادي، وربما ستتفضَّل، أثناء سيرنا معًا، بذكرِ سببِ رغبتك في مقابلتي.»

كان اللورد سترانلي على وشْك هبوط درجة أخرى عندما ردَّ عليه الآخر بفظاظة: «لا»، لدرجة أن اللورد توقَّف مرةً أخرى، رافعًا حاجبيه دون أن يشعر؛ لأن الناس بوجه عام لا يُسمِعون اللورد سترانلي كلمة «لا»، وهو لورد ويتشوود الذي يكسب ٣٠ ألف جنيه في السنة.

سأل اللورد: «ماذا تقترح إذن؟» كما لو أن اقتراحه قد استنفد كلَّ احتمالات الفعل.

رد ماكيلر: «أقترح أن تَفتح الباب، وتدعوني للدخول، وتُعطيني ١٠ دقائق من وقتك الثمين.»

زاد اتساع الابتسامة على وجه اللورد.

وقال، بطريقةِ مَن يستمع إلى فكرةٍ مُبتكَرة غيرِ متوقَّعة: «هذه ليست فكرة سيئة.» ثم قال بعدها مباشرة: «تفضَّل بالدخول سيد ماكيلر» وفتح الباب بمِفتاحه، مشيرًا للآخر بأدبٍ للدخول قبله.

دُعيَ ماكيلر الشابُّ إلى غرفة صغيرة على يسار القاعة. كانت بسيطة جدًّا، ومكسوة بألواح من خشب البلوط القديم على نحوٍ موحش، يدخلها الضوء من نافذة واحدة، ومزودة بعدة مقاعد جلدية ثقيلة. في المنتصَف كانت توجد طاولة صغيرة، تحمل زجاجةَ حبر ضخمة بدت كما لو كانت كتلة كبيرة من المعدن الأسود أُلقَيت وهي لم تزَل لدنة على سطح الطاولة، والآن، بعد أن تصلَّبت، افترشت مساحة كبيرة من الطاولة كأنَّها جزء منها. كانت عدة أقلام ملقاة على مفرش، وفي أحد طرفَي الطاولة كان يوجد حامل مثل ذلك الخاص بالأوراق والأظرف، ولكنَّه كان صغير الحجم جدًّا، ويتكوَّن من ثلاثة مستويات، واحدًا فوق الآخر، يحوي ما يبدو أنه مجموعة من بطاقات تعريف؛ ١٢ حزمة صغيرة متراصَّة، أربعٌ في كل مستوًى.

قال اللورد سترانلي بطريقة لطيفة إلى حدٍّ ما: «هذه غرفة مكتب أعمالي.»

نظر الزائر حوله. لم تكن هناك مكاتب، ولا أدراج، ولا الصناديق المعدنية المطلية باللون الأسود حيث تُحفظ المستندات، ولا خزانات، ولا كتب، ولا صور.

«تفضَّل بالجلوس، سيد ماكيلر»، وعندما قبِل الشابُّ الدعوة، وقف اللورد سترانلي أمامه عند الطاولة الصغيرة وحِزَم البطاقات بالقرب من يده اليُمنى.

«والآن، هلا تتفضَّل بإعطائي رسالةَ جاك لألقيَ نظرةً عليها، على الرغم من أنه نادرًا ما يكتب أي شيء يستحق القراءة.»

سلَّمه ماكيلر الرسالةَ في ظرفٍ مفتوح. سَحب اللورد الوثيقةَ ببطء، وضبط نظَّارته، وقرأ؛ ثم أعاد الرسالةَ إلى الظرف، وأعاد الظرف إلى صاحبه.

«هل سأُثقل عليك إن طلبت منك إعادته إلى جيبك، فلا توجد سلَّة للنفايات الورقية في هذه الغرفة؟»

فعل ماكيلر ما طُلب منه، ولكن العبوس الذي علا جبينَه العريض اشتد. بدا أن هذا الرجل العابث وكأنه يُزعجه بأسلوبه الهادئ، وطريقتِه الطفولية المستخِفة. شعر ماكيلر أنه قد ينجح إذا كان في مواجهةِ رجل حقيقي، لكن بدا بالفعل يخشى أنه لن يستطيع استيعابَ هذا القدْر من الاستخفاف؛ لذا بدلًا من الاستمرار في حديثه، جلس يُحدِّق في اللورد سترانلي، الذي تبيَّن أنه أشدُّ تفاهة مما صوَّر له صاحبُ المقام الرفيع جون هازل. لقد كان مُستعدًّا لمواجهة قدْرٍ ما من التفاهة وانعدام المسئولية، لكن ليس هذا القدْر. كسر اللورد سترانلي حاجز الصمت.

سأل اللورد كما لو أنَّ بعض فظاظة خصمه قد تسرَّبت إلى كيانه: «ماذا تُريد؟»

ردَّ الآخر على الفور: «المال.»

تنهَّد اللورد مُجسدًا لأقصى درجات اللامبالاة: «الجميع يريدونه».

اختار أربع بطاقات من الحامل الذي كان بجانبه، واحدة من كل حزمة صغيرة في المستوى السُّفلي. ووضعها على الطاولة أمامه ووجَّهها إلى أعلى.

وقال اللورد مبتسمًا: «أنا لا أكترث بشأن المال.»

اقترح ماكيلر: «ربما لا تحتاج للاكتراث بشأنه وأنت مَن يجني ٣٠ ألفًا في السنة.»

أوضح اللورد: «هذه مُبالغة. لقد نسيت ضريبة الدخل المزعجة للغاية. ومع ذلك، لم أكن أشير إلى المبلغ؛ أردت فقط أن أشرح أساليبي في التعامل مع الأمر. إليك أسماءَ أربعة محامين بارزين في المدينة وعناوينهم. فلا فائدة من أن أدفع لهم رواتبهم وأقوم بهذه الأعمال بنفسي، أليس كذلك؟ ولديَّ بالفعل ١٢ محاميًا بالتمام والكمال، كما يتَّضح من حافظة البطاقات هذه، لكنَّ واحدًا على الأقل من هؤلاء الأربعة سوف يُناسب غرضَنا بلا شك. شركة المحاماة هذه تدير إحدى الجمعيات الخيرية.»

قال ماكيلر: «أنا لا أريد صدقة.»

«بالتأكيد. أنا أشرح لك فحسب. فهذه الشركة تهتم بجميع الأعمال الخيرية في مجموعتنا، مثل: المستشفيات، و— حسنًا غيرها من المؤسسات. وعندما يَرِد إليَّ شخصيًّا

طلبٌ له صلةٌ بإحدى هذه المؤسَّسات، أكتب اسمي على بطاقة هؤلاء المحامين وأرسلها. فيوجَّه الطلب لهم. وينظرون في الأمر ويُخلِّصونني من عنائه.» وتابع رافعًا بطاقةً أخرى: «تتعامل الشركة الأخرى مع المؤسسات الخيرية التي تقع ضمن اختصاصنا، مثل: قضاء نصف يوم على شاطئ البحر، وهذا النوع من الأشياء. الآن جئت إلى الأمر الذي يهمك.» استطرد حديثه ممسكًا ببطاقةٍ ثالثة: «تعتني هذه الشركة بالاستثمارات الدائمة»، ثم رفع الرابعة وقال: «بينما تتولَّى هذه أيَّ شيء يتمتَّع بطابَع المضاربة. يتلقَّى مقدِّم الطلب البطاقةَ المناسبة لرغبته. ويزور شركةَ المحامين المحترمة، وإما يقنعهم ويحصل على ماله أو يفشل ولا يحصل على شيء. كما ترى، تجري إدارة أعمالي بكفاءة، وأتجنَّب عبءَ الاستماع إلى التفسيرات التي ربما ليسَت لديَّ العقلية التجارية اللازمة لفهمها. والآن، هلا أخبرتني بالبطاقة التي يُشرفني أن أوقِّع عليها من أجلك؟»

أجاب ماكيلر: «ولا واحدة منها، أيها اللورد. صاحب المقام الرفيع جون هازل قال إنك إذا استمعت إليَّ، فقد أثير اهتمامك.»

ردَّ اللورد بتكاسل، جالسًا بفتورٍ على كرسيه: «هذا محال.»

قال ماكيلر: «هذا صحيح، لقد قال إنها ستكون مهمَّة صعبة، لكنَّني معتاد على الصعوبات. طلبت منك، عندما دخلنا، أن تَمنحني ١٠ دقائق، فهل ستَمنحُني إياها؟»

رد اللورد محتجًّا: «يا إلهي! لقد أمضينا بالفعل ١٠ دقائق على الأقل.»

قال ماكيلر: «نعم، في العبث بالأوراق.»

قال اللورد: «أنا مُعتاد على العبث بالأوراق أكثرَ من الخوض في محادثةٍ مالية؛ أوراق من نوع آخر.»

قال ماكيلر: «هل ستَمنحُني ١٠ دقائق إضافية من وقتك من أجل جون هازل الذي أخبرني أنه صديق لك؟»

«ما علاقةُ جاك هازل بهذا؟ هل ستُشاركه؟ هل يعطي لك معلوماتٍ عني من أجل المال، ثم بعد ذلك تنْزويان في مكانٍ بعيد، وتقسمان المال؟ جاك هازل يُعاني دائمًا نقصًا في المال.»

قال ماكيلر: «لا، لن نقتسمَ شيئًا أيها اللورد. يُضارب السيد هازل في البورصة بالمدينة، ومن المرجَّح أن يجنيَ بعضَ الأرباح إذا تمكنتُ من تحقيقِ ما أُحاول القيام به. لذا، إذا وافقت على اقتراحي، فسيربح، وأنا كذلك، وأنت كذلك لأنك ستحصل على حصةٍ من الأرباح.»

قال اللورد: «لكني لستُ بحاجة إلى المال.»

رد ماكيلر: «لكنَّنا بحاجةٍ إليه.»

قال اللورد: «حسنًا أتفهَّم الأمر. لماذا لا يكتفي جاك بالنزاهة النِّسبية للقمار؟ ما الذي يُريد أن يشغل نفسه به في المدينة؟»

قال ماكيلر: «أظنُّ أنه لا يجني ٣٠ ألفًا في السنة.»

قال اللورد: «هذا مرجَّح جدًّا، مرجَّح جدًّا. نعم، هذا يبدو لي تفسيرًا كافيًا. حسنًا، سيد ماكيلر، سأُعطيك الدقائق العشر، وحاول أن تجعل كلامك بسيطًا قدْر الإمكان. آمُل ألا تُدخِل الإحصائيات فيه. فأنا لستُ جيدًا في الحسابات.»

قال الشاب بوضوح وبلا مواربة: «يعمل والدي سمسارًا للأسهم في المدينة. اسم الشركة ماكيلر وابنه. وأنا الابن.»

قال اللورد: «إنك لا تبدو لي سمسارًا للأسهم، أو بعبارةٍ أخرى، لستَ كما كنتُ أتوقَّع أن يبدو سماسرة الأسهم؛ فأنا لم أقابل أحدًا منهم من قبل.»

قال ماكيلر: «لا، أنا في الحقيقة مهندس تعدين.»

قال اللورد: «لكنَّ سيدي العزيز، لقد قلت للتوِّ إنك سمسار للأسهم.»

رد ماكيلر: «قلت إنَّ والدي هو الذي يعمل سمسارًا للأسهم.»

قال اللورد: «قلت إنَّ اسم الشركة ماكيلر وابنه، وإنك أنت الابن.»

قال ماكيلر: «أنا شريك في الشركة، ولكنِّي مع ذلك مهندس تعدين.»

قال اللورد: «وهل يجعل سماسرة الأسهم أبناءهم مهندسي تعدين؟»

رد ماكيلر: «واحد منهم فعل، والدي رجل شديد النزاهة، وفضَّل أن أكون مهندسًا.»
ارتفع حاجِبا اللورد مرةً أخرى.

وقال: «رجل نزيه وسمسار أسهم؟ أنت حقًّا تُثير اهتمامي، على الرغم من تشاؤمي.»

تابع ماكيلر دون أن يولِي اهتمامًا: «تكمُن الصعوبةُ الكبرى في الحصول على تقديرٍ صادق للقيمة الفِعلية لأي منطقةِ تعدينٍ نائيةٍ معروضةٍ للبيع في لندن. وما من عمليةِ احتيال وقعت في مجال التعدين وانخدع بها العامة إلا وكانت مُقترنةً بتقاريرَ هندسيةٍ أعدَّها رجال ذَوو مكانة رفيعة تفيد بأن لمنطقة التعدين قيمةً كبيرة ثم سرعان ما يتبيَّن عدمُ موثوقية تلك التقارير، لذا جعلني والدي مهندسَ تعدين، وقبْل أن يلمَس أيَّ منطقة من هذا النوع أو ينصح عملاءه بالاستثمار فيها، يُجبِر المروِّجين لمنطقة التعدين على إرسالي إلى المنجم وفحصه.»

قال اللورد وبصيصٌ من الفهم في عينيه: «فهمت. يا له من عجوز ذكي! يحمي نفسه وعملاءه، ويوفِّر لك — ابنه — رزقًا جيدًا؛ وذلك على حساب المروِّجين. ممتاز. واصل.»

لأول مرةٍ ابتسم الشاب بيتر ماكيلر. وقال: «نعم، أبي ذكيٌّ جدًّا. إنه من الشمال، ولكنه تعرَّض للسرقة على غيرِ المتوقَّع، وستُقرِّر الساعاتُ القليلة القادمة ما إذا كانت مدخرات حياته ستذهب أدراجَ الرياح أم لا» وتابع وهو يلقي نظرةً سريعةً على ساعته: «في الواقع، سيتحدَّد ذلك في غضون الدقائق الثماني القادمة، اعتمادًا على ما إذا كنتُ قد أثرتُ اهتمامك أم لا.»

قال اللورد: «أكمل.»

«في أوائل العام عَرضت عليه مجموعةٌ مكوَّنة من سبعة نقابيين منطقةَ تعدين تُسمَّى «رد شالوز» تقع في غرب أفريقيا، كانوا مُمولين قَديرين، غير أنهم كانوا عديمي الضمير. بدَت قصتهم في ظاهرِها مُذهلة؛ فقد كان الذهب على السطح، وكانت قيمته تُقدَّر بألفِ ضعفٍ للمبلغ الذي كانوا يرغبون في تشكيل الشركة به. وأرادوا أن يُشاركهم والدي في رأس مال الشركة بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه، واشترطوا بَيع الأسهم لا بالاكتتاب العام، بل ببيعها لعملاء والدي في إطارٍ من الخصوصية. وكان المُفترَض عندما تَثبت قيمةُ منطقة التعدين بأكملها أن تُباع أسهم الشركة بمبالغَ طائلةٍ قد تصل إلى الملايين، وأن يحصُل والدي على حصةٍ من هذه الأرباح.»

قال اللورد: «عفوًا على المقاطعة.»

وتابع: «إذا كان ما قاله هؤلاء الرجال صحيحًا، فلماذا لم يُرسلوا شخصًا يجمع الذهب الذي يحتاجونه في سلة، دون الذهاب إلى أيِّ سمسارِ أسهمٍ والدخول في شراكة معه.»

«هذا ما اعتقده والدي أيها اللورد، رغم أنه لم يُصدِّق كلمةً من قصتِهم بالطبع. ومع ذلك، فقد فهِم أن هؤلاء الرجال ليسوا من كبار رجال التعدين؛ لقد كانوا مجرَّد مُموِّلين ومضاربين لا يرغبون في انتظارِ التطويرِ الكاملِ لمنطقتهم التعدينية، لكنَّهم ببساطة كانوا ينْوون — على حدِّ قولهم — فعْلَ كلِّ ما هو ضروري لإقناع العامة بأنَّ منجمهم يفوق في حجمه أكثرَ مناجم منطقة راند إدرارًا للذهب، وبهذه الطريقة ينالون «الذهب»، ليس من بطن الأرض، بل من جيوب البريطانيين؛ ولكن، كما قلت، لم يُصدِّق أيَّ كلمة من قصتِهم. ومع ذلك، فقد وضع الشرطَ المُعتاد بضرورة إرسالي إلى هناك، ووضع الرجالُ السبعة على الفور بين يدَيه المبلغَ اللازم لنفقاتي، وانطلقت أنا في رحلتي.»

سأل اللورد: «لماذا يُنفِق مُمولون عقلاء أموالًا كثيرة وهم يعلمون أن ذلك سيؤدي إلى كشف زيف ادعائهم؟»

«لقد خطرت لي ولأبي هذه الفكرةُ أيها اللورد. لقد فكَّرتُ في الأمرِ بهذه الطريقة: استحوذ هؤلاء الرجالُ السبعة على حقول الذهب من مجموعةٍ من المُستكشِفين أو من مُستكشِف واحد اكتشفها. ومن المُحتمَل أنهم دفعوا القليل جدًّا من المال للمُكتشِف. ربما لم يشتروا الحقولَ بأكملها، ولكن اكتفَوا بحجزِ حصةٍ فيها. ويبدو أن مَن تنازل عن الحصة التي حجَزَها — أيًّا كان — نجحَ في إقناعِ الآخرين بصدقِ ادِّعائه. ولا أعرف ما إذا كانوا قد افتقروا إلى رأس المال الكافي لتطوير المنطقة التعدينية، أو فضَّلوا المخاطرةَ بأموال الآخرين في فتح المنجم، لكن من الواضح أنهم اعتقدوا أن الأمر يستحق إنفاقَ بعضٍ من أموالهم الخاصة وإرسالي إلى هناك، ليحصلوا على رأيٍ يفترضون استقلاليته وصدْقه بشأنِ قيمةِ المنطقة التعدينية. ومهما كان الأمر، لم يكن هناك مخاطرةٌ مالية من المتوقَّع حدوثها. وثبت أن المنطقة التعدينية أكثرُ ثراءً مما قالوا. نادرًا ما يحدث في المدينة أن تفوق قيمةُ أي شيء معروض للبيع السِّعرَ المطلوب فيه بكثير، لدرجةِ أن جماعة الرجال أنفسهم تفاجئوا عندما قرءوا تقريري. تمَّت الترتيبات والتوقيع على الوثيقة قبل مُغادرتي إنجلترا، بأن يُعطيَهم والدي ما لا يقلُّ عن ٥٠ ألف جنيه ولا يزيد عن ١٠٠ ألف من رأس المال العامل لإرسال بعثة استِكشافية، وشراء الآلات، وما إلى ذلك. بيْد أن الجماعةَ اقترحوا حينئذٍ أن تُشكَّل الشركةُ بما يُقاربُ المليون جنيه. أشار لهم والدي إلى استحالةِ الحصول على هذا المبلغ؛ لأنَّ المنطقة التعدينية كانت في منطقةٍ لم يكن معروفًا عنها غناها بالذهب حتى ذلك الحين. ثم مرةً أخرى، لم يكن لمكانتي كمهندس تعدين أيُّ أهمية محدَّدة. وعلى الرغم من أن والدي كان يؤمن إيمانًا مُطلقًا بتقاريري، إلا أنني كنت أفتقر إلى الشهرة في مهنتي، وسيكون من الحماقة مُحاولةُ جمعِ أيِّ مبلغ كبير وفقًا لكلامي غير المدعوم، بل سيكون من غير الآمن نشرُ هذا الاكتشاف بإرسالِ مُهندسين ذوي شهرة أكبر. إلى جانب ذلك، كما قلت، تمَّ التوقيعُ على جميع الأوراق وختْمُها، وأصرَّ والدي الذي كان يتمتَّع بقدْر كبير من عناد أهل الشمال بطبيعته، على تنفيذ المشروع كما كان مُتوقعًا في البداية، لذلك اضطُرَّت الجماعةُ إلى تأجيل سرقتِها لأموال العامة.

كان أجرُ والدي حصةً كبيرة من الأسهم المدفوعة في الشركة، ولكن بالإضافة إلى ذلك، فقد وثق بتقريري كثيرًا لدرجةِ أنه اكتتب بنفسه، ودفع ثمن الأسهم إلى حدٍّ أدَّى إلى تضييق موارده. ومع ذلك، وافق البنك الذي يتعامل معه — وكان المدير يعرفه جيدًا — على الدفع مقابل منطقة «رد شالوز» مقدمًا بمجرد حصولهم على عرض أسعار في البورصة.

وتمَّ طرح الأسهم بنجاح، واكتتب أصدقاء والدي بسخاء استنادًا إلى ثقتهم في قوله إنَّ «رد شالوز» كانت منطقةً جيدة. وبِيع من الأسهم ما قيمته ٥٠ ألف جنيه فقط، وكان ذلك كافيًا لشراء الآلات، وإرسالِ رجالٍ في باخرةٍ مُستأجَرة، ومعهم الموادُّ اللازمة لتشْييد أيِّ مبانٍ وتركيب أيِّ أجهزةٍ من المُفترض أن تكون ضرورية. أما باقي الأسهم فكانت مملوكة للنقابيين باستثناء المبلغ المخصَّص لوالدي كأجر عن عمله. كان من المقرَّر تعييني مهندسًا للمنجم، وذهبت إلى ساوثهامبتون لاستئجارِ باخرةٍ مناسبة، عندما حدث فجأة هجومٌ على الشركة الجديدة. قادت العديد من الصحف المالية هذا الهجوم، قائلة إن الجمهور تعرَّض لتضليلٍ صارخ؛ وإنه لا يوجد أيُّ ذهب أو معادن أخرى على امتداد مئات من الأميال المحيطة بتلك البقعة، وإن كلَّ مَن استثمر في المشروع سيَخسر أمواله. بعد ذلك مباشرة، تخلَّص النقابيون من أسهمهم في السوق، وانخفض سعرها بسرعة.»

قاطعه اللورد: «انتظر لحظة. أعتقد أنني منحتُك أكثرَ من العشر دقائق الموعودة، لكنَّني أعتقد أنني تمكَّنت من متابعتك حتى هذه اللحظة. الآن، أود أن أطرح سؤالًا أو اثنين. ألم يعلم الرجالُ السبعة أن طرْحَ أسهمهم في السوق سيُؤدي إلى انخفاض سعر الأسهم؟»

رد ماكيلر: «بل كانوا يعرفون ذلك جيدًا.»

سأل اللورد: «إذن لماذا قد يرغبون في الانتقاصِ من قيمةِ منطقتهم التعدينية؟»

رد ماكيلر: «لإبعاد والدي وأصدقائه.»

قال اللورد: «كيف يُمكنهم فعلُ ذلك إذا رفض والدك وأصدقاؤه البيع؟»

رد ماكيلر: «في واقع الأمر، باع العديد من أصدقاء والدي أسهمهم. أصابهم الخوف وفضَّلوا الخسارةَ الجزئيةَ على خسارةِ كل شيء. كما ترى، كان والدي قد أودع في البنك كل الأوراق المالية التي كان يمتلكها، ولكن مع الانخفاضِ المستمرِّ لسعر الأسهم، قلَّت قيمتُها أكثرَ وأكثرَ كلَّ يوم؛ في الواقع، أصبحتْ لا تَصلُح للبيع في الوقت الحاضر. وطلب منه البنك وضْعَ المزيد من الأوراق المالية، أو النقد، وإلا فسيَبيع كلَّ ممتلكاته بأي سعر.»

سأل اللورد: «ولكن ألن يلحق الخرابُ بالنقابيين أيضًا إذا لحِق بوالدك؟»

رد ماكيلر: «كلا. عقدَ المموِّلون اجتماعهم السنوي، وعيَّنوا رئيسًا، ومجلس إدارة، وكل شيء، وسيظل أعضاء مجلس الإدارة في منصبهم لمدة عام. وبمجرد أن يتم القضاءُ على والدي وأصدقائه، سيُعيد النقابيون بهدوء شراء الأسهم بسعرٍ أقلَّ بكثيرٍ من السعر الذي باعوها به، وحتى بسحقِهم والدي سيكونون قد جنَوا قدرًا كبيرًا من المال.»

قال اللورد: «يُصيبون عصفورين بحجر واحد، صحيح؟ أليس هناك وجود للامتنان في لندن على الإطلاق؟»

قال ماكيلر: «يؤسفني، أيها اللورد، أنه لا يوجد الكثيرُ منه.»

سأل اللورد: «ما المبلغُ الذي تحتاجه لحماية أسهم والدك؟»

رد ماكيلر: «أعتقد أن خمسة آلاف جنيه تَفي بالغرض.»

قال اللورد: «أنا لا أتظاهَر بأنني أعرف الكثير عن الأعمال، سيد ماكيلر، ولكن يبدو لي أن هذا مجرَّد بداية المشكلات. لنَفترض أنهم استمرُّوا، وخفَّضوا سعرَ الأسهم أكثرَ، ألن يكون عليَّ حينئذٍ أن أضع خمسة آلاف جنيه ثانية في يديك لحماية الخمسة آلاف الأولى؟»

رد ماكيلر: «هذا صحيح، لورد سترانلي، لكنِّي لا أفهم كيف يُمكن أن تنخفضَ الأسهم أكثرَ مما هي عليه الآن. لقد أغلقتْ أمسِ على ٩٢ للسهمِ البالغةِ قيمتُه جنيهًا واحدًا. لكن على أي حال، سيقف البنكُ إلى جانب والدي إن أمكن ذلك. فالمُدير يثق به، على الرغم من أن هذا المسئول يجب أن يقدِّم مصلحةَ رؤسائه بالطبع، لكنَّ حقيقةَ أن والدي يُمكنه دفعُ خمسة آلاف جنيه هذا الصباح ستفعل الكثيرَ للحفاظ على سمعته مع المدير، وفي غضون أيامٍ قليلة سيكون لدينا الوقت لتغيير دفةِ الأمورِ لصالحنا. لقد قابلت بالفعل مُموِّلًا أو اثنين، وأخبرتهم عن المنطقة التعدينية، لكنهم يُراعون اعتبارات المدينة، وقد رفضوا ما يعتبرونه محاولةً لتحميلهم الخسارة. لذلك قصدت السيد هازل، وطلبت منه أن يعرِّفني بأحد الأثرياء الذين يجهلون كيفية سير الأمور في المدينة.»

لأول مرةٍ خلال المقابلة، انحنى اللورد إلى الوراء وضحِك قليلًا وقال:

«أنت تُعوِّل على جهلي إذن؟»

رد ماكيلر: «كلا، اعتقدت أنه ربما يُمكنني إقناعك.»

لم يقُل اللورد ما إذا كان يصدِّقه أم لا، لكنه ضغط على زرٍّ أسفل المكتب، ودخل إليه رجل ذو وجه وقور، وقف مثل التمثال، في انتظار الأوامر.

قال اللورد: «بيركنز، هلا تُحضر لي أربعة دفاتر شيكات؟»

فجاءه الرد: «حسنًا أيها اللورد.»

أردف اللورد: «بيركنز، أخبر هنري أن يكون على الباب بسيارتي الحمراء في غضون ست دقائق.»

رد بيركنز: «حسنًا أيها اللورد.»

غادر الرجل وعاد بعد لحظات قليلة، ووضَع على المكتب أربعة دفاتر شيكات رقيقة جدًّا، ثم خرج أخيرًا دون أن يُصدِر أيَّ صوت كما دخل.

قال اللورد لماكيلر: «دفتر الشيكات العادي، يُشوِّه معطفَ المرء عند وضعه في الجيب الداخلي؛ لذا طلبتُ صنْع دفاتري بشيك واحد فقط في الداخل. سأَكتُب لك الآن شيكًا بخمسة آلاف جنيه، حتى لا أحتاج إلى حمل غلاف الدفتر معي.»

بتروٍّ كبير، كتب اللورد الشاب شيكًا، وقطعه من الدفتر، وسلَّمه لماكيلر.

وقال: «سأُقرِضُك هذا المبلغ، لكنِّي لا أعتقد أنه سيأتي بفائدةٍ تُذْكر.»

رد ماكيلر: «أنا مُتأكِّد تمامًا من أنه سيَحمي أسهُم والدي، أيها اللورد، ولأنني متأكد من أن الأسهم ستُساوي ١٠٠ سوفرن للجنيه، إذا قبِلت نصف أسهم والدي مُقابل هذا الشيك، يُمكنني أن أعدك بأنك ستَجني من وراء ذلك أكبرَ دخلٍ حقَّقتَه في يوم واحد.»

قال اللورد: «لن يكون لذلك تأثيرٌ يُذكَر. بالطبع، كما أخبرتك، أنا لا أتظاهر بالبراعة في الشئون التجارية، ولكن يبدو أن نقطة الضعف في دفاعك تَكمُن في هذا. أمام حكمائك السبعة عامٌ للعب فيه. ألم تَقُل إن الرئيس ومجلس الإدارة انتُخبوا منذ بضعة أيام فقط؟»

رد ماكيلر: «نعم أيها اللورد، هذا صحيح.»

قال اللورد: «حسنًا، ألا ترى أن لديهم ما يقرب من ١٢ شهرًا يُمكنهم خلالها الضغط أكثرَ على أسهمِك. سيملُّ البنك من الاحتفاظ بما يعتبره أوراقًا مالية لا قيمةَ لها، وما لم يتمكَّن والدك من الحصول على ما يكفي من المال لاسترداد كلِّ ما أودعه في البنك، فإنَّ هذه الخمسة آلاف لن تَنجح حتى كحلٍّ مؤقَّت.»

ردَّ ماكيلر: «لا أتَّفق معك أيها اللورد، سأستمرُّ في العمل بجدٍّ من جانبي. سوف أطبع تقريري وأرسله إلى كل مُموِّل كبير في المدينة. سأروي قصة أفعال هذه الجماعة الدنيئة كاملة.»

قال اللورد: «لن يُصدِّقَك الناس يا ماكيلر.»

رد ماكيلر: «لن يُصدقني الكثيرون، ولكن البعض قد يُصدقونني ويُقرِّرون المخاطرةَ بمبلغ صغير من المال لشراء بعضها عندما يلاحظون سعرها الشديد الانخفاض. هؤلاء النقابيُّون أذكياء بما يكفي ليعرفوا أنهم سوف يُثيرون الفضول، وأن مُهندسًا آخر قد يتمُّ إرساله إلى المنطقة التعدينية. لا، أنا مقتنع بأنهم إذا لم يتمكَّنوا من تدمير والدي قبل نهاية الأسبوع المقبل، فلن يُخاطروا أبدًا بما يعرفون الآن أنها منطقةٌ قيِّمة من خلال ترك أسهُمها مُتاحة يُمكن لأيِّ شخص الحصول عليها.»

قال اللورد: «أنت مُتفائل، كما أرى. هذا لأنك صُلت وجُلت كثيرًا، بدلًا من أن تطمح لمنصب والدك.»

في هذه اللحظة وصل خبر وصول السيارة، وقام اللورد ببطء من مكانِه.

وقال: «سأقلُّك إلى مكتب والدك، وأريد منك أن تُعرِّفني عليه. لقد كنت أنظر إلى هذه المسألة فقط من وجهة نظر مهندس التعدين. وأودُّ أن أعرف ما هي وجهة نظر المدينة، وسأحصل عليها من والدك إذا كان رجلًا صادقًا كما تقول. لذلك سنَنطلق إلى المدينة معًا. أظن أنه كلما أسرعت في إيداع الشيك في البنك الذي تتعامل معه، كان ذلك أفضل.»

رد ماكيلر: «نعم، يفتح البنك في الساعة العاشرة، وقد تجاوزت العاشرة الآن.»

بينما كان اللورد يركب مع ضيفه في المقعد الخلفي لسيارة حمراء ضخمة، قال له وهو يبتسم ابتسامةً مبتذلة: «لقد استغرقنا أكثرَ من ١٠ دقائق»، وانطلقت السيارة في اتجاه الشرق.

اصطحب ماكيلر اللورد سترانلي — لورد ويتشوود — إلى غرفة سمسار الأسهُم، فوجداه رجلًا ذا وجهٍ عابس وشعر أبيض، يبدو منهكًا، وينظر إليهما نظرةً مُنكسِرة وهو يجلس إلى مكتبه.

قال الابن على الفور: «حصلت على خمسة آلاف جنيه.»

قال الأب: «إذن أسرعْ بها إلى البنك.»

رد الابن: «سأفعل، فور أن أعرِّفك باللورد سترانلي، من ويتشوود. أستأذنك للانصراف أيها اللورد.»

قال اللورد: «تفضَّل، لقد رغبتُ في عدم حضورك، كما تتذكَّر؛ لأنني لستُ واثقًا في خطتك على الإطلاق»، لكن الشاب كان قد رحل قبل أن يُنهي اللورد جملته.

نظر ماكيلر الأب باهتمام إلى الوافد الجديد، وجلس اللورد لما دُعيَ إلى الجلوس.

قال ماكيلر الأب: «هل حصل ابني على المال منك؟»

رد اللورد: «نعم.»

قال ماكيلر الأب: «إذا كنتَ لا تَثق بخطَّته، فلماذا أعطيته المال؟»

«هذا هو السؤال الذي كنتُ أطرحه على نفسي يا سيد ماكيلر. أعتقد أنه تمكَّن من إقناعي، وعلى الرغم من عزمي على عدم القيام بذلك، فقد أصبحت مُهتمًّا بالقصة التي رواها لي. أعتقد أن النقابيين السبعة لا بد أن يكونوا استثنائيين، أليسوا كذلك؟»

قال ماكيلر الأب: «بل الشيء الاستثنائي هو أنْ أُخدع كتلميذٍ غِر.»

قال اللورد: «لستُ على دراية بأساليب المدينة، سيد ماكيلر، وأودُّ أن أعرف كيف جرَت حالةٌ كهذه. هل يبيع رجالُك السبعة أسهمهم شخصيًّا؟»

سأل ماكيلر الأب: «ماذا تقصد بقولك شخصيًّا؟ إنهم لا يذهبون إلى السوق ويُتاجرون بالطبع.»

قال اللورد: «إذن لا بدَّ أنهم يستعينون بشخصٍ آخر؟»

قال ماكيلر الأب: «إنهم يوظِّفون العديد من السماسرة، وكلهم يعرضون الأسهم للبيع ولا يشتريها أحد.»

قال اللورد: «هل تَعرف هؤلاء السماسرة، سيد ماكيلر؟»

رد ماكيلر الأب: «أعرفهم جميعًا.»

سأل اللورد: «وهل هم أعداء لك؟»

قال ماكيلر الأب: «لا توجد عداوة ولا صداقة في المدينة يا لورد سترانلي.»

قال اللورد: «إذن فمَعارفك المقرَّبون مُستعدُّون لتحطيمك كليًّا من أجل الربح؟»

رد ماكيلر الأب: «بالطبع.»

قال اللورد: «يا له من وكرٍ للوحوش الضارية!»

قال ماكيلر: «نعم، لقد اعتقدت ذلك منذ فترة طويلة، وبالفعل، مع هذه الصفقة كنتُ أنوي الانسحابَ من العمل والاستقرار في مزرعتي. كما ترى، لم أُنشئ ابني الوحيد لهذا العمل، لكن لسوء الحظ تعرَّضتُ للسرقة في اللحظة التي كنتُ أنوي فيها التوقُّف، كما هو الحال غالبًا. كنت أتوقَّع أن امتلاكي لهذا المنجم لن يجعلَني ميسور الحال فحسب، بل ثريًّا؛ لأنَّ لديَّ ثقةً تامَّة في تقرير ابني، ويَقيني بالحصول على ثروة منَعني من توخِّي الحذر الكافي في حين كان يجب عليَّ أن أكون يقِظًا للغاية.»

سأل اللورد: «هل تَعتقِد أن الخمسة آلاف جنيه سوف تحُلُّ مشكلتَك؟»

قال ماكيلر الأب: «لا أعلم. لقد ساد الذعر بين مَن أقنعتهم بالدخول معي في هذه الصفقة، ولكن إذا أفصحتُ عن الأمر بنفسي، فلن تتضرَّر سُمعتي، وأعتقد أنه إذا كان بإمكاني الصمود لمدة أسبوع أو أسبوعَين إضافيَّين، فستتبدَّل الأحوال. لقد سعيت طوال حياتي لتحرِّي الصدق في مزاولة عملي، ولا بد أن يُبرئ ذلك ساحتي عندما يتوقَّف الذُّعر.»

قال اللورد: «هل تقصد، إذن يا سيد ماكيلر، أن انخفاض سعر هذا المنجم تسبَّب في حالة من الذعر المالي في المدينة؟»

قال ماكيلر الأب: «كلا، عندما أقول إنَّ الذعر قد ساد، أعني بذلك فقط أولئك القلائل الذين اشتركوا معي؛ الذين صدَّقوني عندما أخبرتهم أنَّ هذا كان بالنسبة لي من أفضل

الأشياء التي قدَّمتها على الإطلاق. إنَّ طرح أسهم «رد شالوز» هو أمرٌ بسيط جدًّا بحيث لا يتسبَّب حتى في حدوث أقلِّ ارتباك في المدينة، ومع ذلك فهو يُهدِّد بالقضاء عليَّ.»

قال اللورد: «قلت إن هناك ٢٠ سمسارًا يبيعون هذه الأسهم، وإنك تعرف أسماءهم. لكن أتعرف أين يعرضون الأسهم؟»

رد ماكيلر الأب: «في البورصة، وفي مكاتبهم، وفي الشارع، في أيِّ مكان.»

قال اللورد: «هل هناك ٢٠ سمسارًا آخرون يُمكنُك الوثوق بهم؟»

رد ماكيلر: «نعم.»

قال اللورد: «لنَفترِض أنه اليوم في الساعة الثانية عشرة بالضبط، ذهب العشرون سمسارًا التابعون لك إلى مكاتب العشرين الآخرين، هل سيجدون في تلك المكاتب شخصًا ما ليَبيع لهم هذه الأسهم؟»

رد ماكيلر: «نعم.»

سأل اللورد: «حتى لو لم يكن الموكِّل هناك؟»

أجاب ماكيلر: «نعم.»

سأل اللورد: «هل سيَتواصَل مجموعة السماسرة بعضهم مع بعض أو مع موكِّليهم قبل البيع؟»

رد ماكيلر: «لا أعلم. سيَعتمِد هذا على التعليمات الصادرة لهم.»

قال اللورد: «ماذا لو رفضوا البيع عند تقديمِ عرضٍ بحُسن نية؟»

«حينها سيَرتفِع السَّهم على الفور، ولن تكون هناك حاجةٌ إلى الخمسة آلاف جنيه الخاصَّة بك. أفهم ما تَعنيه يا لورد سترانلي. تُريد أن تجعل السماسِرة التابعين لي يتظاهَرون بالرغبة في الشراء. لكن سماسرة النقابيِّين السبعة حينئذٍ سيتخلَّصون من الأسهم على الفور، لن يرفضوا البيع.»

قال اللورد: «هذا ما أخشاه، حسنًا، سيد ماكيلر، نفِّذ هذه المهمة، وهي أول مهمة أسندها إلى أحدٍ في المدينة. لقد اعتدتُ أكثرَ على المقامرة في النادي الخاص بي أو في مونت كارلو، لذلك يجب أن أَعتمِد عليك في الاهتمام بالتفاصيل. اخترِ العِشرين رجلًا بهدوء ولكن بسرعة، وأعطِهم تفويضًا مُطلقًا، ولكن اشترطْ أن يقصد كل واحد السمسار الذي ستُحدِّده له، في نفس اللحظة بالضبط. حاول منعَ أيِّ تواصُل بين سماسرة المجموعة إن أمكن، وأْمُر رجالَكَ العشرين أن يشتروا كلَّ أسهم «رد شالوز».»

قال ماكيلر الأب: «ولكن، أيها اللورد، قد يحتاج ذلك إلى مبالغَ طائلة، وسيُصرُّ البائعون على الدفع الفوري.»

رد اللورد: «وسيتمُّ لهم ذلك، سيد ماكيلر. أنا مُقامر بطبيعة الحال، وهذه اللعبة تبهرني، لأنَّني لا أفهمها.»

قال ماكيلر: «أعتقد أنك تَفهم عنها أكثرَ بكثير مما يبدو عليك، أيها اللورد، لكن هذا قد يتطلَّب نصف مليون جنيه.»

قال اللورد: «حسنًا، جهِّز الأوراق اللازمة لحِمايتك. سأضع المال تحت تصرُّفك، ويجب أن يكون لدينا كل الأسهم المعروضة للبيع الساعة الثانية عشرة و١٠ دقائق. كنت قد اعتدت على فترة العشر دقائق في التعامل مع ابنك، لكنَّنا في هذه الحالة سنُعطي هذه المهمة نصف ساعة ونرى ما سيحدث.»

نظر ماكيلر الأب في صرامةٍ إلى اللورد الشاب الأنيق ذي المظهر الجميل والهندام المنمَّق والثقة البالغة، فارتبك الشابُّ بفعل تلك النظرات الفاحصة المسلَّطة عليه من عينين كعينَي الصقر، لدرجةِ أنه خفض عينَيه حييًّا كالفتاة، وتظاهر بنفضِ ذرَّةِ غبار عن ساق بنطاله اليُمنى بالقفاز الأنيق الذي كان يُمسكه بيُمناه.

لا يحتاج المرء إلى أن يكون ضليعًا في الطبيعة البشرية لفهم الإغراء الذي شعر به حينئذٍ سمسار البورصة ذو الشعر الرمادي. كان الأمر كما لو أنَّ حمامةً لونُها بني فاتح تَستعطف نسرًا أصلعَ انقضَّ عليها من عشِّه بين الصخور العليَّة ألَّا ينقض عليها ويعود بها طعامًا لفراخه التي تتضور جوعًا. أو أن حملًا وحيدًا يُفاوض بثُغَائه المتحفِّظ ذئبًا جائعًا. كان ما جرى تجسيدًا لوضعٍ يحلم به رجال المدينة في ليلةٍ هانئة. هنا، في عرين سمسار الأسهم، يدخل ببراءة عضو نادٍ من الجانب الغربي، شخص مِن ذوي الحيثية، فاحش الثراء، يُخفي أسفل الثقافة التي اكتسبها من الجامعات غطرسةً وجهلًا بنفس القدْر. كان هناك طيرٌ سيُنتَف ريشه، ولم يكن ريشه غزيرًا فحسب، بل كان من أغلى أنواع الريش، وانفرَد ماكيلر الفطِن بالضحية تمامًا لنفسه، دون تدخُّل أي شخص ليحميها. ومع أن سمسار الأسهم العجوز كان يَعلم الكثيرَ عن المدينة، فإن ذلك لم يُعفِه من الوقوع في الشَّرَك الذي نُصِب له. أخذ نفسًا طويلًا وأطلق تنهيدةً عميقة قبل أن يتحدَّث.

وأخيرًا قال بصرامة: «لورد سترانلي، من واجبي أن أُحذِّرك من أنك تضع قدميك في مستنقعٍ قد يكون عميقًا جدًّا لدرجةِ أنك ستَغرق فيه. لا يُمكن لأي شخص أن يعرف ماذا تخبِّئ هذه المجموعة في جَعبتها، وفور أن تتورَّط معهم قد يصعب الفِكاكُ منهم، وقد يُجرِّدونك من جميع ممتلكاتك التي سمعتُ عن عظمتها. لقد أعطيتَ ابني شيكًا بخمسة آلاف جنيه وتقول إنك فعلت ذلك لأنك وثقت به. هذا التعبير يمَسُّ قلبي المُتحجِّر، أنا أيضًا

أَثِق به، وهذه الثقة هي كلُّ ما أمتلك في هذا العالم اليوم. إذا كنتَ ترغب في حماية تلك الخمسة آلاف، فافعل ذلك بإعطائه خمسةً أخرى أو أكثر. ابني هو كلُّ ما تبقَّى لي. أنا أقاتل من أجله أكثرَ من نفسي. ها أنت ذا، في مثلِ عمره تقريبًا، ولكنَّك تفتقر إلى الخبرة تمامًا في التحايل المالي؛ لذلك لا يمكنني السماح لك بالمضي قُدُمًا معصوبَ العينين نحو هذا الاضطراب المالي.»

رفع الشابُّ عينَيه إلى مُحدِّثه، وكانت ابتسامته ساحرةً بشكل فريد. وحلَّت حيوية ممتعة محلَّ التعبير السطحي المعتاد لوجهه.

وقال: «ولكنَّك من ذوي الخبرة يا سيد ماكيلر، صحيح؟»

رد ماكيلر: «نعم، وانظر إلى أين أوقعتْني خبرتي. أنا غارق حتى رقبتي، بل حتى فمي، في هذه الورطة الكريهة؛ وسأكون مُفلسًا بمجرَّد أن يعلن موظَّف البنك ذلك.»

قال اللورد: «هل درستَ في الجامعة، سيد ماكيلر؟»

رد ماكيلر: «لا.»

قال اللورد: «ربما لا تؤمن كثيرًا بالتدريب الجامعي؟»

رد ماكيلر: «لا أومن به البتَّة رغم كوني رجلًا عمليًّا، إنه أسوأ تدريب على الإطلاق لمن ينوي الانخراط في الأعمال التجارية.»

قال اللورد: «في هذه الحالة، سيد ماكيلر، أتردَّد في الاستشهادِ بمثالٍ تاريخيٍّ خطرَ ببالي عندما كان ابنك يتحدَّث معي عن نقابيِّيك السبعة. ونظرًا لأن الحادثة عمرها ٦٠٠ عام، فمن غيرِ المرجَّح أن تثير إعجابَ رجل المدينة العصري. ومع ذلك، كان هناك في يومٍ من الأيام على هذه الأرض مجموعةٌ من سبعةِ رجال أقوى وأهم بكثيرٍ من رفاقك. وكان زعيمُهم جاك دو مولاي، القائد الأكبر لفرسان المعبد، والستة الآخرون هم ضباطه الأقوياء الأتقياء. لقد كانوا أناسًا مُتعجرفين، وكانت ثروتهم طائلة. أودع الملوك والنبلاء ثرواتهم لدى فرسان المعبد، الذين كانوا بمثابة المصرفيِّين في ذلك الوقت، وبلغ ثراء المجموعة حدًّا جعلها تُشكِّل خطرًا على العالم. رجالك السبعة التافهون الذين تُحاول تخويفي بهم هم مجرَّد دمًى عديمة الحيلة مقارنةً بعمالقة المال السبعة الذين أُخبرك بشأنهم. وإلى جانب المال، كان يتمتَّع هؤلاء السبعة البارزون بدعمِ قوةٍ مسلَّحة من المحاربين القُدامى، قد يرتعِش أمامهم ملِكٌ بجيشه. لكن فيليب لو بيل، ملك فرنسا، لم يرتعش. واتَّبع مع السبعة قاعدةَ الساعة الثانية عشرة التي أوصيك بها. وقت الظهيرة، يوم ١٣ أكتوبر عام ١٣٠٧ (ولاحِظ تكرار رقم ١٣ المشئوم) قُبِض على كل فرسان المعبد في فرنسا. لم يمنحهم أيَّ

فرصة للتواصُل بعضهم مع بعض. كان جيش فرسان المعبد بلا حول ولا قوة. وأصبحت ثروتُهم تحت رحمة الملك. وحُكم على السبعة المكوِّنين للمجموعة بالإعدام حرقًا في باريس.

أتخيَّل أن ابنك ظنَّ أني فقدت انتباهي مرتين أو ثلاث مرات أثناء سرد قصته. رأيتُ التصميم يعلو وجهه كأنه يقول: «سأُثير اهتمامَ هذا الرجل على الرغم من بلاهته.» لكنَّني كنت أفكِّر في التزامن الرائع لتصرُّف الملك، ولا يُساورني شك في أن ماكيلر حذَّره من خطرِ تورطه مع فرسان المعبد. وشعرت برغبةٍ شرِّيرة لتجربة هذه الطريقة التي تعود إلى ستة قرون — أو حركة الملك، كما نُسمِّيها في لعبةِ الشطرنج — في منطقتنا المالية الحديثة واليقظة. لديَّ بعض السيولة النقدية في البنك، ولستُ بحاجة لبيع أيِّ أوراق مالية. على مدى السنوات العشر الماضية، كان دخلي ٣٠ ألف جنيه سنويًّا، ونادرًا ما أنفقتُ أكثرَ من خمسة آلاف من هذا المبلغ في عام واحد. سيارتي أمام باب منزلك وتحت تصرُّفك. أنت وأنا سوف نقود السيارة أولًا إلى المصرفيِّين الذين أتعامل معهم، ونُرتِّب الأمورَ حتى لا يكون هناك أيُّ تأخير فيما يتعلق بالنقود؛ ثم سأستقل سيارة أجرة إلى النادي الخاصِّ بي. رقم الهاتف ١٥٧٦٠ مايفير. فقط دوِّن ذلك، من فضلك. والآن، أيُّ أسهم «رد شالوز» تُباع هذا الصباح؟»

رد ماكيلر: «فُتحت بسعر شلنين وسبعة بنسات على سهم الجنيه، لكنها خسرت عدة نقاط منذ ذلك الحين.»

قال اللورد: «حسنًا، ستَشتري بضع مئات الآلاف من الجنيهات كميةً لا بأسَ بها من الأسهم التي تبلغ قيمتها شلنين وستة بنسات، وإذا تصرَّفنا في وقت واحد، كما هجَم الملك، فسنَحصُل على كل شيء قبل أن يرتفع سعر الأسهم. هيا يا سيد ماكيلر، ليس هناك وقتٌ لنضيعه. إذا نَظَّمت هذه الهجمة في صمتٍ وفعالية، فسوف تُظهِر للسبعة المتوحِّشين أن الرجل العجوز ما زال على قيد الحياة حتى الآن.»

الساعة الواحدة و١٠ دقائق من ذلك اليوم، توقَّفَت سيارةٌ حمراء كبيرة أمام نادي كامبرداون في بول مول، وخرج منها ماكيلر مع ابنه. التقى بهم اللورد سترانلي في القاعة والبُرود وانعدام الحماس باديان عليه، لكنه كان قادمًا من عند جهاز التسجيل الذي كان يُعلِن أن «رد شالوز» كانت تقفز نحو القيمة الاسمية. قادَ اللورد سترانلي زوَّاره إلى غرفة الغرباء، التي كانت فارغة، وأغلق الباب.

قال ماكيلر: «حسنًا، أيها اللورد، لقد باع هؤلاء الحمقى حوالي ٥٠ ألف سهم أكثرَ مما هو موجود بالفعل.»

رد اللورد بتكاسل: «يبدو لي، على الرغم من أنَّني لا أعرف شيئًا عن أساليب المدينة، أن مثل هذا البيع المُفرِط أمرٌ غير حكيم.»

صاح ماكيلر الشابُّ ورفع قبضته الضخمة في الهواء وضمَّها بقوة بحركةٍ تشبه الضغط الهيدروليكي: «غير حكيم! بل أصبحوا في قبضتك، يُمكنك تحطيمهم، لا يُمكنهم الصمود. لم يخسروا المنجم فحسب، ولكن يُمكنك تدميرهم بوضعِ أيِّ سعر تُفضِّله على الأسهم التي قاموا ببيعها ولا يمكنهم توفيرها.»

أكَّد ماكيلر العجوز، وهو يومئ برأسه: «هذا صحيح، ولم يستخدم البنك شيكك البالغ خمسة آلاف جنيه.»

قال الشاب مُبرِزًا الشيك: «ها هو ذا.»

قال اللورد سترانلي، وهو يضع الورقة في جيب صدريته: «آه، حسنًا. لنكن شاكرين أنكما أتيتما في الوقت المناسب للانضمام إليَّ في وجبةٍ ممتازة. كنتُ أتوقَّع مجيئكما، وقد طلبت غداءً فرنسيًّا على شرف الراحل فيليب لو بيل. لقد أعدم المجموعةَ المكوَّنة من سبعة أفراد حرقًا، لكنَّنا سنكتفي بحرق أصابع مجموعتنا.»

الفصل الثاني

المساومة السابقة لأوانها

يشتهِر نادي كامبرداون في بول مول بمأكولاته، وقد قدَّم اللورد سترانلي الشابُّ وجبةَ غداء في اليوم الذي قاموا فيه بالانقلاب الكبير الذي لفَتَ الأنظار حتى في كامبرداون. أثنى ماكيلر الأبُ على النبيذ الفاخر الذي تقاسَمَه اللورد معه، وتبيَّن أن ماكيلر الشاب لا يشرب النبيذ واكتفى بشرب الماء. بعد الغداء، ذهبوا إلى غرفة تدخينٍ خاصة صغيرة؛ حيث يُمكنهم مراجعة الموقف دون مقاطعة، وهنا تمَّ تحضير القهوة، والمشروبات الكحولية، والسيجار، والسجائر، وغادر النادل.

بدأ اللورد الحديثَ قائلًا: «يبدو، إذن، أنك وأنا، سيد ماكيلر، نَملك منطقةً تقع في مكانٍ ما على طول الساحل الغربي لأفريقيا، على بُعد ١٠ أميال أو نحو ذلك من مصبِّ نهرٍ لا أتذكَّر اسمه، ولا أستطيع نُطقَ اسمه إذا تذكَّرتُه.»

قاطعه ماكيلر الأصغر: «باراماكابو.»

رد اللورد سترانلي بتكاسل: «شكرًا.» وتابع: «تُعرف المنطقة باسم «رد شالوز». وأظنُّ أنها سُمِّيت بذلك لأن الذهب أحمرُ ويتراكم على السطح.»

أومأ ماكيلر الأب وابنه برأسيهما.

«آمُل ألا أكون واثقًا بشكلٍ مبالغ فيه عندما أعتبر أنه من المسلَّم به عدم وجود حافلات تَنطلِق إلى باراماكابو أو زوارق بخارية أيضًا؟»

قال بيتر ماكيلر: «لا، إنه على بُعد مئات الأميال من أقرب ميناء تتوقَّف به أيٌّ من السفن العادية، أو حتى السفن البُخارية المتجوِّلة. وبمجرد الوصول إلى هناك، يجب عليك استئجار أيِّ نوع من المراكب الشراعية المتاحة، للوصول إلى مصبِّ باراماكابو.»

«حسنًا. الآن، أظن، سيد ماكيلر، أنه لكونِكَ بارعًا في هذا النوع من الأشياء؛ فقد اشتريتَ أسهمَك بدقةٍ وفقًا لقواعد اللعبة. وهذه النقابة المكوَّنة من سبعةِ رجال لم يتبقَّ لها ثغرة لتهرُب منها، أليس كذلك؟»

قال ماكيلر الأب: «بلى.»

اقترح سترانلي: «سيُحاولون على الأرجح التملُّص بمجرَّد أن يعلموا أنهم مُحاصرون.»

أجاب أنجوس ماكيلر: «بلا شك، لكنَّني لا أرى سبيلًا للفرار إلا من خلال محكمة الإفلاس، وهو طريق لن يرغب هؤلاء الرجال في سلوكه، وحتى لو فعلوا، فقد فقَدوا كل هذه المنطقة، على أيِّ حال. لقد أخرجوا أنفسهم من «رد شالوز»، مهما حدث.»

«كم عدد الأسهم التي اشتريتها سيد ماكيلر؟»

«بتقريب الأرقام ٣٠٠ ألف.»

«وكم كلَّفني ذلك؟»

«مرةً أخرى بتقريب الأرقام، ٣٧ ألفًا و٥٠٠ جنيه. تمَّ شراء بعض الأسهم بسعرٍ مُنخفِض يصل إلى اثنين وأربعة، والجزء الأكبر بشلنَين وستة بنسات وكمية من الأسهم بسعر ٧٢ و٨٢. أنا أحسُب كل شيء بمتوسِّط شلنين وستة بنسات للسهم.»

«كم عدد الأسهم التي تمتلكها الشركة؟»

«يبلغ رأس مال الشركة المصرَّح به ٢٥٠ ألف جنيه إسترليني في شكل أسهُم بقيمة جنيه واحد لكل سهم. بِيعَ ٥٠ ألف سهم لتوفير رأس المال العامل، وخُصِّص لي ١٠ آلاف جنيه لتأسيس الشركة، وتأمين ٥٠ ألف جنيه دون إشهار.»

«حسنًا، سيد ماكيلر، رأسي لا جدوى منه فيما يتعلَّق بالأرقام، لكن يبدو لي، وأنا أتحدَّث بلا مبالاة، أنَّ هؤلاء الرجال قد وعدوا بتسليمي ٦٠ ألف سهم، مُعظمها غير موجود، بينما الباقي في حوزتنا.»

أجاب ماكيلر: «أكثر من ذلك، لورد سترانلي؛ لأنَّني اشتريت كميةً من الأسهم بالإضافة إلى العشرة آلاف المخصَّصة لي؛ ثم ثلاثة أو أربعة من زملائي لم يبيعوا، بمن فيهم صديقك صاحب المقام الرفيع جون هازل.»

«حسنًا، إذن، يبدو أن هؤلاء النقابيِّين قد قضموا أكثرَ مما يُمكنهم مضغه، كما يقولون في الغرب. متى يكتشفون تفاصيل الموقف؟»

«إنهم يعرفون ذلك الآن بلا شك، أيها اللورد.»

«وماذا ستكون خطوتهم الأولى؟»

«ربما يُحاولون المساومة.»

«مما يعني أنهم سيُحاولون رؤيتك؛ لأنهم بالطبع لا يعرفون شيئًا عنِّي في هذه الصفقة.»

«من المُحتمَل جدًّا أن يتقرَّبوا منِّي.»

«ماذا ستفعل يا سيد ماكيلر؟»

«سأنتظر تعليماتك.»

«أوه، تعليماتي لا قيمة لها. أنا مجرَّد هاوٍ كما تَعلم، يُعتمد عليك. بم تنصحني، سيد ماكيلر؟»

«كنت سأُساوِم لو كنتُ مكانك.»

«نعم، الرجل الإنجليزي يحبُّ المساومة بشدة، أليس كذلك؟ ولكن إذا كنتُ أعتقد أن هؤلاء الرفاق سيخوضون معركةً لائقة ومثيرة للاهتمام، أودُّ أن أراهم يرتبكون.»

«لا تتمُّ الأعمال هكذا، أيها اللورد.»

«ليس كذلك؟ حسنًا، كيف تتمُّ الأعمال في المدينة في هذه الحالة؟»

«تجريدُهم من كلِّ ما في حوزتهم، دون جعلِهم مُفلِسين.»

«أوه، هذا نَوع بغيض من المساومة! هذه هي فكرة المدينة عن اللعب النظيف، أليس كذلك؟ يا إلهي! سيُقاومون بالتأكيد إذا واجهوا مثل هذا الاحتمال.»

«كيف يُمكنهم المقاومة؟ لقد تعهَّدوا بتسليمك في أيِّ مكان من ٦٠ إلى ٧٠ ألف سهم من «رد شالوز»، التي لا يمتلكونها ولا يمكنهم الحصول عليها. أنت الرجل الوحيد في العالم الذي يمكنهم منه شراء هذه الأسهم التي باعوها. لا توجد منافسة في هذه الصفقة. يجب أن يدفعوا الثَّمن الذي تطلبه. إذا قلت إن هذه الأسهم التي اشتريتها مقابل ٦٢ بنسًا تساوي الآن ١٠ جنيهات، يجب عليهم دفع الفرْق، أو الإفلاس.»

«حسنًا، سيد ماكيلر، هذا يبدو بسيطًا بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟ المعلومات الوحيدة التي أحتاجها هي مقدار الأموال التي يمتلكُها هؤلاء الرفاق. كيف سأبدأ في كشف الأمر؟»

«يُمكن أن يمنحك البنك الذي تتعامل معه تقديرًا دقيقًا جدًّا، وسأَستفسِر من مصرفي.»

«حسنًا هكذا تمَّت تسوية كل شيء. سأُجسِّد دَور الشرير القاسي القلب في هذه اللعبة، على ما أعتقد؟»

«نعم، قد تكون قاسيَ القلب أو العكس، فقط الذي تختاره.»

«هل ستأتي نساؤهم وأطفالهم ويتوسَّلون لي، على رُكبهم، والدموع في عيونهم؟»

«لقد علمتُ أن ذلك حدث، أيها اللورد، لكنَّني لم أسمع أبدًا أنه كان له أي تأثير في المدينة.»

«أعتقد أنني سأوليك هذه الوظيفة، سيد ماكيلر. ستتلقَّى أنت الاستعطاف. فأنا لا أحب التأثيرَ على مشاعري. يقولون لي إنَّ ترويعَ المشاعر يُسبِّب التجاعيد والشحوب، وأنا حريص بشكلٍ خاصٍّ على بشرتي. يبدو أنَّ كليكما، أنت وابنك، قد تجاهلتما هذه الاحتياطات البسيطة؛ لأن بَشرتك قد دُمِّرت بشكلٍ لا رجعة فيه؛ أنت من خلالِ عيشِ حياةٍ قاسية في المدينة، أما هو فبسبب ركوب اليخوت في نهر بارابولا.»

قال ماكيلر الشاب مُصححًا: «باراماكابو.»

«شكرًا، هذا هو. كيف يجب أن تكون خطوتنا الأولى لجمع تلك الأسهم غير الموجودة؟»

أجاب ماكيلر الأب: «أقترح عليك أن تطلب رسميًّا من رئيس الشركة ومجلس الإدارة تسليم جميع أوراق الشركة ومُقتنياتها، وكذلك رصيدها في البنك، بالإضافة إلى استقالات الرئيس وكل عضو من أعضاء مجلس الإدارة. أرسِل إليهم إشعارًا قانونيًّا بعدم سحْب أي شيك من الحساب المصرفي.»

«ما مقدار المال الذي تَعتقِد أنه بقيَ في البنك؟»

أجاب الشاب.

«لقد استأجَروا الباخرةَ المتجوِّلة راجان، الموجودة الآن في ساوثهامبتون؛ حيث كنت مسئولًا عن تجهيزها. وقد تمَّ إنفاق بضعة آلاف من الجنيهات على ماكينات التنقيب السطحي، والمُؤن، والحديد المُموَّج لبناء أماكن إيواء للمهندسين والعمال. لم تكن النية في البداية بناء فرن صهرٍ في المنجم، بل تحميل السفينة بالمعدن النفيس، وإعادتها إلى إنجلترا. عُدت إلى لندن من ساوثهامبتون، عندما أرسل لي والدي برقيةً عن الأزمة في شئون الشركة. لقد أنفقت أقل من ٥ آلاف جنيه؛ لذا يجب أن يكون هناك ٤٠ ألفًا أو ٤٥ ألف جنيه في البنك.»

قال اللورد مقترحًا بنبرةٍ من عدم الاكتراث المُطلق: «أظن أنهم ربما سحبوا المبلغ بالكامل بحلول هذا الوقت، وربما قسَّموه بين السبعة المحصنين.»

أجاب ماكيلر الأب: «في هذه الحالة، سيُضطرُّون إلى تحمُّل مسئولية كل بنس منه.»

توقَّف الاجتماع هنا بقرعٍ خفيف على الباب، ودخل أحد خدم النادي، وقدَّم بطاقة إلى اللورد سترانلي، تحمل اسم جيكوب هان؛ هان ولويسهون، محامون، مباني فرانكفورت، بكليرسبيري.

قال اللورد وهو ينظر إلى الخادم: «أنا لا أعرف هذا الرجل. هل أنت متأكِّد من أنه سأل عني؟»

«نعم أيها اللورد.»

«ربما يكون أنت الذي يرغب في رؤيته، سيد ماكيلر. هل تعرف مُحاميًا يُدعى جيكوب هان؟»

«أوه، نعم، هان ولويسهون. إنهم مُحامون للنقابة، وهم أيضًا مُحامون لشركة «رد شالوز» الخاصة بك.»

«آه، بالضبط! هل من الأفضل أن أراه، أم أرسِله إلى مكتبك؟»

«بما أن هذه غرفة خاصة أيها اللورد، وبما أن هناك ثلاثةً منَّا حاضِرين، بينما سيكون بمُفردِه، أعتقد أنه لن يَضُرَّ سماعُ ما سيقوله.»

«جيد جدًّا. أدخله.»

كان جيكوب هان رجلًا كبيرًا ولطيف المظهر، ذا وجهٍ ينمُّ من بعيد عن أصلِه اليهودي. وعلى الرغم من الثقة التي تقدَّم بها، بدا أنه فوجئ إلى حدٍّ ما برؤية ماكيلر وابنه جالسَين هناك. ومع ذلك، أومأ إليهما بابتسامةِ زمالة، وقال للرجل الكبير:

«ربما، سيد ماكيلر، ستُعرِّفني إلى اللورد سترانلي من ويتشوود.»

علَّق ماكيلر بتجهُّم: «هذا يتوقَّف على ما يأمر به اللورد»، لكن اللورد سترانلي وقف على قدميه بابتسامةٍ تُضاهي جاذبية ابتسامة المحامي.

«أعتقد أنه لا داعيَ إلى التعارُف، سيد هان؛ لأنَّني أفهم أنك وشريكك تُمثلني، مؤقتًا، على الأقل، فيما يتعلَّق بمنطقة «رد شالوز». تفضَّل بالجلوس، سيد هان. هل لي أن أقدم لك بعض القهوة، وما الخمر الذي تُفضِّله؟»

«لا أريد خمرًا، من فضلك. شكرًا على القهوة.»

«إذن تفضَّل، سيد هان، سيجارًا وسجائر، أيهما تُفضِّل. ستجدها جيدة جدًّا.»

«شكرًا جزيلًا.»

«كيف عرفت أنني مُهتمٌّ بمنجم الذهب، سيد هان؟»

«آه، سيادتك، مِن عملنا أن نقومَ بهذه الاكتشافات الصغيرة. لقد ذهبتُ إلى مكتب ماكيلر، لكن لم يعرف أحد مكانه. ومع ذلك، أدركتُ أنه لم يكن مُموِّل هذا الهجوم المذهل

قطعًا، ولم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن أعرف حقيقة الأمر. أوه، ليس من مكتبِك، سيد ماكيلر! لم يكن هناك أحد سوى ذلك الرجل العجوز الكتوم جدًّا والذي يصعُب الحصول منه على معلوماتٍ أكثرَ منك شخصيًّا. لقد جرَّبت الأمر مع كليكما في مناسبات مختلفة؛ لذا فأنا مؤهَّل لإجراء مقارنة»؛ عندئذٍ ضحك الرجل الحسن الطِّباع. «ثم توجَّهتُ إلى مقر إقامتك، أيها اللورد، وأخيرًا إلى هذا النادي، على أمل العثور عليك.»

«آه، أنتم رجال المدينة أذكياءُ جدًّا، سيد هان، لدرجةِ أنه من السهل عليكم اللَّحاق بنا نحن الأشخاص الأقل يقظة في الجانب الغربي.»

ضحك المحامي بحرارة، كما لو كان مُعجبًا بشدة بملاحظة اللورد سترانلي. لقد كان شخصًا ودودًا للغاية، وكان يبتسِم للشاب النبيل بأسلوبٍ فيه استرضاء.

«يؤسفني أن الأمر مختلفٌ أيها اللورد. من قبيل الصدفة أنني أعرف العديد من سماسرة البورصة الذين توصَّلوا خلال الساعات القليلة الماضية إلى استنتاجٍ مفادُه أن الجانب الغربي على وشْك الهلاك، كما قد يقول المرء. وهناك بعض الأشخاص الذين قُبِض عليهم في المدينة، للتأكيد على كلامك.»

«حقًّا؟ هل سُرِق بعض سماسرة البورصة؟ لقد فهمت دائمًا أنهم كانوا مجموعة ذكية جدًّا من الرجال.»

«من المفترض عمومًا أن يكونوا، أيها اللورد، لكن في الحالة التي كنا نتحدث عنها للتو، أخبرني بعضهم أنهم قد أفرَطوا في البيع؛ وهذا يعني أنهم وعدوا بتقديمِ أسهمٍ ليست في حوزتهم في الوقت الحالي، وهو أمرٌ طائشٌ إلى حدٍّ ما.»

«أوه! إذن كان سماسرة البورصة هم مَن ارتكبوا هذا الخطأ، أليس كذلك؟»

«نعم، البعض منهم تجاوَز تعليماتهم. كانوا يعلمون أن هناك ما يقرُب من ٢٥٠ ألف سهم، وعندما اقترب منهم صديقنا الفَطِن هنا، سيد ماكيلر، للحصول على خمسة أو عشرة آلاف سهم، تخيَّل بعضُهم أن بإمكانهم الحصول عمليًّا على المزيد قدْر ما يشاءون — لأن السهم لم يُتداول في لندن لمدة أسبوع دون شراء، وبسبب العمولة التي كانوا سيحصلون عليها مؤقتًا، وكون الشراء معاملةً نقدية، شكُّوا في قدرة السيد ماكيلر على أن يُبلي بلاءً حسنًا — واستمروا في بيعه أسهمًا أكثرَ مما أُعطي لهم، وهم الآن في حالة ذعر. أعتقد أنني مُحِق في القول، سيد ماكيلر، إنه في عدة حالات عُرضت عليك أسهمٌ أكثر مما طلبت؟»

أجاب ماكيلر بفظاظة: «لم أطلب الأسهم على الإطلاق، لكنَّني علمت من السماسرة الذين أتعامل معهم أنه في جميع الحالات عُرض عليهم أسهم أكثر مما يطلُبون، لكن تعليماتي كانت محددة بما فيه الكفاية، وكانت تتمثَّل في قبول جميع الأسهم التي يُمكنهم الحصول عليها والدفع مقابلها. في حالة أو حالتين، اتَّصل بي السماسرة التابعون لي هاتفيًّا للحصول على تعليمات، وأعتقد أن هذه هي الطريقة التي خرجتْ بها الأخبار بأنهم كانوا ينوبون عني، وإذا اعتقد هؤلاء السماسرة الذين تتعامل معهم أنهم كانوا يُقحمون في موقف صعب جدًّا رجلًا مُعتادًا على هذه المواقف، فيجب عليهم عدم توقُّع الكثير من التعاطف من جانبي عندما يجدون أنفسهم في هذا الموقف الصعب بدلًا مني.»

أكمل المحامي كلامه: «آه، لن يكون أحد متفائلًا بما يكفي لتوقُّع التعاطف «منك» سيد ماكيلر.»

علَّق ماكيلر باقتضاب: «إذن لن يُصابوا بخيبةِ أمل عندما لا يحصُلون عليه.»

تدخَّل سترانلي قائلًا: «أستميحُك عذرًا، سيد هان، ولكن هل أعتبر أنكَ قد أتيت لرؤيتي نيابة عن هؤلاء السماسرة غير المحظوظين؟»

«لا، أيها اللورد. أنا أُمثِّل السيد كونراد شوارتزبرود وزملاءه.»

«أوه! ومَن هو السيد شوارتزبرود؟»

قال ماكيلر قبل أن يتمكَّن المحامي من الرد بنظرةٍ منكسرة:

«هو رئيس النقابة، ورئيس شركتك، وزملاؤه هم مجلس الإدارة.»

«فهمت، فهمت. إذن السيد شوارتزبرود وأصدقاؤه لا يُعانون من هذه الصفقة الصغيرة الخاصة بي؟»

«أوه! يا إلهي، لا لورد سترانلي، إلا بقدْر ما تخلَّوا عن منطقتهم التعدينية بثمن أرخص قليلًا مما كانوا يعتزمون. أعتقد أن السيد شوارتزبرود يرى أن السعر العادل للأسهم كان يمكن أن يتراوح من ثلاثة شلنات وستة بنسات إلى أربعة شلنات.»

اشتكى اللورد، مع تجعُّدٍ طفيف في جبهته: «أنا لستُ جيدًا في التعامل مع الأرقام، ولكن إذا كان ثلاثة شلنات وستة بنسات سعرًا عادلًا، فإن خسارة هؤلاء النقابيين هي مجرد شلن للحصة، وحيث إنهم باعوني ٣٠٠ ألف سهم، فذلك يصل إلى …» ونظر عاجزًا إلى ماكيلر.

قال ماكيلر بحدة: «١٥ ألف جنيه.»

«آه شكرًا. خمسة عشر ألف جنيه. حسنًا، وبالتقسيم على سبعة يُساوي …»

مرةً أخرى، وجَّه نظره إلى ماكيلر المتجهم، الذي رد على الفور:

«٢١٤٢ جنيهًا وستة شلنات لكلٍّ منهم.»

«أنا مُمتنٌّ للغاية من أي وقت مضى، ماكيلر. يا لها من ميزة أن تَمتلك عقلًا كهذا! قيل لي إن سكان شرق نهر الدانوب لا يستطيعون حساب مبالغ صغيرة بسيطة في أذهانهم، وهذا يعطي اليهود ميزةً كبيرة عليهم في المعاملات التجارية، مما يزيد من ثروة اليهودي، ولكنه ينتقص من شعبيته. يؤسفني أن عدم القدرة على العد غالبًا ما تبدأ غرب شارع ريجنت، وتُصيب الكثير منا الذين اعتادوا دفعَ ما يطلُبُه النادل في النادي بالضبط. ولكن للعودة إلى موضوعنا، سيد هان، يجب أن أهنئك على حقيقةِ أن عملاءك الذين أفهم أنهم رجالٌ أثرياء ومُحترمون، يخسر كلٌّ منهم فقط بضعة آلاف في صفقةٍ تضمُّ مئات الآلاف، على الرغم من أنها لم تستغرق إلا بضع دقائق من وقت ٤٠ سمسارًا يعملون في وقتٍ واحد. أظن أنه بما أن مقدار خسارتهم ضئيلٌ للغاية، فأنت لم تأتِ إلى هنا لطلب الرأفة نيابةً عن السيد شوارتزبرود المحترم وزملائه، أهذا صحيح؟»

«أوه، على الإطلاق، سيادتك. لا، السيد شوارتزبرود يُريد فقط أن تُنقل الملكية بطريقةٍ تجعلك تشعر بأقل قدرٍ ممكن من المتاعب.»

«يسعدني أن أسمعك تقول ذلك، سيد هان؛ لأن الغرض الوحيد من حياتي هو تجنُّب المتاعب. وأنا أوظِّف ما لا يقل عن ١٢ محاميًا لاعتراض أي مشكلة تواجهني حتى لا تتخطَّاهم وتصل إليَّ. سأكون سعيدًا بتعيينِ محامٍ آخر، لكن هذا من شأنه أن يجعلهم ١٣، وهو رقم سيِّئ الحظ للغاية، سيد هان. السيد شوارتزبرود وشركاؤه، إذن، لن يضعوا أي صعوبات في طريقي؟»

«أوه، لا شيء على الإطلاق، لورد سترانلي. لقد كلَّفوني بأن أنقل تحياتهم وتهنئتهم إلى سيادتك على امتلاكك ما يعتبرونه منطقةً قيِّمة للغاية.»

«أوه، إنها ليست قيمة جدًّا، سيد هان. فقط شلن للسهم، كما تعلم. ومع ذلك، أعتقد أن هذا يُعتبَر هامشَ ربح معقول. لا أعرف بالضبط النسبة المئوية التي يصل إليها، ولكن …»

ردَّ ماكيلر على الفور: «٤٠٪.»

«حقًّا؟ حسنًا، أعتقد أنني أحصل على ٤٪ فقط على جزء كبير من أموالي. يجب أن أتحدَّث إلى محامي الاستثمار الخاص بي حول هذا الموضوع. إذا كان مجرد هاوٍ مثلي يمكنه كسب ٤٠٪ في ١٠ دقائق، ألا تعتقد أن المحامي يجب أن يفعل ما هو أفضل من الاكتفاء بنسبة ٤٪ في عام كامل؟»

«على الأرجح أن محامي الاستثمار الخاص بك لا يجازف، لورد سترانلي.»

«آه، هكذا هو الأمر. كنتُ أعلم أن هناك مَن يراقب في الخفاء في مكانٍ ما، لكن كما ترى، لستُ على درايةٍ جيدة بهذه الأشياء. لكنَّني قاطعتك يا سيد هان. كنت ستقول ...»

«كنت سأقول، أيها اللورد، إن هناك ٢٥٠ ألف سهم في الشركة، وكلها ملك لك الآن، سيد ماكيلر، وربَّما واحد أو اثنان آخران. بالطبع لا يستطيع سماسرة البورصة التُّعساء توفيرَ الخمسين ألف سهم أو أكثر غير الموجودة، ولا أفترض أن سيادتك لديك أيُّ فكرة لإجبار هؤلاء الأشخاص على الإفلاس لمجرد القليل من الحماسة المفرطة من جانبهم. «فللنبالة مُقتضياتها»، كما تعلم.»

«آه، بالضبط. «للنبالة مقتضياتها». اعتقدتُ أن هذا المصطلح لم يتوغَّل بعدُ في المدينة.» ضحك المحامي بحرارة مرة أخرى.

«ردٌّ مُنصِف. ردٌّ منصف، أيها اللورد. حسنًا، كما كنتُ على وشك أن أضيف أن سيد شوارتزبرود وأصدقاءَه مُستعدُّون لنقل هذه الملكية إليك على الفور إذا كنت ترغب في ذلك.»

«أجل، أعتقد أن هذه هي رغبتي. كما ترى، عندما يشتري رجل شيئًا، ويدفع المال مقابله، فإنه يتوقَّع عادةً أن يستلمه، ألا تعرف ذلك؟»

«بالطبع أيها اللورد. لقد أحضرت معي المستندات المتعلِّقة بنقل الملكية، وجميعها مُعَدَّة كما ينبغي، وموقَّعة ومختومة، وجاهزة للتسليم. لكن أخطرت موكلي أنك ربما لم تهتم بتطوير المنطقة، وربما تكون نيتك هي جنْي ما تَعتبرُه ربحًا عادلًا من الصفقة، والتخلِّي عن أيِّ حقوقٍ تمتلكها على هذه الأرض. وبذلك ستُحقِّق مكسبًا واضحًا ولن تتعرَّض لمخاطرَ أخرى.»

«التنقيب عملٌ غير مؤكَّد إلى حدٍّ ما، أليس كذلك سيد هان؟»

«شخصيًّا، لم تكن لديَّ أيُّ خبرة في ذلك الأمر، أيها اللورد، لكنهم أخبروني أن التنقيب عن الذهب هو المهنة الأكثر خطورة التي يُمكن أن يتَّخذها المرء. فإذا لم يكن عاملُ المَنجم ماهرًا، فإنه يتعرض للاحتيال على أيدي أولئك الذين يُعهد بالأعمال إليهم.»

«يؤسفني أنني لستُ رجلًا ماهرًا، سيد هان، وأعرف القليل عن التنقيب عن الذهب مثلك.»

«في هذه الحالة، لورد سترانلي، أعتقد أنه ينبغي ألا نواجِه صعوبةً في التوصُّل إلى تفاهمٍ مقبول لكلا الطرفين.»

«هذا شيء يسرُّني. ما الذي يعتبره موكلوك ربحًا عادلًا؟»

«هذه مسألةٌ مطروحة للنقاش المتبادَل، أيها اللورد. فهم يقترحون أن يُعيدوا لك المبلغ الذي استثمرته، بالإضافة إلى ١٥ ألفًا أو ٢٠ ألف جنيه، على سبيل المثال. أو سيكونون على استعداد أن تحتفظ بأسهمٍ كثيرة في المشروع إذا كنت ترغب في الاستفادة من خبرتهم، وأنه يجب أن يكون هناك خصم «تناسبي» من المبلغ الذي يتعيَّن عليهم تسليمه لك.»

«فهمت. حسنًا، هذا جيد جدًّا لهم، لكن كما أخبرتُ سيد ماكيلر اليوم، أنا مُقامرٌ نوعًا ما. إما أن أكسب كلَّ شيء أو لا شيء، وهكذا، بعد أن انجذبت إن جاز التعبير إلى الدوَّامة، أعتقد أنني سأنتظر لأرى ما سيحدث. ولما كان الأمر كذلك، أعتقد أنه سيكون من غير العادل جعل الآخرين يتشاركون في مخاطرَ لا يُمكنهم السيطرة عليها. ربما أجد نفسي غبيًّا جدًّا. يقول صديقي، جاك هازل، الذي يعرف رجال المدينة وأساليبهم، إن إحدى الممارسات هناك لتقليل المخاطر هي توزيعها على عددٍ مِن الأشخاص، لكنَّني لن أكون سعيدًا، في حال فَشلتْ خططي، لاعتقادي أن الآخرين يُعانون بسبب حماقتي. يجب أن أشعر تجاههم كما يشعر السيد شوارتزبرود تجاه هؤلاء السماسرة غيرِ المحظوظين الذين تجاوَزوا تعليماته، وهو شعورٌ يمنحه فضلًا كبيرًا. لذا، إذا كنتَ لا تُمانع، أعتقد أننا سنَقصُر اهتمامنا على نقل الملكية بالشكل البسيط الذي تقترحه.»

«جيد جدًّا، أيها اللورد. أيًّا كانت الخطة التي ستوافق عليها أكثر، سيتقبلها موكلي بكل سعادة. إذن، ها هي ذي الأوراق التي تنقل لك ملكيةَ حقول الذهب، وبمجرد التوقيع على هذا الإيصال الرسمي، تعتبر الصفقة قد أُبرِمت.»

«عزيزي سيد هان، إنه لمن دواعي سروري أن أتعامل مع رجلٍ يتَّسم بلطفك وفهمك.»

بانحناءة، رفع اللورد الأوراق التي وضعها الآخر على الطاولة، ونظر إليها، ومرَّرها إلى أنجوس ماكيلر، الذي فحصها بعينٍ ثاقبة. بعد ذلك، قرأ اللورد ببطء شديد الوثيقةَ التي طُلب منه التوقيعُ عليها، واستغرق وقتًا طويلًا في فحصها، وخلال هذه الفترة تمكَّنت عينا المحامي الثاقبتان من إخفاء مخاوفهما بالكاد. وأخيرًا وضعها اللورد.

وقال: «لا أجيد التعاملَ مع الصكوك القانونية بدرجةٍ ما أو بأخرى. كما أخبرتك، أنا محظوظ بامتلاك خدمات عشرات الرجال الأكثر ذكاءً منِّي الذين يتمتَّعون بالكفاءة الكافية، لقاء مقابل، لتقديم المشورة لي بشأن هذه الموضوعات. لكن، للأسف! ليس هناك أحد منهم حاضرًا في هذه اللحظة.»

«لماذا أيها اللورد، لا أعتقد أن لديك أيَّ سبب للشكوى. أنا هنا وحدي، دون أي شاهد مؤيد نيابة عني، بينما هناك ثلاثة منكم جالسون هنا.»

«آه، أنت الآن تتحدَّث، سيد هان، كما لو كنا متنافسين — متحاربين، كما قد يقول المرء — بدلًا من أن نكون مجموعةً من أربعة أصدقاء. ليست هناك حاجة لشهود حيث سار كل شيء بسلاسة كما كان الحال منذ دخولك هذه الغرفة. أنت تمثِّل تلك النوعية من الرجال الذين يمنعهم قلقهم المفرط من فعلِ ما هو صواب، وتلتقي، كما آمل، برجلٍ يرغب في التوصُّل إلى حلٍّ وسط، وأعتقد أنني قد أقول نفس الشيء عن صديقي ماكيلر. أنا متأكد من أن لا شيء سيمنح ماكيلر متعةً أكبر من أن يعامل السيد شوارتزبرود بنفس الطريقة السخية والعادلة التي سيعامله بها السيد شوارتزبرود.» أراح المحامي ظهره إلى الوراء على كرسيه، بينما أصبحت ابتسامته نوعًا من الابتسامة الثابتة.

وتمتم: «بالضبط، بالضبط.»

«بالطبع لا أتظاهَر بالتوغل في كل تعقيدات هذا الإيصال الصغير الذي يبدو بسيطًا، ولكن يبدو لي أن السيد شوارتزبرود يحقِّق رغبته السخية في حماية السماسرة التابعين له، دون وعي بلا شك، على نفقتي.»

«على نفقتك أيها اللورد؟»

«حسنًا، هكذا يبدو لي الأمر. يجب على هؤلاء السماسرة، المساكين، توفيرُ نحو ٦٠ أو ٧٠ ألف سهم لا يُمكنهم وضع أيديهم عليها، وهذا، كما قال صديقي القديم إقليدس، مستحيل. الآن، إذا وقَّعتُ على هذا الإيصال، يبدو أنني أتنازل عن جميع حقوقي أمام هؤلاء السماسرة التعساء، الذين لا يأبهون.»

«اعتقدت أنه من المفهوم، أيها اللورد، أن بحصولك على ملكية حقل الذهب دون متاعب، لم يكن لديك ميل إلى أن تَدفع إلى مَوقفٍ صعب — أعتقد أن هذه هي العبارة التي استخدمتها — عددًا من الرجال غير مثقلين بالأعمال، كما هي الحال في المدينة هذا العام. في الواقع، إن الركود في الدوائر المالية، وارتفاع سعر الفائدة البنكية، وكل شيء آخر، يفسِّر بلا شك الشغف الذي غامر به هؤلاء الرجال، فيما يتعلَّق بالعمولة الصادقة التي كانوا يكسبونها، لتخطي الحدود الموضوعة لهم، وبالتالي وضعوا أنفسهم، كما قد يقول المرء، تحت رحمتك. لقد اعتقدت بطريقةٍ ما أنه ليس لديك أي عداء ضد هذه المجموعة غير المحظوظة.»

«عداء؟ أوه، لا، يا إلهي، على الإطلاق. العداء هو شعورٌ أعترف أنني أكاد لا أعرف معناه. أعتقد أن جميع أصدقائي سيقولون لك إنني شابٌّ حسنُ الطِّباع جدًّا، يُفضِّل أن يعفو عن الأذى بدلًا من تذكُّره.»

«يُسعدني سماعك تقول ذلك، أيها اللورد، وأعترف بأنني، في الوقت الحالي، كنت متخوفًا بعض الشيء.»

«مخاوفك لا أساس لها من الصحة، سيد هان؛ لا أساس لها من الصحة، أؤكِّد لك. لن أوذي أحدًا من السماسرة الذين تُمثِّلهم، وعندما تُبلِّغ كلامي إلى السيد شوارتزبرود اللطيف وزملائه، يمكنني أن أتخيَّل مدى ارتياحهم لسماع ذلك.»

«شكرًا لك أيها اللورد، يُسعدني كثيرًا أن أخبرهم بما قلته.»

«من ناحية أخرى، سيد هان، العدالة هي العدالة، وأنت أول مَن يعترف بذلك. يحقُّ لي الحصول على ما قد يُسميه السيد شوارتزبرود ومساعدوه الربحَ العادل على الستين أو السبعين ألف سهم التي لا يُمكنهم توفيرها. والآن، على الرغم من أنني جاهل جدًّا بأساليب التجارة، إلا أنني أعتقد أن الموكِّل مسئول عن تصرُّفات وكلائه. فقبل أيام تمَّ تغريم سائقي، في ساري، لتجاوزه السرعة القصوى. لم أكن موجودًا في السيارة، بل هنا في النادي. ومع ذلك، اضطررتُ لدفع الغرامة والتكاليف؛ لأنَّ السائق يعمل لدي. النقابيون السبعة، الذين حرَّكتْهم، كما أعتقد، الرغبةُ في سحق السيد ماكيلر وامتلاك، ليس فقط جميع أسهمه، ولكن أيضًا أسهم أصدقائه الذين دفعوا جنيهًا لكلٍّ منها، نسُوا خلال ١٠ دقائق حاسمة إمكانية ظهور مُشترٍ لديه بعض المال في جيوبه. ويعود فضل ظهور المشتري في اللحظة الحاسمة إلى الجهد ومَلَكات الإقناع لدى هذا المهندس الشاب، الذي كان يعمل لديهم سابقًا. أعتقد في حقيقة الأمر أنه لو لم يرفع بمُنتهى السعادة السيد شوارتزبرود ورفاقه المتميِّزون من القراصنة العلَمَ الأسود المُزيَّن بالجمجمة والعظمتين المتقاطعتين، لما أصبحوا اليومَ معرَّضين للخطر الذي يحيق بهم. ولمواصلة تشبيهي البحري، اعتقدوا أن السيد ماكيلر هنا كان سفينة تجارية غير مَحمية، وشرعوا في الصعود على متنها وإغراقها، عندما ظهر في الأفق أحدثُ السفن الحربية المزوَّدة بمحركٍ سرعته ٢٥ عقدة في الساعة، مُسلَّحة ببنادق ٤.٧، أو أي قطعة مدفعية تحملها مثل هذه السفن الحربية. الآن، بعد تقديم تحياتي للسيد شوارتزبرود الطيب، أخبرْه ألا يقلق بشأن سماسرة البورصة التعساء؛ لأنني سأهاجمه هو، وليس هم. وإذا انهار أيٌّ من سماسرة البورصة بسبب الخلاف، فسأوفِّر له عملًا مرة أخرى، لكنني لن أفعل ذلك على نفقتي الخاصة. سأرفع سِعري ببساطة إلى النقابيين السبعة المحصَّنين.»

اختفت كل اللطافة عن وجه المحامي، مما جعله قاسيًا مثل الجرانيت.

قال: «أعتقد أنك تُهدِّدُنا، لورد سترانلي.»

«أوه، يا إلهي، لا. كيف يُمكنك استنتاج هذا من كلامي؟ أنا فقط أقدِّم اقتراحًا. سوف تترك معي كل أوراق نقل الملكية هذه. وستطلب من شوارتزبرود وأعضاء مجلس الإدارة الستة إرسال استقالاتهم إليَّ. وستُحذِّرهم من سحب فلس واحد من الحساب المصرفي للشركة.»

قال المحامي: «الحساب المصرفي للشركة مكشوف بالفعل»، ثم اعتقدَ على ما يبدو أنه تحدَّث قبل الأوان قليلًا؛ لذا أضاف على عجل: «على الأقل، هذا ما أفهمه. فقد صرفوا الكثير على المواد اللازمة لتطوير المنطقة.»

«أوه، هذا مُمتع للغاية، سيد هان. هل تصادف أن عرفتَ في أيِّ وقتٍ اليوم سُحبت الأموال؟»

«لم أقُل إنها سُحبت منه اليوم. ولا أعرف متى سُحبت.»

«بالطبع لا. ومع ذلك، هذا أمرٌ تافه لا يُهم حقًّا، ولا شك أن موكليك سيَطلُبون منِّي السماح لهم بهدوء بإعادتها.»

«لا يمكنني ترك أوراق نقل الملكية هذه معك ما لم توقِّع على هذا الإيصال. أنت تعرف ما يكفي عن الأعمال لفهم ذلك، على ما أعتقد. رجلٌ مثلي، يتصرَّف فقط بصفته وكيلًا، يجب أن يكون لديه وثيقة تثبت أنه قد أدَّى واجبه. إذا تركتُ الأوراق معك، يجب أن أحمل الإيصال الموقَّع عِوَضًا عنها.»

«سأوقِّع عن طيب خاطر، يا سيد هان، إيصالًا يقرُّ ببساطة بتسليمك للأوراق.»

«كانت تعليماتي واضحة تمامًا، أيها اللورد، ولا أَجرُؤ على تغييرها.»

«أوه، اعتقدت أن السيد شوارتزبرود قد وضَعَ المفاوضات بالكامل بين يديك، وسيفعل ما توصي به.»

«سأقدِّم له، بالطبع، أفضلَ النصائح، لكنني بصراحة لن أستطيع أن أنصحه بالتنازل عن كل مزاياه في الموقف، وعدم تلقِّي أي شيء في المقابل.»

«مزاياه؟ ما هي؟»

«حسنًا، أيها اللورد، ربما تكون تلك المزايا أكبرَ بكثير مما تتخيَّل. فقد تم انتخابه هو وزملاؤه رئيسًا ومجلس إدارة لشركة «رد شالوز». واحتفظوا بمناصبهم لمدة عام. وفيما يتعلق بسحب الأموال الذي تحدَّثت عنه منذ قليل، من حقِّهم القانوني ليس فقط

سحب الأموال، ولكن إصدار سندات مقابل الأسهم التي تمتلكها. إذا قرأت النظام الأساسي للشركة، فسترى أن الأمر كذلك. وعلى الرغم من أنك تَمتلِك جميع أسهم الشركة، إلا أنه لا يمكنك إجبارهم على الاستقالة، ولا يُمكنك التصويت على أسهمك حتى الاجتماع السنوي التالي، الذي سيتمُّ عقده بعد ما يقرب من ١٢ شهرًا. خلال ذلك الوقت، الرئيس ومجلس الإدارة، الذين يتمتَّعون بسلطات كبيرة؛ لأنني قمتُ بنفسي بوضع النظام الأساسي للشركة، وأعرف محتوياته — هؤلاء الرجال السبعة قد يفعلون عمليًّا ما يحلو لهم بمنطقتك التعدينية، ما لم نتوصَّل إلى تسوية ودية.»

«آه، مَن الذي يُهدِّد الآن، سيد هان؟»

«أنا لستُ أُهدِّدك أيها اللورد. أنا فقط أخبرك، بأبسط الكلمات الممكنة المتوفِّرة لديَّ، كيف يكون الوضع.»

«أشكرك، سيد هان، على وضوح شرحك. أفهم، إذن، أنه لا يمكنك ترك هذه المستندات معي؟»

«إلا إذا وقَّعت على هذا الإيصال، أيها اللورد.»

«وبما أنني أشعر بعدم الرغبة في القيام بذلك، يا سيد هان، ولا أعاني أيَّ تأنيب ضمير فيما يتعلَّق بسماسرة البورصة غير المحظوظين، فأنا بموجب هذا أعيدها إليك، والإيصال، وكل شيء. الآن، أخبر السيد شوارتزبرود أن سعر أسهم «رد شالوز» هو ١٠٠ جنيه لكلِّ سهم، وإذا كان هناك ٧٠ ألف سهم قادمة إليَّ ولا يُمكن لموكليك توفيرها، فإن شيكهم البالغ سبعة ملايين جنيه سيفي بالغرض أيضًا.»

«أيها اللورد، أنت تَتظاهر بالجهل في الأمور التجارية. أظنُّ أنك تحاول الآن إثبات ذلك. لا يُمكنُك جعلُ سعر السهم ١٠٠ جنيه، ولا يمكنك فرضُ مثل هذا الشرط الباهظ من خلال أي محكمة في الأرض. الموكِّلون لي سيَحصُلون على إعفاء من أي محكمة إنصاف.»

«ليس في نيتي، سيد هان، أن أُزعج المحاكم بهذا الأمر على الإطلاق. في الواقع، أنا أرفض قبولَ النقود من موكليك. لقد باعوا لي الأسهم، وأنا أصرُّ على تسليم تلك الأسهم. أنا الشخص الوحيد في العالم الذي يمتلكُ الأسهم، والسعر الذي أحدِّده لكل سهم هو ١٠٠ جنيه. وسيُضطرُّ موكِّلوك إلى التوسُّل إليَّ لبيع الأسهم لهم. وفي واقع الأمر، لا أنوي طلب أي رقم من هذا القبيل منهم. لقد استخدمت فقط ١٠٠ جنيه كتوضيح. وبالطبع، إذا طلبت منهم هذا السعر، فسأقضي على موكليك، ولا يُمكن لأي محكمة في المملكة إنقاذهم. ولكي أكون صريحًا معك تمامًا، لأنني لا أمتلك المؤهلات العقلية اللازمة للتعامل مع رجال

الأعمال العبقريين مثل موكليك، دون شك، سأُخبرك الآن بما أنوي فعله. سأحدِّد سعر الأسهم بالضبط بناءً على ما باعه رفاقك للجمهور؛ أي جنيهًا واحدًا لكل سهم. لا يُمكنهم الشكوى من فعلي ما فعلوه هم أنفسهم، هل يُمكنهم ذلك الآن؟ صحيح أنني اشتريت هذه الأسهم بسعر شلنين وستة بنسات، لكن هذا أيضًا لم يكن خطئي. لقد قاموا، من خلال طرح أسهمهم في السوق، بخفض السعر إلى الرقم الذي أشرتُ إليه، واشتريت الأسهم من سماسرة موكِّليك. وإذا قلت إن تصرفهم لم يتم لإحراج السيد ماكيلر، فأنا أقبل على الفور تصريحك على أنه صحيح. لسببٍ آخر قاموا بتخفيض السعر من جنيه واحد إلى شلنين وستة بنسات. وقبل أسابيع قليلة، باعوا ٥٠ ألفًا من هذه الأسهم مقابل جنيه واحد لكلٍّ منها، وبسبب تحطيمهم غيرِ المبرَّر للسوق، فقَدَ هؤلاء الأشخاص الطيبون جزءًا كبيرًا من الأموال التي دفعوها. الآن، بالتأكيد، لكونك رجلًا عادلًا ومنصفًا، لا يُمكن للسيد شوارتزبرود أن يرفض شرب الكأس الذي جهَّزه بنفسه. لن يستطيع حتى أن يُظهِر لمحكمة الإنصاف أنني كنت أفعل شيئًا ربويًّا في إعادة السهم إلى الرقم الذي حدَّده هو نفسه في الأصل، متَّبِعًا في ذلك المثال اللامع للسيد شوارتزبرود نفسه. الآن، أترك الأمر لك، سيد هان، بصفتك رجلًا عادلًا ومُنصفًا، والذي كان اعتراضه الساخط تجاه رقم ١٠٠ جنيه جديرًا بالثناء، ويرجع الفضل في ذلك بالكامل لك، ألا تتفاجأ من اعتدالي؟»

«ليس إلى هذا الحد، أيها اللورد. هذه الأسهم كلفتك ٣٠ ألف جنيه.»

«أوه، لا تَبخس قيمتها، سيد هان، لقد كلفتنا ٣٧ ألفًا و٥٠٠ جنيه.»

«حتى في هذه الحالة، أنت تَطلب من موكِّليَّ أن يدفعوا الضِّعف. بعبارة أخرى، سوف تحرمهم من منطقتهم التعدينية، وستحصل عليها ليس فقط مقابل لا شيء، بل مع مكافأة قدرها ٣٠ ألف جنيه إضافية نقدًا. إذا لم يكن ذلك عملًا من أعمال القرصنة، كما قلت، فما هو بحق السماء؟»

هزَّ اللورد كتفَيه وبسط يديه. أظهر تعبير وجهه أنه حزين وخائب الأمل.

«حسنًا بدلًا من أن تشكرني ...»

تنهَّد بعمقٍ ولم يكمل الجملة.

«كما أخبرتك، لورد ستراتلي، الموكِّلون لي ليسوا مسئولين أمامك بشأن تلك السبعين ألف سهم. يجب أن تسعى للحصول على تعويضِكَ من السماسرة.»

«هذا بالضبط ما لن أفعله.»

«إذن ستسقط دعواكَ في المحاكم.»

«لكن يا سيدي العزيز، ألم أخبرك أنني لن أذهب إلى المحاكم؟ مثل كل القراصنة المحترمين، أنا أبغض المحكمة. فهي مضيَعة للوقت، ألا تعرف ذلك. لن أتخذ أي إجراء ضد السماسرة فحسب، بل إذا لم يوافق موكلوك كتابيًّا على عدم اتخاذ أي إجراء ضدهم، فسوف يرتفع سعر الأسهم فجأة. إنني أتعاطف كثيرًا مع مشاعر السيد شوارتزبرود الرقيقة تجاه السماسرة الذين أعتزم حمايتهم، وأنا متأكِّد من أنك ستسامحني إذا قلتُ إنني أشكُّ كثيرًا إذا تجاوز أيٌّ من السماسرة تعليماتهم، على الرغم من صعوبة الأمر في المدينة.»

قال السيد هان، وهو ينهض، ويضع المستندات التي أحضرها مرةً أخرى في جيبه الداخلي: «إذن، هذا هو إنذارك، أليس كذلك؟»

«أتوسَّل إليك، سيد هان، ألَّا تُعطي لملاحظاتي المسكينة والمتلعثمة مُصطلحًا شديد القسوة. إنذار؟ يا إلهي، لا. أنا لستُ الرئيس كروجر، بل مجرَّد رجل متكاسل إلى حدٍّ ما لا يعرف الكثير عن أساليب وحيَل هذا العالم الشرِّير. آمل ألا تُمثلني أمام السيد شوارتزبرود الفاضل كشخصٍ قاسٍ ومجادل. أخبره أنني أسهلُ شخص في العالم يُمكن التعامل معه. وأخبره في اللحظة التي يُرسل لي فيها شيكًا بقيمة ٧٠ ألف جنيه — أتمنَّى أن يكون أقل قليلًا — سيُحدِّد سيد ماكيلر هنا المبلغ بالضبط، ويُحوِّله إلى شلنات وبنسات، بل وحتى أرباع بنسات إذا لزم الأمر — في اللحظة التي أحصل فيها على هذا الشيك، والاستقالات، وضمان عدم إلحاق أي ضرر بالسماسرة السذَّج، والرصيد في البنك، وبعض المعلومات عن كلِّ ما فعلتْه الشركة منذ ظهورها حتى الوقت الذي وقَعَت فيه في يدي، أخبره أنه ليس هناك مَن يُعجَب به أو يتمنَّى له الخير أفضل مني.»

«سأُبلغه رسالتك، أيها اللورد.»

«افعل، ولكن أضِف إليه ذلك النَّص الساحر من الكتاب المقدس «اتَّفق مع خصمك بسرعة»، أعتقد أن هناك شيئًا ما يتعلَّق بتسديد الحساب قبل غروب الشمس، لكنني لن أكون متسرعًا كما يتوقَّع المرء. ستبقى الأسهم عند الجنيه أثناء الغد. في اليوم التالي ستَرتفِع شلنًا، وفي اليوم التالي شلنًا آخر، وفي اليوم الثالث شلنًا ثالثًا. من السهل جدًّا إجراء العد؛ فقط ضع علامة حمراء على التقويم اليوم، وإذا سمح بمرور أسبوعَين، فهناك ١٤ شلنًا مُضافة إلى العشرين شلنًا التي كان عليه دفعها من قبل.»

تصنَّع المحامي، الذي كان ليُصبح مُمثِّلًا مُمتازًا، ضحكةً جيدة جدًّا.

«آه، أنت تمزح الآن أيها اللورد.»

«لا أعتقد ذلك، سيد هان، على الرغم من أنَّني أمزح أحيانًا دون وعي.»

«أنا متأكد من أنك ستَمنحنا أسبوعًا لنفكِّر في هذا الأمر.»

«أوه، جيد جدًّا. أي شيء من أجل السلام والهدوء والتسوية الودية. أكره أن يعتقد السيد شوارتزبرود أنني صارم. الآن، لا تُغادِر معتقدًا أنني مُتردِّد في تقديم تنازلات، وتنازلات كبيرة. فهذه سبعة شلنات للسهم أعطيك إياها، على السبعين ألف سهم — ما هو المبلغ، سيد ماكيلر، أنت تعلم أني لستُ جيدًا في الحسابات؟»

«٢٤ ألفًا و٥٠٠ جنيه.»

«يا إلهي، انظر إلى ذلك، سيد هان. ها أنت ذا، مَن ترفض أن تَترُك لي تلك المستندات التي تحملها، ومن كان يعتبرني صارمًا — حسنًا، لا تُنكر ذلك؛ لقد رأيت ذلك من تعبير وجهك — ها أنا ذا أعطي للسيد شوارتزبرود ورفاقه الستة الرائعين هديةً بقيمة ... بقيمة ... بقيمة ...»

ردَّ ماكيلر الكبير على الفور: «٢٤ ألفًا و٥٠٠ جنيه.»

«نعم، ٢٤ ألفًا و٥٠٠ جنيه نقدًا، أمنحها لرجالٍ لم أرَهُم من قبل، وحتى يومنا هذا لم أسمع عنهم من قبل. لا أريد أن أتباهى بفضائلي، سيد هان، لكنِّي أشكُّ في إمكانية العثور على أي رجل في المدينة يمكنه التخلُّص بمنتهى السعادة من ٢٤ ألفًا و٥٠٠ جنيه. لقد قلت المبلغ الصحيح هذه المرة، ماكيلر. أنا أتحسَّن، كما ترى.»

«جيد جدًّا، أيها اللورد. هل يُمكنني التواصُل معك أكثر في هذا النادي؟»

«لا. من الآن فصاعدًا، يجب أن تكون مقابلاتنا على أساس العمل الجاد. فالطبيعة السخية لنبيذ ٧٨ لدينا تجعلُني معطاءً بعض الشيء. لذا ستتمُّ المقابلة التالية في مكتب السيد ماكيلر في المدينة في أي وقتٍ يناسبك، وسأكون سعيدًا بإبلاغي قبلها بأربع وعشرين ساعة؛ لأنَّني يجب ألا أكرِّس حياتي كلها للتمويل، ألا تعلم هذا؛ لأنني مُغرَم إلى حدٍّ ما بالسيارات، وقد أكون خارج المدينة.»

«شكرًا جزيلًا. طاب مَساؤك أيها اللورد. طاب مساؤك، سيد ماكيلر.»

غادر المحامي، وابتسم اللورد سترانلي لرفيقَيه، اللذَين جلَسا صامتَين لفترة طويلة.

قال ماكيلر العابس وهو يأخذ نفسًا عميقًا: «حسنًا، أيها الشاب الصغير، إذا استوعبت الأمور المالية، فليُساعد الرب المدينة!» ضحك اللورد، ثم التفَت إلى بيتر وقال:

«أعتقد أنك يجب أن تَستأنف مكانك في ساوثهامبتون. كنتَ تَعتني بتحميل الباخرة — ماذا كنت تُسميها؟»

««راجا» — الباخرة «راجا».»

«حسنًا، حتى لو لم أكن رئيسًا أو من أعضاء مجلس الإدارة، أطلب منك استئنافَ هذه الوظيفة. أفهم أنك ما زلت مهندسًا رسميًّا للشركة؟»

«نعم.»

«جيد جدًّا. لا تتحدَّث إلى أحدٍ، ولكن توجَّه إلى ساوثهامبتون، واستمر في تزويد الباخرة بالآلات والمؤن، كما لو لم يحدُث شيء. وإذا واجهت أيَّ معارضة، فأرسل لي برقية، وأعتقد أنني أستطيع التغلُّب على أيِّ عائق.»

انتقل بيتر إلى ساوثهامبتون، ولم يواجه أيَّ عائق في استئناف مهامه.

استهلكَ النقابيون السبعة الأسبوع كاملًا، وحدَّدوا موعدًا مع السيد ماكيلر ولورد ستراتلي في اليوم الأخير قبل أن تبدأ الأسهُم في الارتفاع. هذه المرة لم يظهر السيد هان، لكن كونراد شوارتزبرود، الألماني اليهودي، جاء مُحرَجًا. وأمضى ساعات في محاولة الحصول على شروطٍ أفضل، وبالفعل قدَّم له اللورد ستراتلي عدةَ تنازلات مهمَّة. أخيرًا قام بتسليم كلِّ ما كان مطلوبًا، وحصل من اللورد ستراتلي على وثيقةٍ موقَّعة تمنح كونراد شوارتزبرود تَبرئةً كاملة من كلِّ ما فعله حتى الآن. شهد ماكيلر على هذه الوثيقة، ووضَعَها بأمانٍ في محفظته، وخرج المموِّل العجوز من المكتب مُحرَجًا وعلى وجهه نظرةٌ خبيثة شريرة من شأنها أن تُنسَب إلى شخصية «شايلوك» التي جسَّدها الراحل السير هنري إيرفينج.

قال ماكيلر الصارم: «ما كنتُ لأتنازل له عن شبر واحد.»

«آه، حسنًا، وما المهم في الأمر؟ لو كان استمر في المفاوضات لفترةٍ أطول قليلًا، لكنتُ أعطيتُه شروطًا أسهل؛ لذلك أنا سعيد لأنه رحل.»

دخل ساعي البرقيات الغُرفة ومعه رسالةٌ إلى السيد ماكيلر، الذي فتحها، وقرأها، ثم شتم. كانت من ابنه.

نصَّت البرقية على: «لا تتَّفق مع هؤلاء الأوغاد. منذ ثلاثة أيام عندما كنت بصدد تخزين البضائع على متن الباخرة «راجا»، تم احتجازي في المخزن، وأبحرت الباخرة. ثم تركوني على الشاطئ مع الربَّان، وقد هبطت للتو في بليموث.»

صاح ماكيلر وهو يضرب المكتب بقبضته: «يا إلهي! هذه الوثيقة التي وقَّعتها وأنا شهدت عليها، تمنحه إبراء ذمة بسبب سرقة الباخِرة. الآن سوف ينهبون الذهب الموجود في السطح ويستردُّون أموالهم. إنهم يسبقوننا بثلاثة أيام، وسيستغرق الأمر أسبوعًا للحصول على باخرة وتجهيزها.»

كان وجه اللورد هادئًا، ونفَخ ببطء بعض حلقات دخان السجائر في الهواء.

قال: «لا يسعني إلا الإعجاب بشجاعة شوارتزبرود العجوز.» «فكَّر كيف جعل الوقت ضيقًا للغاية! ومع ذلك، قد تُزعجه معرفةُ أنني صديق صاحب المقام الرفيع السيد بارسونز.»

قال ماكيلر متذمِّرًا: «ما علاقة ذلك بالموضوع؟»

«لا شيء سوى أن سرعة الباخرة «راجا» هي سبع عُقَد في الساعة، ويَختي الكبير الذي أُطلق عليه «ذات الرداء الأبيض»، الموجود في ميناء بليموث، مزوَّد بأحدث محركات بارسونز ويمكنه، عند الضرورة، الانطلاق بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة. أوه شوارتزبرود العجوز المسكين! سنَستمتِع ببعض المرح معه بعد كل شيء.»

الفصل الثالث

مهمة اليخت «ذات الرداء الأبيض»

كانت غرفة الإفطار في منزل المدينة الخاص بلورد سترانلي هي أكثر الغرف بهجة، والشاب الذي دخلها جلس لتناول وجبة طعام سخية وعالية الجودة. لم يكن مُمكنًا جعل التجهيزات أفضلَ مما كانت عليه؛ فالمفارش الناصعة، وأدوات المائدة الفضية المصقولة، والأكواب البراقة، والخزف الرقيق، شكَّلت صورةً لطيفة للطاولة، معززة بكومة من الفاكهة اللذيذة، واللفائف الصغيرة من الزبدة الذهبية الباردة، ولفائف الخبز الهلالية البيضاء الهشة، والخبز المحمَّص البُني، في حين أن رائحة القهوة الرائعة القادمة من الوعاء الفضي فوق فرن كهربائي صغير كانت كافية لتحفيز شوق شخص مُنغمِس في الملذات. وربما يكون من المؤسف أن المصداقية تلزم تسجيل حقيقة أن الشخص المُتكاسِل الذي وجد نفسه في مواجهة الأطعمة الشهية في موسمها وخارجه كان جائعًا من الأساس، فالبعض منَّا يتذمَّرُ من أنه أُعطيَ ذلك، وهو ما يبدو غير عادل، ويبدو أن الإنسان يشعر بالارتياح لمعرفةِ أن جون دي روكفلر، أغنَى رجل في العالم، مُضطرٌّ لتناول كوب من الحليب المخفَّف على الإفطار. ولكن من المؤسف أو غير المؤسف أن اللورد سترانلي من ويتشوود كان يستعدُّ لإعطاء هذه الوجبة المميزة حقَّها بالكامل عندما قال له خادمه، بصوتٍ خافت، هامس مُراعٍ:

«لقد حضر السيد بيتر ماكيلر، أيها اللورد، ويُصرُّ على رؤيتك على الفور. ويقول إنها مسألة ذاتُ أهمية قصوى.»

هتف اللورد: «أوه، يا إلهي! كم يُرهقني هؤلاء الناس الجادُّون ذوو الضمير الحي. كأن أي شيء يُمكن أن يكون ذا أهمية في هذه الساعة باستثناء الإفطار! حسنًا، أظنُّ أنه لا مفرَّ من ذلك: أدخِله.»

أطلق تنهيدةً عميقة وتمتَمَ لنفسه:

«هذا ما نَجنيه من التدخُّل في شئون المدينة.» دخل ماكيلر الشاب القوي، وبدا أن وجوده يبعث في الغرفة اللطيفة الشعورَ بالخزي؛ حيث تسبَّبت قوَّته الكئيبة في ظهورِ ما يحيط به وكأنه «سطحي» وباهظ الثمن بلا داعٍ. لقد كان غيرَ مُهندَم أكثرَ من المعتاد، كما لو كان جالسًا طوال الليل في مخزن الباخرة المتجولة التي اختطفته. اعتلى عبوس عميق جبينه، وزاد من تعبير القوة الفظة التي كانت تشعُّ من وجهه الحازم.

«آه، ماكيلر، صباح الخير»، قال اللورد بتكاسل، وهو ينظُر إلى الشاب بقلق. «أنا سعيد برؤيتك، لقد أتيت في الوقت المناسب أيضًا. ألن تَجلس وتتناول الإفطارَ معي!»

قال ماكيلر: «شكرًا لك»، بنبرةٍ قوية أثَّرت على اللورد. «لقد تناولت الإفطار منذ ساعتين ونصف.»

«حقًّا؟ حسنًا، فلتُسمِّه غداءً، ولتسحب مقعدًا.»

«لا، أنا لم أَحضُر لتناول الطعام، ولكن لمناقشة الأمور التجارية.»

«أنا آسف على هذا. فذِهني ليس صافيًا تمامًا للتفكير بشأن الأمور التجارية في أي ساعة من اليوم، لكنني غبيٌّ لا سيما في الصباح. تفضَّل خوخة؛ ستجدها جيدة للغاية.»

«لا شكرًا.»

«إذن تفضَّل سيجارة!»

رفع اللورد الغطاء الثقيل لصندوقٍ من الفضة مُغطًّى بالزخارف، وبه عدد من اللفائف الورقية، ودفعه نحو زائره.

«إنها توليفة صُنعت لي في القاهرة، لكن ربما تُفضِّل المصنوعة في فيرجينيا؟»

قال ماكيلر وهو يختار سيجارة: «ليس لديَّ خيار في هذا الشأن.»

التقط كبيرُ الخدم ولاعةً كهربائية وأشعلها، وقرَّبها من المهندس الشاب، الذي سحب نفسًا، وأخرج نفحة من الدخان الطيب الرائحة.

«اجلس يا ماكيلر!»

«شكرًا، لا؛ أنا في عجلة من أمري. الوقت ذو قيمة كبيرة الآن.»

«على الرغم من أنني غبيٌّ جدًّا في الصباح، كما أخبرتك، إلا أنني خمَّنت أنك في عجلة من أمرك منذ اللحظة التي دخلت فيها. لمن تعمل، سيد ماكيلر؟»

«أعمل؟ ماذا تقصد بذلك؟»

«مَن هو صاحب العمل الخاص بك، أم أن لك أعمالك المستقلة؟»

«يا إلهي، أيها اللورد، لقد فهمتَ أنني أعمل لصالحك.»

«في هذه الحالة لماذا لا تجلس عندما أطلب منك ذلك؟» سأل اللورد بضحكة طفيفة.

سقط بيتر ماكيلر على أحد الكراسي فجأةً لدرجةِ أن ضحكة رئيسِه أصبحت أكثرَ وضوحًا.

«أترى يا بيتر، إنها قاعدة في هذا العالم أنَّ من يدفع المال، يتَّخذ القرارات. أنت تقول إنك على عجلةٍ من أمرك، وأنا أصرُّ على أخذ الأمور برويَّة. ما رأيك في تلك السجائر؟»

«إنها مُمتازة أيها اللورد.»

«إنها مُذهلة، على ما أعتقد. أنت لا تُمانع في استمراري في تناول الإفطار، وأنا متأكد من أنك ستعذرني إذا فشلت في اعتبار هذه الطاولة بمثابة طاولة غداء سريع. أعتقد أن ثباتَنا كأمَّةٍ يعتمد إلى حدٍّ كبير على بُطئنا في تناول الوجبات.»

«ربما. ومع ذلك، يجب ألا يمتدَّ هذا البطء إلى كلِّ وظيفة من وظائف الحياة»، أجاب بيتر بشدة.

«حقًّا تعتقد ذلك؟ حسنًا، ربما أنت على حق، على الرغم من أنني يجب أن أعترف أنني لا أحب أن يستعجلني أحد، كما يقول المثل. فعقلي يعمل ببطء عندما يتكرَّم ويعمل بأي حال من الأحوال، وجسدي يتكيَّف مع حالتي العقلية. ويبدو أن لديك انطباعًا بأنَّ أعمالي في الوقت الحالي تحتاج إلى الحافز أكثرَ من القمع. هل أنا مُحقٌّ في هذا التخمين؟»

«أوه أيها اللورد، إذا كانت هناك صفقة في أيِّ وقتٍ حيث السرعة هي جوهر العقد، كما يقول المُحامون، فهذه هي الحالة الراهنة لمنطقة الذهب الخاصة بك.»

«أوه، أنا لا أرى ذلك، ماكيلر. لقد اشتريت منطقة تعدينية فلنَقُل بمبلغٍ قدره ٣٥ ألف جنيه. وتلقَّيت شيكًا بقيمة ٦٥ ألفًا من السيد شوارتزبرود الجدير بالاحترام وزملائه. وبذلك أكون قد حصلت على ما تقول إنه ملكية ثمينة مقابل لا شيء، ومُنحت مكافأةً قدرها ٣٠ ألف جنيه بالإضافة إلى الاستحواذ عليها. وسواء كان هناك أيُّ ذهب على الساحل الغربي لأفريقيا أم لا، فهناك بالتأكيد ٣٠ ألف قطعة ذهبية تحت تصرُّفي في البنك؛ قطع ذهبية لم أمتلكها بالأمس؛ لذا أعتقد أنني قد أبرمت الصفقة بطريقةٍ مُشرِّفة جدًّا بالنسبة لشخصٍ بطيء الفهم مثلي، وبعد مثل هذا المجهود العقلي المربح نوعًا ما يبدو لي أنني أستحقُّ الراحة، لكن ها أنت ذا تأتي، مفعمًا بالطاقة، وتقول فلنُسرِع. بحق السماء، لماذا؟ لقد أنهَيتُ الصفقة.»

صاح ماكيلر: «أنهيتَها؟» وتابع: «أنهيتها؟ يا إلهي، لقد بدأنا للتو. هل تَفهم أن الباخرة المتجولة «راجا»، وعلى متنها نحو ١٥٠ لصًّا مأجورًا، تتحرَّك بأسرع ما يُمكِن للبخار أن يدفعها في المياه، نحو منطقتك التعدينية، بقصد نهبها؟ هل تُدرِك أنني جهزت هذه الباخرة بنفسي بأحدث ماكينات التنقيب السطحي، والديناميت، والمؤن، وكل التسهيلات لتسريع سرقة حقول الذهب تلك، وأنك أعطيتَ ذلك القرصان شوارتزبرود وثيقةً تبرِّئه من كل المسئولية في المنطقة التعدينية؟»

«نعم، بيتر، أظن أن الأمور تُشبه إلى حدٍّ كبير ما تقوله، لكن نبرة صوتك تشير إلى أنني بطريقةٍ ما ملوم في هذه المسألة. أؤكد لك أن هذا ليس خطئي، بل خطأ الظروف. لذا لماذا القلق بشأن شيءٍ لستُ مسئولًا عنه على الإطلاق؟ أنت لا تلومني، آمُل ذلك؟»

«لا، أيها اللورد، ليس لديَّ الحقُّ في توجيه اللوم إليك مهما حدث.»

«أوه، لا تدع أيَّ مسألة تتعلَّق بالحق تَقمع سخطًا مشروعًا، يا ماكيلر. إذا كنت تعتقد أنني مذنب بالإهمال، فأرجوك عبِّر عن مشاعرك باستخدام أي مجموعة من الكلمات تجلب لك الراحة. لا تقلق بشأني. أنا معجب حقًّا باستخدام اللغة المقتضبة، على الرغم من أنني حُرمت شخصيًّا من ملَكة الاستنكار القاطع.»

«ألا تَنوي فعل أي شيء أيها اللورد؟»

«نعم، أعتزم الاستمتاع بوجبة الإفطار، وفي الحقيقة، إذا أدركت مدى حلاوة مذاق هذه القهوة، فسوف تَستسلِم لمناشداتي وتَستمتِع بكوبٍ واحد على الأقل.»

«ألا تَعتزِم مُقاضاة ذلك الوغد شوارتزبرود؟»

«مقاضاة؟ يا إلهي، لماذا؟»

«للخدعة التي لعبها عليك وعلى والدي. لقد حصَل على وثيقة البراءة منك بموجب ادعاءات كاذبة.»

«لا على الإطلاق، على الإطلاق. لقد وضعتُ بعض الشروط؛ وقد امتثل لها. ثم أعطيته وثيقة البراءة، كما تُسميها، وهنا انتهى الأمر. لو كنت أتمتَّع ببُعد النظر، لكنت اكتشفت أن شوارتزبرود الذكي جعل الباخرة «راجا» تُبحر وأنت مسجون في مخزنها. لكن شوارتزبرود لا يقع عليه اللوم لأنَّني لا أملك حدة الإدراك، أليس كذلك؟»

«ألن تفعل شيئًا، إذن؟»

«بُني العزيز، لا يوجد شيء أفعله.»

«ألا تنوي منع هؤلاء القراصنة من التنقيب عن الذهب الخاص بك، والصعود به على متن باخرة «راجا»؟»

«بالتأكيد لا، لماذا يجب عليَّ أن أفعل ذلك؟»

«ولن تُعطي معلومات للسلطات؟»

«بالطبع لا. لدى السلطات الآن معلوماتٌ أكثر مما يمكنها استخدامها.»

«إذن ألن تخبر الشرطة حتى؟»

«الشرطة قوة بريَّة: لا يُمكنهم ركوب زورق ومطاردة الباخرة «راجا»، وإذا تمكَّنوا من ذلك فلن يقدروا على اللَّحاق بها؛ لذا فما الفائدة من طلب المستحيل من شرطة سكوتلانديارد أو وزارة الخارجية؟»

«ليس لديك نية، إذن، للتعرُّض لعصابة لصوص الذهب هذه؟»

«أوه، لا.»

«هل ستتقبَّل الموقف وأنت مُستلقٍ؟»

«لا، وأنا جالس»، وبهذه الجملة دفع اللورد كرسيَّه إلى الوراء، ووضَع ساقه اليُمنى على ساقه اليُسرى، واختار سيجارة، وأشعلها.

«يسعدني، أيُّها اللورد، قيادة رحلة استكشافية، وتجهيز سفينة أخرى، واتباع الباخرة «راجا»، وإجبار هؤلاء الذين استولوا على الأراضي على إيقاف نَهبِهم لمنطقة تعدينية يملكها رجل آخر.»

«أنا لا أحب القوة، ماكيلر. لا أمانع في امتلاك قوة العمالقة، لكن يجب أن نتذكَّر أننا يجب ألا نستخدمها كالعمالقة.»

أراح اللورد ستراتلي، بمُنتهى الرضا، ظهره إلى الخلف في كرسيِّه، ونفخ حلقات من دخان السجائر الشفاف باتجاه السقف. راقب بيتر ماكيلر، الذي أصبحت الكآبة على وجهِه أكثرَ قتامة، الشابَّ غيرَ المبالي أمامه والازدراء يعلو شفته، لكنَّه أدرك أنه إذا لم يكن بالإمكان إجبار اللورد على التحرُّك، فقد كان هو نفسه عاجزًا. وفي النهاية نهَضَ ببُطء واقفًا على قدمَيه، وهي أول حركة بطيئة يقوم بها منذ دخوله غرفة الإفطار.

«جيد جدًّا، أيها اللورد. إذن لن تَحتاجني بعد ذلك، وأرجو منك قبول استقالتي.»

قال اللورد بتكاسل: «أنا آسف، ولكن قبل أن تَترك خدمتي، أودُّ أن أتلقَّى رأيًا واحدًا مدروسًا منك.»

«ما مُشكلتك أيها اللورد؟»

«هذه هي مشكلتي، ماكيلر. أعتقد أن سيجارةَ ما بعد الإفطار هي أكثر سيجارة رائعة في اليوم. ويبدو أن الرجل الذي نام جيدًا، وتناول الإفطار بشكلٍ كافٍ، ينسجِم

تمامًا مع الاستمتاع إلى أقصى حد بنفحات البخار الساحرة هذه. أودُّ أن أعرف ما إذا كنت تتفق معي.»

«أوه، اللعنة!» صاح ماكيلر، وهو يضرب بقبضتِه الضخمةِ الطاولةَ، مما جعل أطباق الإفطار تُصدِر صوتًا، وبهذه الكلمة والعمل المؤسفَين، أسرع الخطى نحو الباب. كان كبير الخدم واقفًا لدى الباب كما لو كان سيفتحه له، لكن اللورد أدار مِعصمَه قليلًا، عندئذٍ أغلق بونديربي الباب على الفور ووضع المفتاح في جيبه، واقفًا هناك صامتًا هادئًا كما لو أنه لم يسجُن للتوِّ مواطنًا بريطانيًّا حرًّا، وهو بالتأكيد أمرٌ ليس لديه أي حق قانوني للقيام به. هزَّ الأسير الغاضب الباب دون جدوى، ثم استدار، ووجهه يستشيط غضبًا. لم يُحرِّك اللورد ولا كبير الخدم ساكنًا.

قال اللورد بتكاسل: «سيد ماكيلر، لقد كنتَ تتحدَّث بشكلٍ ممتع أكثر، أعترف بذلك، حول مواضيع لا تُهمُّك على الإطلاق. الآن، ربما، ستستأنف واجبك.»

«واجبي؟ ما هو واجبي؟» تساءل المهندس بحدة.

«يا إلهي، كنتُ آمل ألا يكون من الضروري تذكيرك بذلك. أرسلتك إلى ساوثهامبتون لتَعتني بممتلكاتي؛ الباخرة «راجا»، التي استأجرتها، والآلات، والمؤن التي اشتريتها، وما إلى ذلك. ومن خلال إهمالك، أو لا مبالاتك، أو تقصيرك، أو تخلُّفِك عن أداء واجبك، أو كسلك، أو عدم انتباهك، أو أي صفة أخرى يعجبك أن تنسبها للظروف، سمحت لنفسك بأن يتمَّ خداعك مثل تلميذ صغير، وحصارك مثل الفأر، وتقييدك مثل كيسٍ لا حول له ولا قوة على حصانٍ لعددٍ غيرِ معلوم من الأميال، وقذفك مثل رِزْمة في قارب ربَّان، وهبوطك على الشاطئ مثل سمكة الحدوق. يُفترَض أن يكون الرجل الذي حدَث له كل هذا وقحًا ليَدخُل منزلي ويوبِّخني على الكسل. لذا كفَّ عن الوقوف هناك كصورةٍ منحوتةٍ وظهرك للباب، ولا تتجوَّل في الغرفة كما فعلتَ قبل دقيقة، مثل النَّمر في قفصِه في حديقة الحيوان، ولكن اجلس هنا مرة أخرى، وأشعل سيجارة أخرى، وضع ساقًا على الأخرى، وأعطِني، ببطء، حتى أتمكَّن من فهمه، تقريرًا رسميًّا عن مهمَّة ساوثهامبتون، والكارثة التي حدثت فيها. وسأكون سعيدًا بتلقِّي ودراسة أي عذرٍ قد تُقدِّمه لعدم كفاءتك المطلقة، وقد تبدأ بالاعتذار عن ضرب طاولتي بشدة، وهي لا دخل لها بشيء تمامًا، وعن الإساءة لأذني بالكلمات البذيئة التي سبقت ذلك الفعل.»

تقدَّم ماكيلر نحو الكرسي مرةً أخرى، وسقط عليه بقوة مثل المطرقة الثقيلة.

«أنت على حق. أعتذر، وأطلب منك العفو عما قاله لساني وفعلتْه قبضتي.»

لوَّح اللورد بيده بمرح.

وقال: «عفوتُ عنك.» وتابع: «أحيانًا أقول سحقًا، إذا جاز لي أن أقتبس من السير دبليو إس جيلبرت. واصل كلامك.»

«عندما صعدتُ على متن الباخرة «راجا»، لم يعترض القبطان ولا أيٌّ من ضباط الباخرة على استئنافي عمليةَ الإشراف على التحميل. كانت التجهيزات على رصيف الميناء، وفي أقل من ثلاثة أيام كانت كلها على متن السفينة، ومخزَّنة جيدًا. خلال هذا الوقت لم أرَ شيئًا يثير شكوكي نحو محاولةِ فعلِ أيِّ شيء مخادع. لقد أبلغتُ القبطان أنك الآن مُستأجِر الباخرة، وقد تلقى المعلومة بلا مبالاة واضحة؛ حيث قال شيئًا مفادُه أنه لا يُهمُّه مَن صاحب العمل ما دام أن ماله آمنٌ. آخر شيء تمَّ تحميله على متن الباخرة كان كميةً كبيرة من القماش لصُنع الخِيام، ومن حسن حظي أنني وضعت هذا عند الجزء السُّفلي لسلَّم المخزن. وكان العُمال جميعًا على سطح السفينة، وكنت ألقي نظرةً أخيرة حولي، وأتساءل عما إذا كان قد تمَّ نسيان أي شيء. ثم صعدت السُّلم، ودهشت لرؤية شوارتزبرود العجوز يقف هناك، ويتحدَّث إلى رجلٍ طويل القامة، داكن اللون، وقد تبيَّن لي، كما علمت فيما بعد، أنه قائد الرحلة. هذا الرجل، دون أن ينبس ببنت شفة، وضع قدمَه على صدري، ودفعني إلى الوراء نحو المخزن. بعد ذلك مباشرة تم احتجازي في الظلام. ومن خلال أصوات الركض على السطح فوقي، أدركت أن الباخرة كانت تستعد للانطلاق، وفي غضون ساعة سمعتُ صوتَ المحرِّكات والمروحة تعمل.

كنا بالليل ساعتها، وكنا نتحرَّك باتجاه البحر عبر بحر المانش عندما رُفع غطاء الباب الأرضي، ونزل الرجل الذي سجنني السَّلم بمفردِه، ومعه مصباح في يده، الأمر الذي جعلني أشعر بالشجاعة لمواجهته في ظل الظروف، لكن بعد ذلك أدركت أنه كان مسلَّحًا، ولم أكن كذلك؛ لذلك على كل حال لم يكن لديَّ فرصة كبيرة ضده. وضع المصباح على بالات القماش التي سقطت عليها، وبدأ، بلطفٍ زائف، الاعتذار عما فعله. كان يتحدَّث بهدوء شديد طوال الوقت، وأعجبني كشخص حازم وقادر. قال إنه إذا أعطيتُه كلمتي بعدم التحدُّث إلى أي شخص على متن السفينة، أو محاولة الهتاف لجذبِ انتباهِ أيِّ مركب عابر إذا اقترب منا، فسيسمح لي بالصعود على سطح السفينة، وسيرسلني إلى الشاطئ عندما يغادر الرُّبان السفينة.

سألته قائلًا: «وإذا رفضت أن أعطي كلمتي؟» فأجاب: «في هذه الحالة، سأزودك بالطعام والماء، وسأحملك إلى نهاية رحلتنا.»

سألته: «وأين ستكون نهايتها؟»

قال: «لا أعرف. لا علاقة لي بملاحة السفينة. أعتقد أننا نتَّجه إلى أحد الموانئ في أمريكا الجنوبية، لكن لا يُمكنني الجزم بذلك.»

أدركت أنه لا يُمكنني فعلُ أي شيء أثناء وجودي في المخزن، وعلى الرغم من أنني كنت أعرف جيدًا أنهم كانوا يتَّجهون إلى ساحل غرب أفريقيا، وليس إلى أمريكا الجنوبية، إلا أنني سأكون عاجزًا بنفس القدْر بمجرد وصولي إلى هناك. علاوةً على ذلك، كان من الأهمية بمكان أن أرسل لك ولأبي برقية. في الواقع، لقد اندهشتُ من أنهم، بعد أن خاطروا باحتجازي كما فعلوا، سيسمحون لي بالوصول إلى الشاطئ قريبًا، لكنني أظن أن شوارتزبرود العجوز الماكر كان يعلم أنه إذا بقيت في عِداد المفقودين لفترة طويلة، فسيكون هناك استنكار كبير في الصحف؛ لذلك اعتقد أنه من الآمن المخاطَرة بوضعي على الشاطئ؛ حيث قدَّر أنه لا يمكننا تجهيز باخرة أخرى والبدء في مطاردته في أقل من أسبوع على الأقل، وبهذه الأفضلية يمكن أن يكونوا قد سدوا قناة النهر، وأقاموا حصنًا أو اثنين، ليُقاوِمونا عندما نصل.»

قاطعه اللورد: «لكنَّهم إذا سدوا النهر، فإنهم سيَحبسون أنفسهم في الداخل، وكذلك سيمنعوننا من الوصول إليهم.»

قال المهندس: «ليس بالضرورة.» وتابع: «لديَّ سبب للاعتقاد بأنه قبل وصولي إلى ساوثهامبتون، تم تخزين عدد من الألغام العائمة في الجزء الأمامي من السفينة. أمكن زرع هذه الألغام عند مصبِّ النهر، والخريطة التي يحتفظ بها القبطان ستُمكنُه من شقِّ طريقِه بحذر في القناة بأمان، في حين أنَّ الملاح الذي لا يملِك هذه الحماية والدليل لديه ألف فرصة لتفجير سفينته.»

قال اللورد بإعجاب: «يا إلهي، يتمتَّع النقابيُّون السبعة بشجاعة قراصنة العصور القديمة. إنهم بالتأكيد معرَّضون بدرجةٍ كبيرة لخطر السجن مع الأشغال الشاقة مدى الحياة؟»

أجاب ماكيلر: «لستُ مُتأكدًا من ذلك أيها اللورد. فكما ترى، تقع هذه المنطقة في ولايةٍ يحكمها أمير. وقد سمح لهم زعيم القبيلة الحاكمة في تلك المنطقة بحرِّية التصرف. ولا يسري القانون البريطاني في تلك المنطقة، وأنا أشكُّ كثيرًا فيما إذا كانت الباخرة «راجا» ستدخل ميناءً بريطانيًّا مرةً أخرى. فكرتي هي أنهم سوف يقومون بتحميلها بالمعدن الخام، ويتَّجهون إلى نقطةٍ ما، ربما المستعمرات البرتغالية؛ حيث سيصهرون

الخام، ويَبيعون السبائك، وفي شكل نقود معدنية لا يُمكن تعليمها، سيصل نتاجُ منجمِكَ إلى النقابة في لندن. الآن، أيها اللورد، تحدَّثت عن الإهمال والذنب وكل ذلك. ها هي ذي القصة، وإذا أمكنك أن تريني أين كنت مهملًا في مصالحك، فكلُّ ما يمكنني قوله هو أنَّ خطئي لم يكن مقصودًا.»

«حسنًا، كما ترى، ماكيلر، لقد كنتَ على دراية بشوارتزبرود العجوز، ولم أكن كذلك. ولم ألتقِ به حتى ذلك الوقت، ولم أكن أعرف شيئًا شخصيًّا عن النقابة، بينما أنت فعلت. أعتقد أنه كان يجب عليك وضعُ رجلٍ ثاقب النظر لمُراقَبة القطارات، ومعرفةِ ما إذا كان أيٌّ من هؤلاء الرجال قد جاء إلى ساوثهامبتون، أو ربما كان يجب أن تَنصحنا في لندن، وكان من الممكن أن نُراقِب السبعة المحصَّنين. كنت أتوقَّع حدوث خداع قانوني، ولكن ليس هذا النوع من الضربات الجريئة.»

«أجل، كان من الأفضل أن أراقبهم، لكن على الرغم من أنني كنتُ أعرف الرجال، لم يدفعني أي شيء في سلوكهم إلى الشك في حدوث خدعة كهذه. ومع ذلك، بما أنني لم أَعُد أعمل لصالحك، فلن تُعاني المزيد بسبب عدم كفاءتي.»

«أعتقد، ماكيلر، أنك يجب أن تُعطيَني إشعارًا قبلها بأسبوع، كما تعلم.»

«ممتاز. أنا أقدِّم استقالتي هذا الأسبوع.»

«أظن أنه لي الحق في الحصول على شهر. كم يجب عليَّ أن أدفع لك إذا فصلتُك؟»

«راتب ستة أشهر، على ما أَعتقِد، هو المبلغ القانوني.»

«حسنًا، إذن، لماذا لا تُعطيني إشعارًا قبلها بنصف عام؟»

«أعتقد أنك تَستحِق ذلك، أيها اللورد.»

«حسنًا هذا مُناسب. بعد نصف عام من الآن نتصافح ويودِّع كلٌّ منا الآخر. والكثير يُمكن أن يحدث في ٢٦ أسبوعًا، كما تعلم.»

«ليس إذا كنتَ تنوي عدم القيام بشيء، لورد سترانلي.»

«ماكيلر، قد لا تكون جميلًا، لكنَّكَ مَرِح دائمًا. ومع ذلك، هناك صفةٌ واحدة لا أحبها فيك. ربما تكون حساسية مُفرِطة من جانبي، لكن يبدو لي أحيانًا أنك تَعتقِد أنني أفتقر إلى الطاقة. آمُلُ، مع ذلك، أن أكون مخطئًا.» توقَّف اللورد وحدَّق بقلق غريب في ضيفه الذي، مع ذلك، لم يُظهر أيَّ رد، وعندها تنهَّد اللورد قليلًا، وبدا عليه استسلامٌ جَلَد تحوَّل إلى رجلٍ يُساءُ فهمُه.

«السكوت علامة الرضا، كما أعتقد، وأنا قد أجد صعوبةً في تشغيل تفكيرك بشكلٍ صحيح فيما يخصُّ هذا الموضوع. اسمحٍ لي أن أقدِّم لك توضيحًا، تمَّ اختياره من مهنتك المثيرة للاهتمام في هندسة التعدين. لقد علمت بشكلٍ موثوق فيه أنه إذا تمَّ حفَرُ حفرةٍ في صخرة صلبة، وإدخال جزء من الديناميت فيها، فإنَّ الانفجار الذي يلي ذلك يُؤدِّي عمومًا إلى انقسام الصخرة إلى جزأين.» مرةً أخرى توقَّف، ومرةً أخرى لم يكن هناك رد. كان من الواضح جدًّا أن ماكيلر الجاد كان يعتبِر نفسه موضعًا للسخرية. وبلا خجل، أكمل اللورد:

«هذه هي الطاقة، إن كان يُناسبك هذا. هلا نطلق على هذا النوع من الطاقة اسم الطاقة الماكيلرية؟ الآن سأُخبرُك عن شيء رأيته في أحد الأملاك الخاصة بي. تم حفر عدد من الثقوب في صخرة كبيرة، وبدلًا من الديناميت، وضعنا عددًا من المسامير الخشبية، وسكبنا بهدوء ماءً صافيًا باردًا فوق تلك المسامير. بعد فترة انقسمت الصخرة برفق. لم يكن هناك غبار، ولا دخان، ولا لهب ولا عنف ولا تفجير مُرهِق للأعصاب، ومع ذلك فإن المسامير المتضخمة قامت بالضبط بنفس العمل الذي كان يُمكِن أن يؤديه إصبع الديناميت. الآن، كانت تلك أيضًا طاقةً من نوع الطاقة السترانلية. أظن أنه سيكون من الصعب جعلُ إصبع الديناميت يفهم عصا خشبية، والعكس صحيح. بالمناسبة، هل رأيت والدك منذ عودتِكَ من ساوثهامبتون!»

«نعم.»

«هل أخبرَكَ أنني أمتلك يختًا بُخاريًّا صغيرًا رائعًا عابرًا للمحيطات موجودًا في الوقت الحالي في ميناء بريطاني؟»

«لا، لم يفعل.»

«لكنَّني اعتقدت أنني جعلته على علمٍ بما أنوي القيام به!»

«يبدو أنه لم يفهمْك أفضلَ منِّي؛ على الأقل أخبَرَني أنه لا يعرف المسار الذي اقترحت أن تسلكه.»

«أخبرتُه أن اليخت الخاص بي مجهَّز بمُحرِّكات توربينية، ويُمكِن أن ينطلق بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة عند الضرورة. الآن، إلى أيِّ مدًى تَبعُد منطقة الذهب اللعينة هذه الخاصة بك!»

«حوالي ٣٥٠٠ ميل.»

«جيد جدًّا. تسير الباخرة «راجا» ببطء نحو هذه البقعة المثيرة للاهتمام بسرعةِ سبع عُقَد في الساعة، وربما أقل قليلًا؛ حيث يضمَن أصحابها هذه السرعة. كم ستستغرق من

الوقت للوصول إلى هذا النهر الذي لا أتذكَّر اسمه؟ لا فائدة من محاولة حساب الأرقام عندما يعمل لديَّ مهندس غير مدني.»

أجاب ماكيلر: «حوالي ٢١ يومًا.»

«ممتاز. إذا انطلق اليخت الخاص بي بضعف هذه السرعة فقط، وهو ما يُمكنه تحقيقه أثناء راحته، فسنصل إلى هناك في نصف الوقت، أليس كذلك؟ أعتقد أن العملية الحسابية صحيحة؟»

«نعم إنها كذلك.»

«إذن سنكون هناك في غضون ١١ يومًا، أليس كذلك؟»

«نعم أيها اللورد.»

«والباخرة «راجا» الآن تَسبقنا بأربعة أيام. ألا ترى إذن أنه يُمكننا قضاء ستة أيام أخرى لتناول العصيدة في الصباح، ومع ذلك سنصل إلى النهر قبل أن تصل الباخرة؟ الآن ألا تبدأ في الشعور بالخجل من نفسك يا ماكيلر؟ لماذا تَستعجلُني لتناول وجبتي الاقتصادية عندما يكون لدينا هذا المتسع من الوقت؟ أفضِّل قضاء الأيام الستة هنا في لندن بدلًا من الإبحار في أنهارٍ مليئة بالتماسيح وموبوءة بالملاريا على الساحل الغربي لأفريقيا.» ابتهج وجه ماكيلر الصارم.

«إذن أنت تنوي مطاردتهم، بعد كل شيء، أيها اللورد؟»

«مُطاردتهم؟ يا إلهي لا. لماذا يجب علي مطاردتهم؟ إنهم رجال شوارتزبرود الطيب المُستأجَرون. وهو يدفع أجورهم. مطاردتهم؟ بالطبع لا؛ لكنني سأمرُّ عليهم، وأصل إلى النهر قبل أن يفعلوا.»

قفَز ماكيلر واقفًا على قدميه، ووجهه مُشتعِل بالحماس، وهو يضمُّ قبضته اليمنى بعصبية ويبسطها.

لوَّح اللورد: «الآن، اجلس يا بيتر. لا تجعلني أبذلُ طاقةً غيرَ ضرورية. لقد أخبرتُكَ مرتَين أو ثلاث مرات أنني لا أحب ذلك.»

جلس بيتر.

«ما كنتُ أحاول فعله عندما انطلقت قبل الأوان هو أن أُريَك مدى حماقة الاستهانة بشخص آخر. لقد أتيتَ إلى هنا غاضبًا، تتَّهمني عمليًّا بعدم القيام بأي شيء، في حين أنني لا أفعل شيئًا لأنَّ كل شيء قد تمَّ، وأنت، في حالة هياج، قادم من فشل كامل وشنيع.»

«لقد اعتذرتُ عن ذلك بالفعل، أيها اللورد.»

«هكذا فعلت يا بيتر. كنتُ قد نسيت. يجب ألا يُطلَب من الرجل دفعُ ثَمن الحصان والعربة ذاتهما مرتَين، أليس كذلك؟» تابع اللورد موجهًا كلامه إلى كبير الخدم الهادئ: «بونديربي، هل من الممكن أن تذهب إلى مكتب عملي، وتُحضر لي دفتر نسخ البرقيات.»

ثم انتقل إلى ضيفه، وقال:

«أنا مُنظَّم للغاية لدرجةِ أنني أحتفِظ بنسخةٍ من كل برقية أرسلها. سأطلب منك إلقاء نظرة على هذا الدفتر بعَين المهندس الناقدة، وستعلم أنه أثناء ثورتِكَ العارمة من بليموث كنت أطلب عن طريق التلغراف أن يُرسَل إلى اليخت الخاص بي المواد الأكثر أهمية للصراع الذي قد نتورَّط فيه. يجب أن يقوم الرجل ببعض التحركات لحماية ممتلكاته، كما تعلم.»

«أوه، أيها اللورد، هذا فقط ما كنتُ أقوله طوال الوقت، لكنَّكَ أوحيت إلي أنك لن تفعل شيئًا.»

«أنا لستُ مسئولًا عن هذه الفكرة التي ظهرت في ذهنك. أعتقد أنك تسرَّعت في استنتاجاتك، ماكيلر. ومع ذلك، ما دام يُمكنني إقناعك بأنني رجل عمليٌّ حقًّا، فسيكون كل شيء على ما يُرام بيننا.»

وضع كبير الخدم أمام اللورد سترانلي الدفتر الذي يحتوي على نسخٍ من البرقيات التي أرسلها أمس، وسلَّمه اللورد بتمهُّل لماكيلر.

وقال: «لا شيء يُضاهي الأدلةَ الوثائقية لإقناع رجل عنيد. أعتقد حتى إنك ستَعترِف بأنني أصبحت على مستوى الحدث.» قلَّب ماكيلر في أوراق الدفتر، وأخذ يقرأ وهو يسير. انخفض حاجباه أكثر وأكثر على عينيه القاتمتَين، وحرَّكت ابتسامةٌ خافتة شفتَي اللورد وهو جالس هناك يراقبه. أخيرًا، أغلق الدفتر بقوة، وألقاه بشدة على الطاولة.

«٢٤ دزينة من الشمبانيا؛ ٥٠ دزينة من نبيذ الكلاريت، والبورجوندي، وجَعة البوك، والويسكي الاسكتلندي ...»

قاطَعَه اللورد بلهفة: «أوه، والويسكي الأيرلندي أيضًا. لم أنسَ أي شيء، كما تعلم. كما ترى، لديَّ بعض الدماء الأيرلندية في عروقي، وأُحسِّنها من حينٍ لآخر بقليل من المشروب الوطني.»

قال ماكيلر بحزن: «لا أعتقد أن دمَك يحتاج إلى أيِّ مشروبات كحولية. ها قد طلبت قنطار تبغ، و٢٠ غليونًا، والآلاف من السيجار والسجائر. أفترض أنك تَعتقِد أن هناك شيئًا مضحكًا في إعطائي هذه الرسائل. ألا تكون جادًّا أبدًا أيها اللورد؟»

«إنني جاد في الوقت الحالي أكثرَ من أي وقتٍ مضى، ماكيلر. أشعر بخيبة أمل لأنك فشلت في اكتشاف العبقرية في المُؤَن التي جهزتها.»

«هل ستُقاتِل هذه العصابة من الأشرار، أيها اللورد، بقذف سدادات زجاجات الشمبانيا عليهم، أم بخنقهم بدخان التبغ؟»

«لقد أخبرتُك مرة أو مرتين، ماكيلر، أنني لا أنوي مقاتلة أي شخص على الإطلاق، ولكن إذا جاءت هذه العصابة من الأشرار لتناول العشاء معي على متن اليخت، فأنا أرغب في أن يُعجَبوا بحسن ضيافتي لهم.»

قال بيتر باستسلام: «حسنًا، سيادتك. لقد ذكَّرتني بأن وقتي ليس ملكي، بل ملكك أنت؛ لذا إذا كان يُسعدُك أن تسخر مني، فلا تسمح لمراعاة مشاعري بمَنعِكَ من فعل هذا.»

«آه، لقد تورَّطت مع شخصٍ أخرقَ، بيتر. وهذا سيُعطيك أفضلية. الآن، بعد تناول الطعام وانقضاء الوقت المُناسِب الذي كان يجب على المرء التحدُّث فيه عن العمل، حتى لو لم يفهمه، مثلي، يُمكنه على الأقل التظاهُر بالحكمة، بصرف النظر عن مدى حماقته في الواقع. ما اسم ذلك النهر مجددًا؟»

«باراماكابو.»

«شكرًا. حسنًا، كما فهمت، إنه يصل إلى البحر بعدة قنوات. هل منطقتُنا على المجرى الرئيسي؟»

«المَجاري كلها بنفس الحجم، على حدِّ علمي.»

«كم تبعُد الجبال عن الساحل؟»

«بالكاد يُمكنك تسميتُها جبالًا. إنها تلال مُرتفِعة بشكلٍ معقول، وأُقدِّر أن المسافة ستكون من ٢٥ إلى ٣٠ ميلًا. ومنطقتنا على ارتفاع ١٢ ميلًا فوق النهر.»

«هل تعتقد أن باخرةً تحتاج إلى العمق الذي تحتاجه الباخرة «راجا» يُمكنها أن تصل إلى هناك؟»

«أوه، نعم، ويُمكنها أن ترسو بجانب الصخور أمام حقل الذهب دون الحاجة إلى رصيف ميناء من أي نوع.»

«إذا توجَّهت باليخت إلى قناةٍ أخرى، فهل سيكون بعيدًا عن أنظار أي شخص مرابط على منطقتنا؟»

«الدلتا مُسطَّحة إلى حدٍّ ما لبضعة أميال من الساحل، ولكن إذا اتجهت إلى منبع النهر لمسافة ١٥ ميلًا أو نحو ذلك، فهناك الكثير من التلال التي قد تُخفي حتى صفًّا من

السفن الحربية، ولكن يمكن لأي شخص في منطقتك أن يرى اليخت وهو يُبحر عكس التيار عندما يكون على أرضٍ منخفضة السطح.»

«هذا لا يهم. فأنا أنوي الوصولَ إلى هناك قبل أن يفعل أصدقاؤنا ذلك؛ لذا لن تكون هناك مشكلة بسبب هذا الموضوع.»

«ألا تنوي تسليح يختك؟»

«نعم بالتأكيد؛ سأحمِّل على متنه بعض البنادق الرياضية، وبعض بنادق الصيد، والكثير من الذخيرة. هل هناك أي طرائد في الجبال؟»

«لا أعلم. كم عدد الرماة الذين تَقترِح اصطحابهم معك؟»

«كنت أفكِّر في دعوة بعض حراس الطرائد الصغار لديَّ؛ ربما نصف دزينة.»

«لكنهم لا يستطيعون الصمود أمام ١٥٠ رجلًا مسلحًا جيدًا، ناهيك عن البحَّارة على متن الباخرة «راجا».»

«صديقي العزيز، لماذا يذهب عقلك دائمًا إلى القتال؟ هذه ليسَت رحلةً بحرية لجزيرة الكنز، مع الحواجز، وجون سيلفر ذي الساق الواحدة، وهذا النوع من الأشياء. نحن لا نتأهَّل لتخليد قصتنا، ولسْنا قراصنة، ولكنَّنا مجرَّد أشخاص رزينين ومُحترمين من المدينة يُلقون نظرةً على منطقةٍ اشتروها. إذا تمَّ اكتشافنا ومُهاجمتنا، فسنَهرب بشجاعة، وحيث بإمكان القارب الانطلاق بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة عند الضرورة، أعتقد أنه إذا كان تيار المجرى في صالحنا يُمكننا الوصول إلى البحر إذا أصبح هؤلاء الضالُّون عنيفين. لقد نسيتَ أنه بصفتي رجل مدينة أنني مُستثمِر ولستُ مُضاربًا.»

«لا أفهم كيف سيَحمي مسار العمل هذا ذهبك من السرقة.»

«حقًّا لا تفهم؟ حسنًا، ستتَّضح لك الرؤية عما قريب. الآن، أريدك أن تعود إلى ساوثهامبتون. لقد تفاوضت من أجل تأجير الباخرة «راجا»، على ما أعتقد.»

«نعم.»

«مَن هم أصحابها؟»

«السيد سبارلينج والسيد بيلج.»

«ممتاز. سأُعطيك شيكًا على بياض وأطلب منك العودة إلى ساوثهامبتون. واكتشف، إذا استطعت، القيمةَ المعقولةَ للباخرة «راجا»، ثمَّ اذهب إلى السادة سبارلينج آند بيلج واشترِ الباخِرة. وتأكَّد من أن كلَّ شيء يتمُّ بشكل قانوني، ورتِّب نقل المِلكية لي.»

«هل هناك حدٌّ للسعر الذي سأدفعه، يا لورد سترانلي؟»

«أوه، نعم، بالطبع يجب أن نضع حدًّا؛ فلنَقُل ١٠ أضعاف قيمة السفينة. فلتَعقد صفقةً جيدة بقدْرِ ما تستطيع. يجب أن يكون جزء من الاتِّفاق هو قيام السادة سبارلينج آند بيلج بكتابة رسالةٍ إلى القبطان، يُخبرانه فيها أنهما قد باعا القارب، وأنه مِلكٌ لي، وأنهما قد تنازلا لي عن أي عقدٍ أبرموه معه، والضباط، وطاقم العمل؛ أي إنني سأكون مسئولًا فيما بعد عن دفع أجورهم. ثمَّ اكتشف ما يُمكن فعْله لتغيير اسم الباخِرة. أرغب في محو كلمة «راجا» وأضع مكانها، مجامَلةً لك، اسم «بلو بيتر». بلو بيتر يعني العلم الأزرق الذي يتوسَّطه مربَّع أبيض الذي يُرفَع على قمة الصاري عندما تكون السفينة على وشْكِ الإبحار، ولا أشك في أن بلو بيتر كان يُحلِّق فوق بيتر ماكيلر وهو مُحتجَز في المخزن. يُرجى معرفةُ ما إذا كان بإمكاننا تغيير الاسم بشكل قانوني، وإذا لم نتمكَّن من ذلك، فسنرى ما يُمكن فعله عندما تكون السفينة في حوزتنا. لن أَنغمِس في أيِّ قرصنة غير مُحترفة؛ لذلك أتوقَّع منك أن تهتمَّ بشدة بالنقاط القانونية لعمَلية النقل. يُمكنك الحصول على مساعدةٍ من أفضلِ محامٍ خبير بالأمور البحرية هناك في ساوثهامبتون. هل تَفهم ما أعنيه؟»

«نعم، أيها اللورد، وسأنفِّذ تعليماتك بحذافيرها. أعتقد أنني أتفهَّم ما تنوي فعله.»

«أنا أكثرُ الرجال شفافيةً يا ماكيلر. ليس هناك صعوبة في فهمي؛ لذا أنت تستحقُّ القليل من الفضل لفهم خططي. سوف نَفترض أننا نحتاج إلى يومَين لتُصبح الباخرة «راجا» في حوزتي. عُد بعد ذلك إلى لندن، واحزم حقيبتَك، وودِّع جميع أصدقائك، ولا تَقُل لهم شيئًا عما فعلتَه، أو ما تنوي فعله، أو ما تُخمِّنه، أو ما تَعرفُه، ولا حتى لوالدك الذي جعلته رئيسًا للشركة؛ لأنني أكره الإشهار غير الضروري، وأرغب في إبقاء اسمي مُتخفٍّ وراء هذا الغموض المُتواضِع الذي كان يُحيط به دائمًا. اشترِ أيَّ شيء تعتقد أنك قد تحتاجه للرحلة البحرية، واشحن أمتعتك إلى بليموث، على عنوان عهدة يخت «ذات الرداء الأبيض». ثم احجز سريرًا في عربة النوم على متن قطار بنزانس السريع ٩:٥٠، السكة الحديدية الغربية العُظمى، تذكرة الدرجة الأولى، وخمسة شلنات إضافية لغرفتك الخاصة، ولا تنسَ إضافتها على الحساب. في الساعة ٦:٤٩ صباحًا، ستَصل إلى ريدروث في كورنوال؛ حيث يُمكنك تناول وجبة إفطار مبكرًا؛ حيث يبدو أنك تَستمتِع بها. وستجد في ضواحي تلك القرية قطعة أرض صغيرة تخصُّني، وعليها يوجد منجم نُحاس مهجور به فرنُ صهر. أعتقد أنَّ جهاز الصهر في حالةٍ جيدة إلى حدٍّ معقول، لكنَّني أشك في وجود قيمة

كبيرة لأيٍّ من معدات المنجم الأخرى. الآن، بعد أن دخلت في مجال التعدين، أعتزم أن أقومَ بأعمال تنقيب في هذه المنطقة قدْر المستطاع، وأقترح أن تقضي يومًا أو اثنين في الحصول على مُدير مُناسب، وتجهيز الرافعات، وهذا النوع من الأشياء، حتى نتمكَّن من رؤيةِ ما إذا كان النحاس اليوم يُمثِّل قيمةً مالية أكبر مما كان عليه الحال عندما تركت المنجم، منذ سنوات طويلة. أظنُّ أن العمليات الحديثة قد تُمكِّننا من استخراج المزيد من النحاس من المعدن الخام أكثر مما وجده آباؤنا مُمكنًا. على أيِّ حال، فكرتي هي جعل فرن صهر المعادن يعمل مرةً أخرى، ومن ناحية أخرى حين نعود إلى إنجلترا، ربما نعرف ما إذا كان هناك أي نحاس في المنجم. هل تعتقد أنك تفهم هذه المهمة بالإضافة إلى شراء ...»

«ولكن لماذا تشغل نفسك بالنحاس، لورد سترانلي، عندما يكون بين يدَيك منجم الذهب الأكثر إنتاجًا، كما أعتقد، في العالم؟»

«لقد قلت إنه بين يدَي الشخص الآخر يا ماكيلر.»

«ألا تَنوي منعَ ذلك الطاقم بطريقةٍ ما من أخذ المعدن الخام؟»

«أوه، لا، لن أتدخَّل في شئونهم على الإطلاق.»

«إذن لما ستذهب إلى غرب أفريقيا؟»

«من أجل الرحلة البحرية. والاستمتاع بالمناظر الطبيعية. وللحصول على طرائدَ كبيرةٍ في هذه المنطقة النائية. ولشُرب بعضٍ من تلك الشمبانيا التي طلبتها، وتدخين القليل من تلك السجائر التي أرسلتها على متن السفينة. وسأقرأ أحدث الكتب التي لم أجد الوقت للاطلاع عليها هنا في لندن. بالمناسبة، هل المنطقة المجاورة لمنجمنا منطقة صحية؟»

«يجب أن أقول إنَّ الجو كان يُسبِّب الحمَّى إلى حدٍّ ما على طول الساحل، ولكن باتجاه التلال أعتقد أنها صحية مثل هامبستيد.»

«سأحثُّ طبيب صديقي ليأتي معنا. أنا سعيد لأنني فكَّرت في ذلك. إذا كنتَ تَستمتِع بميلك لاستخدام القوة، وإطلاق العِنان لشغفك بالقتال، فسيكون من الضروري وجودُ جرَّاح من أجل عمليات بتر الأعضاء وتضميد الجروح، وسيكون مفيدًا بشكل عام في معالجة تلك الحوادث المثيرة التي تتبع رجلًا قاهرًا مثلك، يؤمن بالقوة الغاشمة بدلًا من العقول اليقظة.»

«إذن سأقوم بتشغيل منجم النحاس هذا الخاص بك في كورنوال؟»

«بالضبط. واترك مديرًا كفؤًا لإشراك الرجال، وتجديد الآلات، وكل ذلك.»

«هل هناك حدٌّ للإنفاق؟»

«حدٌّ؟ بالطبع يجب أن يكون هناك حدٌّ. ألا نَحُدُّ دائمًا من الإنفاق؟ إنني أُهدر حياتي في تحرير شيكات من أجل الإنفاق. نعم، ستُعلِم المديرَ الجديد أن هذه مجرَّد تَجربة مبدئية لي، وألا يشتري الآلات بالجملة، ولا يشرك العديد من عمال المناجم، ولكن فقط يختبر قدرات طبقة النحاس، وصهر قدْر ما يستطيع من المعدن الخام حتى تعود.»

«بالطبع هذا ليس من شأني، أيها اللورد، لكن يبدو لي أن هذا مشروع غير ضروري وخاسر. شهدت صناعة النحاس في كورنوال انخفاضًا ثابتًا في القيمة، وأشكُّ في وجود نصف عدد مناجم النحاس العاملة كما كان الحال قبل ١٠ سنوات.»

«أوه، بيتر، بيتر، أنت لا تَملك بُعدَ نظرٍ على الإطلاق! ألا ترى مخيِّلتك ميناء بورتريث الصغير الذي يعني الخليج الرملي؟ بالطبع لا؛ لأنكَ ربما تجهل وجود مثل هذا الميناء. يقع مصهرنا بالقرب من هذا الملاذ البحري للراحة. أيقِظ خيالك، يا ولدي، وانظر بعين عقلك إلى الباخرة «راجا»، محمَّلة بالمعدن الخام، لكن أُعيدت تسميتها لتصبح «بلو بيتر»، وتطفو بشكل مهيب في بورتريث. هل هناك أفضل مِن أن يمتلك سترانلي الجَشِع منجمًا آخر للنحاس حيث لا يوجد مصهر، وأن تَجلِب هذه السفينةُ خام النحاس إلى فرن كورنوال؟ من المحتمَل أن يتمَّ وضع «بلو بيتر» لأول مرة في بليموث؛ حيث تقلُّ احتمالية التعرُّف عليها من قِبل البحَّارة عما هو الحال في ساوثهامبتون. وسنقوم هناك بتسريح الطاقم مع منح كل رجل أجرًا مُضاعفًا. وسنقوم بتعويض القبطان وضُباطه، مما يجعل الجميع سعداء. ثم سنُشرك قبطانًا آخرَ وطاقمًا آخر، لا يعرفون شيئًا عن المكان الذي أتت منه الباخرة، وبالتالي نُبحر حول لاندز إند، ونُدخلها إلى ميناء بورتريث الصغير.»

«أنت تَقترِح، إذن، الاستيلاء على الباخرة «راجا» في أعالي البحار، عن طريق تتبُّعها بيختك الأسرع منها بكثير؟»

«أوه، لا، لن نَستوليَ عليها. سأمتلكُها، هذا كلُّ ما في الأمر. فالباخرة «راجا» مِلْكي بلا مُنازع مثل اليخت. والمعدن الخام الذي سيتمُّ تحميلها به هو أيضًا مِلْكي. يجب القيام بكل شيء بشكل قانوني كما لو أننا نتعامل مع القضاء. ألا يجعلك ذلك تخجل من أفكارك عن القتال والذبح القادمة من المرتفعات الاسكتلندية البريَّة؟ يجب أن تَرتدي إزارًا وتضع خنجرًا، ماكيلر، لكن وسيلتي تتمثَّل في قلم ريشة وطوابع حمراء جميلة منقوشة في مبنى سمرست هاوس.»

«ومَن سيدفع للرجال الذين ينسفون المعدن الخام على ضفاف نهر باراماكابو؟»

«يا إلهي، حقًّا ماكيلر، هذا ليس من شأني. تمَّ توظيف هؤلاء الأشخاص الكادحين من قِبل شوارتزبرود الطيب. إذا اختار هذا المُموِّل الماهر إشراك عدد كبير من العُمال لإخراج المعدن الخام الخاص بي من أجلي، فأعتقد أنكَ ستَعترف، ماكيلر، بقدْرِ ما كنت مُتحيِّزًا ضدَّه، أنه حقًّا المتبرِّع الخيري من بين بني عِرقه كما كنت أقول عليه دائمًا.»

قال ماكيلر مُتلعثمًا: «لكن ... لكن ... لكن عندما يكتشفون كيف تمَّ خداعهم، ستكون هناك أعمال عنف.»

«أنا لا أرى ذلك. عندما أسرِّح القبطان والطاقم في بليموث، سأقطع السلك المشحون بالتيار، إذا كان بإمكاني استخدام تعبير من مهنتِكَ المُمتعة. سيتمُّ قطع الكبل الواصل بين عمال المناجم المخدوعين في غرب أفريقيا والنقابة الودودة في لندن. أعتقد أن القبطان لا يعرف شيئًا عن شوارتزبرود. فقد كان يعمل لدى سبارلينج آند بيلج. وعند الذهاب إلى الشاطئ في بليموث، عاطلًا عن العمل، من المُحتمَل أنه سيبحث عن سفينة في ذلك الميناء، وبعد أن يفشل في العثور على واحدة، قد يُسافر إلى أرباب عمله القدامى في ساوثهامبتون. ولكن، على الرغم من أنني سأقوم بتسريح القبطان، إلا أنني لا أنوي ترَكه في وسط البحر. لقد استخدمت بالفعل نفوذي في العمل مما سيُؤمِّن له قاربًا أفضلَ من الباخرة «راجا»، وسيُبحر الرجل راضيًا بعيدًا عن بليموث، أو عن لندن، أو عن أيِّ ميناء شمالي، حسبما يكون الحال. ومن غير المُحتمَل أن يعرف القبطان، أو ضباط الباخرة، أو طاقم العمل طبيعةَ المعدن الخام الذي سيَحملونه، لكنَّني لا أنوي ترْكَ السلك مقطوعًا جزئيًّا. سأوفِّر أماكنَ على متنِ سفنٍ مختلفة لضباط السفينة وطاقم العمل، وأُشتِّتهم على وجه الأرض، مُلقيًا موردي رزقي في البحر، كما يُمكن للمرء أن يقول، على أملِ ألا يعودوا لعدة أيام.»

«ولكن عندما لا يسمع شوارتزبرود شيئًا عن الباخرة «راجا» في أي ميناء أجنبي أمرَها بالإبحار فيه، سيَستفسِر من سبارلينج آند بيلج.»

«أشك كثيرًا في ذلك.»

«لماذا؟»

«لأنه استأجر سفينتَهم، وعليه إما إعادتها أو تجديد إيجارها. بالمناسبة، ما مدَّة إيجار الباخرة «راجا»؟»

«ثلاثة أشهر مع إمكانية التجديد.»

«جيد. وقرب نهاية ذلك الوقت، سيكتب شوارتزبرود العجوز رسالةً إلى سبارلينج آند بيلج لتمديد الإيجار لمدة ثلاثة أشهر أخرى. إنه لا يجرُؤ على الذهاب لرؤية رجال

الشحن هؤلاء لأنه أضاع باخرتهم، ولا يرغب في الإجابة عن الأسئلة المُحرجة المتعلِّقة بمكان وجودها.»

«نعم، ولكن السادة سبارلينج آند بيلج سيكتفون بقول إنهم قد باعوا البارجة «راجا» للورد سترانلي، وسيُرسلون شوارتزبرود إلى المالك الجديد.»

«أحسنت بيتر. لقد بدأت بالفعل في الحصول على فكرةٍ طفيفة عن مُعضِلة السيد شوارتزبرود. كدت أيأس من توضيح ذلك لك.»

«لكنني لا أفهم الهدف من قطعِ الأسلاك المشحونة بالتيار، كما تُسميها، إذا تركت سلكَ اتصالٍ آخرَ سليمًا. أنت تبذل جهدًا كبيرًا لمنع القبطان أو أيٍّ من أفراد الطاقم من مقابلة شوارتزبرود، لكنَّك تجعل من المُحتم أن يعلم شوارتزبرود أنك مالك الباخرة «راجا». ربما كنت ترغب في أن تجعل سبارلينج آند بيلج يلتزمون بالسِّرية؟»

«أوه، لا يا عزيزي. إنه لمن دواعي سروري مقابلة السيد شوارتزبرود. أتخيَّله ينحني مُحرَجًا ويفرك إحدى يدَيه بالأخرى وهو يتوسَّل لتجديد الإيجار، ويتهرب من كل استفساراتي المتعلِّقة بمكان وجود الباخرة. سأعود إلى لندن في الوقت الذي تبدأ فيه النقابة القلق بشأن الباخرة «راجا»، وسأُجدِّد الإيجار بأقصى درجات البهجة، دون الإصرار على معرفة مكان الباخرة «راجا». لكن تخيَّل الموقف الحسَّاس إلى حدٍّ ما لرجلٍ اضطُرَّ للتفاوض معي لاستئجار قارب لسرقة ذهبي. سيَحتاج شوارتزبرود الموقَّر إلى الحفاظ على حراسةٍ مشدَّدة على لسانه وإلا سيُفشي سرَّه. إنها مُعضلة لذيذة. أتمنَّى أن تفهم كل احتمالات الموقف، ولكن مهما كان الأمر، انطلق إلى ساوثهامبتون، وعندما تنتهي من منجم النحاس، اصعد على متن اليخت الخاص بي في بليموث؛ حيث ستجدُني في انتظارك. ثم سننطلق إلى البحر الأزرق والمذبحة الحمراء إذا كان مقدَّرًا لنا حدوث هذا. ١٦ رجلًا على جزيرة صندوق الرجل الميت، يو، هو، هو، وزجاجة شمبانيا، وكل هذا النوع من الأشياء، بيتر.»

الفصل الرابع

مغناطيس حقل الذهب

أنهى ماكيلر الشابُّ المُفعَم بالحيوية شراءه للباخرة «راجا» في أقل من ثلاث ساعات، بدلًا من اليومَين اللذَين سمح له بهما اللورد سترانلي. من السهل جدًّا شراء سفينة في ساوثهامبتون إذا كان بحوزتك المال. نقَلَه بسرعة قطارٌ سريع ممتاز في الخط الجنوبي الغربي إلى لندن مرةً أخرى، وقضى فترةَ ما بعد الظهر في الحصول على ما يحتاجُه للرحلة البحرية الطويلة التي كانت تنتظره، وأرسل مشترياته، كما أمر اللورد، إلى عهدة اليخت في بليموث. مع تقدُّم معرفته بلورد سترانلي، تغيَّر انطباعه الأول عن لورد ويتشوود بشكلٍ كبير. فعلى الرغم من أسلوب الشاب النبيل المرح غير المُكترِث في الحديث عما اعتبره المهندس الشاب مواضيع جادة، بدأ ماكيلر يدرك ببطء أن هناك فكرًا وطريقةً وراء كلِّ هذه السخرية التي لم تَرُق له كثيرًا، وبدأ يشك في نظريته أن لقاء سترانلي الناجح مع النقابة كان مجرَّد صدفة، كما افترض في البداية. الخطة التي رسمها اللورد بشكلٍ مبدئي، لاستعادة منطقته الخاصة في أعالي البحار، صدمَت عقل ماكيلر العملي بسبب احتمال نجاحها، ولكن على الرغم من أن اللورد مُلتزم بالقانون، وعلى الرغم من أن خصومه كانوا مُنخرِطين في مخططٍ عملاق للسطو بشكل سافر، إلا أن ماكيلر طاف أرجاء الأرض كثيرًا من شرقها لغربها؛ لذا فهو لا يجهل حقيقةَ أنه في بعض أجزاء العالم، لم تكن شرعيةُ الأعمال إلا نقطة ثانوية في اللعبة. في الواقع، كان المُواطن الملتزم بالقانون في وضعٍ غيرِ مُواتٍ بشكل واضح ما لم يكن لديه قوة عليا تحت إمرته للإجبار بدلًا من الإقناع. لا فائدة تُذكر في الجدال مع رجلٍ يحمل مسدسًا محشوًّا؛ لذلك فشل اللورد سترانلي في إقناع مرءوسه في مرحلةٍ ما. اعتقد ماكيلر أنه من الحماقة التوجُّه إلى غرب أفريقيا بعددٍ قليل من الرجال، ومن دون ذخيرةٍ مُقنِعة سوى الشمبانيا والسجائر. لذلك، عند شراء معداته الخاصة، اتخذ ماكيلر الاحتياطات اللازمة لشراء عشرات من أحدث البنادق المتعدِّدة

الطلقات، بالإضافة إلى عدة آلاف من الأعيرة النارية التي تَتناسب معها، وأمر بإرسال هذه المجموعة من البنادق إلى اليخت لإضافتها إلى البنادق الرياضية التي جهَّزها اللورد ستراني لحراس الطرائد ورجال الغابات الذين أحضرهم معه. اعتقد ماكيلر أن هؤلاء سيكونون شبَّانًا صامدين، عنيدين، قادرين، وعلى الرغم من قلة عددهم، إلا أنهم إذا كانوا مسلحين جيدًا، قد يتسبَّبون في فِرار الرعاع البالغ عددهم ١٥٠ رجلًا في حالة حدوث صراع.

الرجل الأسمر الذي ركل ماكيلر لأسفل في المخزن، والذي أجرى مقابلةً معه بعد ذلك بمفرده على ضوء المصباح، أثار إعجاب ماكيلر بوصفه قائدًا مقتدرًا للرجال، ومن المحتمل أنه سيدرِّب أتباعه خلال الرحلة الطويلة إلى الجنوب. شكَّ ماكيلر بشدة في أن القبطان، والضباط، والطاقم، أو أيًّا من المائة والخمسين رجلًا كانوا على علمٍ بالطبيعة القرصانية للرحلة الاستكشافية، لكن الطريقة السريعة التي خرق بها القائد، بقدمه القوية، القانون، وكاد أن يكسر عنق ماكيلر، أقنعت المهندس أن الرجل الأسمر كان مُدرِكًا تمامًا للطبيعة الإجرامية لإجراءاته، ولا شك أنه بمجرد هبوط القوة، سيكون متأهبًا بشدة، مُتوقِّعًا أنه بمجرد أن يصبح هروب الباخرة معروفًا، سيتمُّ إجراء ترتيبات فورية لتعقبها. وبلا شك سيُرسل الكشافة، ويحاول جاهدًا بكل وحشية فهْم الموقف الذي وجد نفسه فيه. كان من المؤكد أخلاقيًّا، كما يعتقد ماكيلر، أن واحدًا أو أكثر من هؤلاء الكشافة سيَعثُرون بمحض الصدفة في النهاية على اليخت، بصرف النظر عن إجراءات الأمان التي اتخذوها لإخفائه، وبمجرَّد أن يعلم قائد القراصنة الحازم مكانه، فمِن المؤكَّد حدوث هجوم على اليخت، ومن المرجَّح أن يتم الاستيلاء عليه أو تدميره، ما لم يتمكَّنوا من الهروب بسرعةٍ إلى عُرض البحر. ولأنَّ ماكيلر كان يعلم أنه لا توجَد مَتاجرُ أسلحةٍ على طول نهر باراماكابو، فقد اتخذ الاحتياطات اللازمة لتوفير ذلك مُسبقًا دون أن يقول أي شيء لسيده المحب للسلام. فالرجل الذي يتنزَّه يوميًّا في بيكاديلي هو بالكاد في وضعٍ يُمكِّنه من التنبؤ بما قد يحدث في باراماكابو.

في الساعة ٩:٥٠ من تلك الليلة، كان ماكيلر في غرفته الصغيرة الأكثرِ راحة في عربة النوم في قطار بنزانس السريع، واستراح في هذه اللية الرائعة بعد يومه الحافل. في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي تناول وجبةَ الإفطار في ريدروث، وتولَّى بحزمٍ عمله حتى إنه في غضون يومين أتمَّ تشكيل المجموعة التي كانت ستدير منجم النحاس القديم. ثم استقل القطار إلى بليموث، واستنفد قوَّته في التجديف بالمساء إلى اليخت الأبيض الراسي في الميناء، الطافي بشكلٍ جميل مثل بجعةٍ في مياهٍ هادئة. اندهش ماكيلر عندما وجده قاربًا

رائعًا. كان تقريبًا بحجم الباخرة «راجا»، لكنه كان ذا شكلٍ أكثرَ رقة، وتُعطي حوافه الدقيقة وعدًا بسرعة كبيرة. وأدرك أن الكبلات الرفيعة، التي تمتد من صارٍ مائلٍ إلى آخرَ هي الأدوات الخارجية لإرسال برقيات لا سلكيًّا، وعلى الرغم من أنه رأى من هذا أن اللورد سترانلي اشترى لنفسِه أحدث الاختراعات العِلمية، إلا أنه لم يكن مُستعدًّا تمامًا للرفاهية الرقيقة التي رآها في كل مكان بمجرَّد صعوده على متن اليخت.

ووجد اللورد سترانلي في مؤخِّرة اليخت جالسًا على كرسي خيزران، وقد استراحت قدماه على كرسي آخر. وكان يقرأ آخر صحيفة مسائية تمَّ إحضارها على متن اليخت، ووضعها على ركبته وهو ينظر بتكاسل إلى مهندس التعدين الخاص به.

سأل: «هل انتهيت من موضوع النحاس، ماكيلر؟» «نعم، أيها اللورد.»

«لم أكن أتوقَّعك قبل ليلة الغد. أتخيَّل أنك أطلقت العِنان لطاقتك المربكة في كورنوال.»

«لقد كنتُ مشغولًا بشكل معقول، أيها اللورد.»

«هل تمانع الضغط على الزر الكهربائي؟ إنه بَعيدٌ عني.»

فعل ماكيلر ذلك، وظهر على الفور واحدٌ من خدم السفينة.

«اذهب، واسأل القبطان ويلكي إذا كان بإمكانه التكرُّم والسماح لي بالتحدُّث معه.»

كان القبطان ويلكي بحَّارًا عجوزًا أشيبَ من أصل اسكتلندي بشكلٍ لا لبس فيه. وجاء إلى مؤخِّرة اليخت وحيًّا صاحبه.

«هل كل شيء جاهز، أيها القبطان؟»

«كل شيء جاهز يا سيدي.»

«ممتاز؛ فلترفع المرساة ولنَنطلِق.»

تقدَّم القبطان إلى الأمام وصعد الجسر.

«اسحب مقعدك، يا بيتر، ودعني أحصُل على تقريرك الشفهي، وبينما تجلس على الكرسي، أرجو أيضًا أن تتخلَّص من عبارة «أيها اللورد». إذا كنت تُريد أن تكون أكثر احترامًا في أي وقت، فقل «سيدي» كما يفعل القبطان، وسأفعل نفس الشيء، إذا كنتَ تُريد ذلك.»

قدَّم له ماكيلر تقريرًا كاملًا عما فعله خلال الأيام الثلاثة الماضية، ولكنه لم يكن متأكدًا مما إذا كان سترانلي نائمًا أم لا طوال حديثه. على أيِّ حالٍ لم يُقاطعه سترانلي، بل استلقى على كرسيه وعيناه مُغمضتان. ثم، دون أن يفتحهما، قال:

«لقد أبليتَ بلاءً حسنًا يا ماكيلر، وكمُكافأة سأمنحك اختيار مكان في خليج بسكاي أو المحيط الأطلسي؛ حيث قد تَرغب في إلقاء صندوق البنادق والذخيرة في البحر.»

سأل ماكيلر: «أوه، هل كنت تتفحَّص أغراضي يا سيدي؟»

أجاب سترانلي بفتور: «يا إلهي، لا. الأحمق صانع السلاح الخاص بك لم يفهم تعليماتك، ولم يكن يعرف أين يجدُك، وافترض أنك كنتَ تنوب عني؛ لذا أرسل برقيةً يسأل فيها عن أي من البندقيتين المحدَّدتين يجب إرسالها. وعندما علمت أنه قد تمَّ طلب ١٢، فكرت في إرسال العبارة القديمة: «ستة من واحدة ونصف دزينة من الأخرى»، لكنني في نهاية الأمر أخذت ٢٠، عشرة من كل نوع مع الذخيرة المناسبة.»

«لماذا تَشتري أسلحة أكثر مما فعلت، إذا كنت ستُلقيها في خليج بسكاي.»

«أوه، ستُصدر صوتًا أعلى عندما تسقط.»

«وما الضرر الذي ستتسبَّب فيه على متن السفينة، يا سيدي؟ إذا لم نكن بحاجة إليها، فلن نستخدمها. وإذا كنا بحاجة إليها، فحينها ستأسَف لوجودها في خليج بسكاي.»

«إذن ستَختار خليج بسكاي، أليس كذلك؟ اعتقدت أنه ربما يُمكنك رميها لمسافة أبعد من ذلك. أتمنَّى أن تفهم، ماكيلر، أنا في مُهمة سلام، وإذا كان لا بدَّ مِن تفتيش اليخت لأي سبب من الأسباب، فستُفشي بنادقك وذخيرتك السرَّ، أليس كذلك؟»

«أنا لا أرى ذلك. لديك أكثر من ٢٠ رجلًا على متن اليخت هنا، ويُمكن استخدام البنادق المتعدِّدة الطلقات للأغراض الرياضية.»

«حسنًا، ماكيلر، لا تنزعج. تمَّ تخزين الصناديق بأمان بعيدًا في مخزن بالمقدمة، ولن نقوم بإلقائها في أيِّ مكان في البحر. فعلى كل حال، أنت تعرف المنطقة التي نتَّجه إليها أفضل مني، وبالتالي قد نحتاج إلى بنادقك وذخائرك في وقت الشدة. أرى الخادم ينتظر بالقرب منك، وأنا متأكد من أنه يودُّ أن يُرشدَك إلى مقصورتك. حينما تغسل غبار السكة الحديد من على جسدك النحيف الرشيق، سيرنُّ جرس العشاء في أرجاء اليخت بلحْن ترحيبي. معي الشيف المفضل لديَّ، وأفهم أننا لن نحتاج إلى العيش على العصيدة والحليب المعلَّب. وبالمناسبة، يا ماكيلر، هل حدَث وحزمت ملابسَ مناسبة للعشاء في أمتعتك، كما تُسميها؟»

«ملابس للعشاء؟» ردَّد ماكيلر، مذعورًا. «لماذا، يا إلهي، أنا مهندس تعدين. أنا ليس لدي حتى قميص منشى، ناهيك عن بدلة رسمية. لم أكن أعرف أنني قادم إلى حفلة مسائية؟»

«لا، لقد اهتممت بتفاهات الحياة، مثل البنادق والذخيرة، وأهملت تمامًا مسألة الملابس الأكثر أهمية.»

قال ماكيلر بفظاظة: «سوف أتناول الطعام بالمقدِّمة مع الرجال.»

«أوه، ليسَت هناك حاجة لذلك. عندما حاولت الهرب من باب غرفة الإفطار الخاصة بي ذلك اليوم، عندما كان بونديربي على أهبة الاستعداد، رأيتُه يأخذ مقاساتك بعينه بدقة، في حال كان من الضروري أن يستخدم تلك القوة التي أستنكرها؛ لذلك طلبت منه أن يُخمِّن ما قد يناسبك، وأن يجازف ويُحضر ثلاث بدلات سهرة بمَقاسات مختلفة مصنوعة حسب الطلب. سوف تجدها كلها موضوعة في غرفتك، وسيُقدِّم لك بونديربي الماهر نصائح بالغة الأهمية بشأن أفضل ما يُناسبك.»

«حسنًا، سيدي، إذا كنت تتوقَّع منِّي أن أبدو وسيمًا كل ليلة ...»

قاطعه اللورد: «أوه، لا، أنا لا أتوقَّع المستحيل أبدًا، لكن كما ترى، فإن القبطان ويلكي متمسِّك بآداب السلوك. وسيشغل هو أحد طرفي الطاولة، شجاعًا في زي من الدانتيل الذهبي صنعه أفضل خياط بحري في لندن؛ لذلك يجب علينا أن نكسب رضاه، يا بُني، ونبذل قصارى جهدنا. بعد ذلك سيكون هناك كبير المهندسين لدينا، بالزي الرسمي أيضًا، ومشغل التلغراف اللاسلكي، وهو بالأحرى شابٌّ مُتغطرِس، وأخيرًا هناك الطبيب، وهو خريج جامعة أكسفورد؛ ولذا يجب علينا تكريم الجامعة. أنت وأنا أقلية، وسنحتاج فقط إلى التعامل مع الموقف على أفضل نحوٍ ممكن.»

غادر ماكيلر حزينًا إلى غرفته، التي وجدها واسعة للغاية ومجهزة بشكل فاخر لدرجةِ أنه وقف على عتبة غرفته لبضع لحظات، مشدوهًا، ينظر إليها بأسًى. ظهر عندما رن الجرس، ودخل الصالون الطويل الواسع الذي كان يمتد من جانب السفينة إلى الجانب الآخر. شغل اللورد سترانلي رأس الطاولة، وقدَّم ماكيلر للدكتور هولدن، والسيد سبنسر، الكهربائي والمسئول عن التلغراف. لم يظهر القبطان ولا المهندس أثناء العشاء، فأوَّلهما كان ينتظر رؤية سفينته في المياه المفتوحة، والآخر يقف لمراقبة سلوك الآلات في بداية الانطلاق لمسافة طويلة.

قال الطبيب: «لديك قارب جيِّد هنا يا سترانلي.»

اعترف اللورد: «إنه جيد جدًّا». «ومع ذلك، هناك عيب وحيد. فأنا أُطلِق عليه اسم «ذات الرداء الأبيض»، تيمُّنًا بعنوان رواية ويلكي كولينز الشهيرة. أظن أنك تعرف الكتاب، ماكيلر؟»

«لم أسمع عنه قط. فأنا لا أقرأ الروايات.»

«أوه، حسنًا، يجب أن نُغيِّرك قبل انتهاء الرحلة. ستجد الكثير من الروايات على متن هذا القارب. توجد نسخة من «ذات الرداء الأبيض» في كل غرفة، كبيرة وصغيرة، كل

نسخة بنمط تغليف يُناسِب ديكور الغرفة؛ لذا أتوسَّل إليك، ماكيلر، لتبدأ في قراءة القصة في غرفتك الخاصة، وإذا بدأت تهتم بها، ورغبت في الاستمرار في قراءتها في الصالون أو على ظهر السفينة، آمُل أن تأخذ نسخة الصالون أو سطح السفينة، حتى لا يتعارَض لون الغلاف مع البيئة المحيطة. يجب أن أقيِّد النسخ بالسلاسل في أماكنها، كما كان الحال مع الكتب القديمة في كنائسنا؛ لأنه مشهد مؤلم للغاية أن أرى رجلًا يقرأ كتابًا بنفسجيًّا في صالون أبيض وذهبي، أو نسخة قرمزية على سطح السفينة.»

سخر ماكيلر قائلًا: «نعم، أعتقد أن هذا سيكون مُروِّعًا.»

«الآن، لا تكن ساخرًا، يا بيتر، ومن ثم تُزعج أذواقي الفنية الرقيقة. قد تعرف، يومًا ما، عندما تتضوَّر جوعًا في برية على الساحل الغربي، أن هذه هي الأشياء الجادة في الحياة.»

أجاب بيتر بفظاظة: «أتَّفق معك.»

قال الطبيب: «إذن فالعيب الوحيد هو حقيقة أن الركَّاب يُصرُّون على أخذ الكتب من الغرف التي تنتمي إليها؟»

«أوه، لا؛ بل حقيقة أن الرجل الذي يُسمِّي يخته «ذات الرداء الأبيض»، يجب أن يكون لديه قبطان اسمه ويلكي كولينز. وقد بحثتُ في إنجلترا واسكتلندا عن أحدٍ بهذا الاسم، ولم أتمكَّن من العثور عليه؛ لذلك كنت مُضطرًّا لتقديم تنازلات، وهو أمرٌ لا أحب فعله دائمًا. فاسم قبطاني هو ويلكي، واسم كبير المهندسين هو كولينز، ومن ثمَّ أقسِّم عبء التطابق على أكتاف رجلين مختلفين، في حين أن واحدًا كان سيَكفي لو أن والدَيه أظهَرا فقط بعض التفكير السليم عند تعميده. كنتُ سأدفع أي راتب من أجل قبطانٍ يُدعى ويلكي كولينز.»

قال الطبيب: «أعتقد أنني سأكتب كتابًا بنفسي يومًا ما، وسأُطلق عليه «المخاوف الجسيمة للمليونير». هل ستَعترِض إذا اعتبرتُكَ نموذجِي لقارون الخاص بي؟»

«على العكس من ذلك، يجب أن أشعر بالإطراء، ومع تقدُّمك في العمل قد أكون قادرًا على تزويدك بالوقائع لتَنسجها في روايتك.»

جلس ماكيلر صامتًا بينما استمرت هذه المحادثة التافهة، وحافظ على هذا الصمت خلال الجزء الأكبر من الرحلة. كان عقل ماكيلر مُضطربًا. فقد كان شابًّا جادًّا، وكانت آراؤه ترتكز بقوة على التفكير السليم، وكان هناك العديد من العناصر في الموقف والتي أعطته سببًا للقلق. وعندما وصل الأمر إلى نهايته، كان لدَيه إيمان قوي بكفاءة القوة.

وعلى حد علمه، كان اللورد يقف دائمًا إلى جانب الكتيبة الأكبر. فقد مثَّل الثقة الأمريكية في التهديد باستعمال القوة، والإيمان البريطاني في الالتزام بالحذر، والاعتماد الألماني على التهديد باستخدام العنف.

والآن ها هو ذا يسير على سطح تُحفةٍ في البناء البحري؛ أفضل وأرقُّ ما قدمته العمارة البحرية، تتحرَّك بسلاسة وبرشاقة على سطح الماء كما لو كانت بجعة بيضاء تسبح. كانت جوانبها البيضاء كالثلج، المصبوبة جيدًا من أجود أنواع الفولاذ المضغوط، رقيقة جدًّا في سُمك الورقة تقريبًا، وكان مقتنعًا أنه حتى طلقة واحدة من مدفع صغير ستجعلها تتحطم وتسقط في قاع البحر، ويتهشم الغطاء المعدني الخاص بها مثل لوح زجاج ينكسر بسببِ حجرٍ مُلقًى بشكل جيد، وغالبًا لا يُمكن لومه على هذا الوهم؛ لأنَّ تعليمه كان مركَّزًا على هندسة التعدين، ولم تكن آلية المقصورات المُحكمة السد المانعة لدخول الهواء والماء جزءًا من منهجه. كان يعلم أنه في عُرض البحر، لا يُمكن لأي سفينة أن تتفوَّق على «ذات الرداء الأبيض»، باستثناء واحدة أو أخرى من مدمِّرات القوارب الأحدث المزوَّدة بطرابيد، والتي لم يكن من المُحتمَل مواجهتها على طول الساحل الغربي لأفريقيا، لكنه كان يعلم المنطقة التي كان يختُّه «ذات الرداء الأبيض» يتجه إليها، وقد تخيَّله بعيدًا عن الساحل بما يتراوح من ١٢ إلى ٢٤ ميلًا؛ حيث إذا اكتُشف، فسيحتاج إلى شقِّ طريقِه عبر نهر ضيِّق، محاط بأرضٍ مسطَّحة من كل جانب، بعد أن يُغادر مأوى التلال. في هذا الوضع، سيكون من المُستحيل، بسبب التواءات مجرى النهر، الاستفادة من سرعة اليخت الكاملة، وبسبب الفكرة الخاطئة أن تسديدة واحدة جيدة التصويب ستُعطله، إن لم تُغرِقه، فقد تخيَّل اليخت الجميل وطاقمه محاصرًا بلا حول ولا قوة في مكانٍ ما بين التلال والبحيرة، تحت رحمة رجال مدجَّجين بالسلاح، يائسين، في منطقةٍ لا يوجد فيها قانون، باستثناء قانون القوة: رجال لن يشعُروا بأي تردُّد في أن يمحوا من على وجه الأرض كلَّ أثر للسفينة ومَن كانوا على متنها.

ماكيلر لن يُصدِّق إذا قيل له إن المركب الصغير يمكن أن يتمَّ خرقه مثل الغربال، ويستمر طافيًا، وإنه ما لم تُدمِّر طلقةٌ طائشة قوَّته المحرِّكة، يمكنه، في غضون بضع دقائق، الخروج من نطاق أي قوة بريَّة، ما دام هناك عُمقٌ كافٍ للمياه في النهر. وكان يعتقد بشدة أنه تم تزويد الباخرة «راجا» بشكل جيد ليس فقط بالمدافع والذخيرة، ولكن أيضًا بألغام عائمة لإغلاق النهر، مما يجعل الخروج مستحيلًا. إلى هذا «الطريق المسدود» القاتل، كان اللورد ستراتلي، بطيشٍ أحزن ماكيلر، يوجِّه سفينتَه غير المحمية، المسلَّحة

بالرفاهية فقط. فلن يكون للضباط والطاقم فائدةٌ تُذكَر في القتال، والرجال الإضافيون، مهما كانت براعة حراس الطرائد ورجال الغابات الذين أحضرهم سترانلي من ممتلكاته في إطلاق النار، كانوا غير منضبطين تمامًا، وعلى الرغم من أن معظمهم كانوا بلا شك خبراء بما فيه الكفاية لاستعمال بندقية صيد، كان يشكُّ إلى حدٍّ بعيد في كفاءة استخدامهم للبنادق الدقيقة ذات مخزن الذخيرة مثل التي أرسلها على متن اليخت.

سعى ماكيلر مرةً أو مرتين خلال الجزء الأول من الرحلة، إلى أن ينقُل إلى اللورد سترانلي بعض مخاوفه، لكن الشاب النبيل كان عادة بصحبة الطبيب، أو المسئول عن التلغراف، أو أحد الضباط، ودائمًا ما كان يتجاهَل مُحاولات ماكيلر بمزحة، رافضًا مناقشة أي شيء بجدية. وبحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى ذلك الجزءِ من المياه حيث كان من المفترض أن يجتازوا الباخرة «راجا»، وفقًا لحساب ماكيلر، كانوا يُبحرون في بحرٍ خالٍ. ويومًا بعد يوم، كان ماكيلر، من مقدمة السفينة، يمسح الأفق الخالي بأقوى المناظير، لكنه لم يرَ شيئًا من الباخرة المتجوِّلة. أصبحت الرحلةُ مُملة مع طقسها الجيد. لم يحدث شيء، سواء عن طريق تعطُّل الآلات، أو حتى مواجهة عاصفة معتدلة.

أدرك اللورد سترانلي بحثَه القلِقَ بابتسامةٍ مُستمتعًا، لكنه لم يَقُل شيئًا. أخيرًا، توقَّف ماكيلر عن فحص البحر والسماء. لم يَعُد من المُمكن أن تكون الباخرة «راجا» قد قطعت المسافة التي قطعها اليخت «ذات الرداء الأبيض» بالفعل. ومع ذلك، فإنَّ تأملاته الجادة طوَّرت أخيرًا خطة، ولاعتماد تلك الخطة يجب عليه الآن أن يحثَّ رئيسه؛ لذلك عندما رأى أن سترانلي لمرة واحدة كان بمفرده، سار دون تردُّد لمؤخرة اليخت إلى النقطة التي كان رئيس البعثة يسترخي فيها على كرسي خيزران ظهره مائل للوراء، مُمدِّدًا قدمَيه وهو يرتدي شبشبًا على المسند القابل للضبط. مثل المرأة التي سُمِّيَت سفينتُه باسمها، كان يرتدي ملابس بيضاء بالكامل؛ لأن الطقس كان دافئًا، على الرغم من أن اليخت كان يتحرَّك بسرعةٍ على المياه الزيتية وشعر كل واحد على سطح السفينة بنسيمٍ مُنعِش. وضع الشاب الكتاب الذي كان يقرؤه ووجهه لأسفل على الطاولة الصغيرة بجواره، ونظر إلى الوافد وعلى وجهه تعبير ينمُّ عن التسلية.

صاح: «حسنًا، ماكيلر، هل عثرت عليها؟»

«عثرت على مَن يا سيدي؟»

«أوه، الباخرة «الراجا»، بالطبع.»

«كيف عرفتَ أنني كنتُ أبحث عنها؟»

«لقد كنتَ تبحث عن شيءٍ ما في الأيام القليلة الماضية؛ لذلك سمحتُ لنفسي بتخمين أن ذلك الشيء هو الباخرة «راجا».»

«أنت مُحقٌّ تمامًا.»

«أنا دائمًا كذلك، ماكيلر. ألم تَكتشف ذلك بعد؟ كن دائمًا على حق وستكون سعيدًا، على الرغم من أنك ستكون أيضًا مكروهًا للغاية من قِبَل أيِّ شخص آخر. ومع ذلك، لم أسعَ أبدًا إلى الشعبية، ولا أرغب في تأليف كتاب، أو الترشُّح للبرلمان؛ لذا لا يُهمُّ عدم الشعبية.»

«أنا لا أتظاهر مطلقًا بأنني على حق يا سيدي.»

«حسنًا، هذا شيء جيد. فأنا نفسي أكره التظاهر؛ ومع ذلك، من السهل أن تكون على صواب لدرجةِ أنني أتعجَّب أحيانًا من أنك لا تُمارس الفن. كلُّ ما هو ضروري هو المعرفة والذكاء.»

«أنا لا أفتقر إلى المعرفة في مجال عملي الخاص، ولم يُلمِّح أحد من قبل إلى أنني أفتقر إلى القدرة على التفكير.»

«أنا لا أُلمِّح إلى ذلك على الإطلاق، ماكيلر. فأنا مُستعدٌّ لتأكيد قدرتك على التفكير، لكنني أعتقد أحيانًا أنك لا تمارسها بشكلٍ كافٍ. على سبيل المثال، أنت تدرس الأمور في صمتٍ كئيب، في حين أن السؤال في بعض الأحيان قد يُلقي قدْرًا كبيرًا من الضوء على مشكلتك. خذ أفعالي، على سبيل المثال. هل تظنُّ أنني أتمنَّى أن يتمَّ الإبلاغ عن مكان وجود اليخت الخاص بي في أعمدة الصحف الإنجليزية المتعلِّقة بالأمور البحرية يومًا بعد يوم، مما يُعرِّضني لخطرِ أن يبدأ بعض الناس في التساؤل عما أفعله في أقصى الجنوب؟»

«بالطبع لا.»

«ممتاز. لماذا لم نلتقِ بأيٍّ من السفن الجنوب أفريقية، أو لم نتجاوَز أيًّا من السفن المتجوِّلة التي تشق طريقها إلى كيب تاون؟»

«بالتأكيد لا أدري.»

«أوه، بل تَعرف، إذا كنت تُفكِّر فقط. والسبب هو هذا: بعد أن أمضى اليخت وقتًا كافيًا تحت قيادتي، انحرف مساره من الجنوب إلى الجنوب الغربي عندما وصلنا إلى دائرة عرض ٤٠ شمالًا. تحرَّكنا بسرعةٍ وفي مرحٍ في هذا الاتجاه حتى ظهر ضوء النهار، ثم استأنفنا تقدُّمنا جنوبًا. ومررنا خارج الجزر وبعيدًا عن مسار أي باخرة قد تُبلِّغ عنا. الآن ركِّز قدرتك على التفكير على ذلك الرجل الودود الذي ركَلَك إلى الطابق السفلي. لا بدَّ

أن يظن أنه منخرط في رحلةٍ استكشافيةٍ غيرِ قانونية. هل سيَنحرِف عن مساره، في رأيك، ويُضيِّع وقتًا ثمينًا على سطح المحيط؟»

«لا، لا أعتقد ذلك.»

«بالطبع لا تَعتقِد ذلك. لأنه سيسير في خطٍّ مستقيم ليصل إلى هذا النهر الذي لا أتذكَّر اسمه. إن المسار الذي سلكناه يضعنا على بُعدِ ٢٠٠ ميل، أكثر أو أقل، من طريقه، وكما أخبروني أنه لا يُمكنك رؤية أكثر من ٣٠ ميلًا على الماء، يُمكنك الآن تخمين مدى عدم جدوى مسحك للمحيط. لم تكن لديَّ رغبةٌ في رؤية الباخرة «راجا»، لكن على أيِّ حالٍ لم أكن أرغب في أن تراني الباخرة «راجا». سنُبحر في اتجاهنا إلى أن نكون مباشرة أمام منجم الذهب الخاص بك؛ ثم الدَّوَران بزاويةٍ قائمة والتوجُّه مباشرة شرقًا هو مسارنا. يجب أن تَفعل ما أفعله أنا، ماكيلر، وأن تقرأ للكاتب البحري الذي لا يُضاهى، دبليو كلارك راسل، حينها ستبدأ في فهمِ ما أنت بصددِه. سيَدفعُك للقيام بجميع حِيَل المهنة. إنني أقرأ بتمعُّن أحدَ كتبه الآن، وهو ما يُفسِّر الخدع التي أقوم بها في البحر. هل سبق لك أن قرأت أيًّا من رواياته؟»

«لا، لم أفعل.»

«جيد جدًّا، إذن ابدأ برواية «حطام جروسفينور». لدينا جميع أعماله على متن اليخت، وسرعان ما ستعرف ما يجب فعله مع التمرُّد، وكيف تتصرف عندما تجد نفسك على جزيرة مهجورة، والتصرُّف المناسب اعتماده لمواجهة إعصار حلزوني، وماذا تقول عندما تكون بمفردك مع فتاةٍ لطيفةٍ وسط حطام سفينة. بالطبع أنا أعترف بأن دبليو دبليو جيكوبز ممتاز، وأنه ينشر أكثر الكتب التعليمية إثارة للإعجاب عن الملاحة، لكنه جيد فقط لما هو تحت الجسر، كما قد تقول؛ أي للأنهار والمياه الأخرى داخل البلاد، وربما جزء من الساحل. وعندما تبدأ بالإعجاب بملاحة أعماق البحار، فعليك بكلارك راسل، يا بُني. خذ النصيحة من بحَّار خبير ملطَّخ بالقطران مثلي، واقرأ لكلارك راسل. لا تَنخدِع بملابسي البيضاء؛ فأنا بحَّار من رأسي حتى أخمص قدمي، وبطني مُمتلئ باللحم الملَّح؛ لأنني أنهيت ثلاثة أرباع كتابه الأخير.»

«أظن أنه سيكون من غير المُجدي بالنسبة إليَّ أن أقول، يا سيدي، إنَّني أعتقد أنك وقعت في فخ؟»

«أوه، جدًّا. شر هذا اليوم يكفينا. أنت تشير، بالطبع، إلى كونِنا مُحاصَرين في ذلك النهر الذي لا يُمكنني نطقُ اسمه، وعادةً يجب أن أُعطيَ بعض الاهتمام لهذه المسألة،

لكن لا يُمكنني الآن؛ لأنَّني في مُنتصَف الفصل الأكثر إثارة في هذا الكتاب الأكثر إثارة. وبمجرد دخولنا الفخ، ماكيلر، سنَدرُس بناءه ونجد مخرجًا. يبدو لي أن هناك القليل من الاستخدام العملي في دراسة فخٍّ وهمي قد لا يكون موجودًا عند وصولنا. وهذا يُؤدِّي إلى خيبة أمل. دعنا أولًا ندخل في الفخ إذا استطعنا؛ ثم إذا لم يكن هناك مخرج، فسوف نواسي أنفسنا من خلال معرفة أن هناك الكثير من المؤن والكتب التي يُمكن قراءتها على متن اليخت. وإذا ازدادت الأمور سوءًا، فسنعمل على تشغيل التلغراف اللاسلكي لدينا حتى نَلتقِط سفينةً مجهَّزة بتلغرافٍ لا سلكي أيضًا، ومن ثمَّ نتواصَل مع كلارك راسل، ونُخبِره بموقعنا، ونسأله عما يجب فعله. أراهنك بخمسة جنيهات أنه سيرسل حلًّا للمشكلة.»

ضغط ماكيلر على شفتَيه، وخرج غاضبًا دون أن ينبس ببنت شفة.

قال سترانلي ضاحكًا: «حسنًا، افعل ما تُريد. جرِّب جيكوبز إذا كنت ترغب في ذلك، لكنني أعتمد على راسل»، وبتلك الملاحظة الفاصلة استأنَفَ اللورد قراءته.

عقد ماكيلر العزم على عدم القيام بأيِّ مُحاوَلةٍ أخرى لغرس التفكير السليم في رأسٍ فارغ، كما أنه لم يبدأ بالقراءة لمؤلِّفي المياه العذبة أو المياه المالحة. وكرَّس الوقت المُتبقِّي له في دراسة بعض الأعمال العِلمية التي اكتشفها في المكتبة.

ذات ليلة استيقظ فجأة. وكان القارب ثابتًا على نحوٍ غريب. أيقَظَه توقُّف أزيز التوربينات المُتواصِل الهادئ على الفور. وتوجَّه إلى السطح. كانت الباخِرة تَتمايل برفقٍ على أمواج البحر. ومن الشرق أتَت خرخرةٌ هادئة لصوت ارتطام الأمواج بالشاطئ، التي بدَت وكأنَّها شلَّال بعيد. وكان يُمكن تمييز الخطوط العريضة القاتمة للتلال المُظلِمة مقابل السماء الأقل ظلمة، وكان هذا كلَّ ما استطاع أن يراه. سار ماكيلر على سطح السفينة ذَهابًا وإيابًا حتى ضوء النهار، عندما تحرَّكت الباخرة مرةً أخرى، واقتربت بحذر من الشاطئ. كان أحد قوارب السفينة يتأرجَح في الماء، وبتوجيهٍ من ماكيلر تم قياس عُمقِ القناة، واليخت يزحف من ورائهم، حتى دخل النهر أخيرًا. وبحُلول الساعة التاسعة صباحًا، كان يرسو بجانب حقول الذهب. بعد بضع دقائق، ظهر اللورد ستراني على ظهر المركب، مُتأنِّقًا جدًّا، بعينَين برَّاقتَين، ومُنتعشًا كشابٍّ لم تَضطرب راحته ليلًا. لم يُعرب عن استغرابه من رؤية موقع الباخرة الخاصة به، لكنه أشار فقط إلى قبطانه:

«كانت هذه محاولة جيدة، أيها القبطان، بالنظر إلى حجم الهدف والمسافة. متى رأيت الساحل؟»

«عند أربعة أجراس يا سيدي.»

«هل احتجت إلى الإبحار لأعلى ولأسفل للعثور على المكان؟»

«لا يا سيدي.»

«انظر إلى ذلك الآن، ومع ذلك يعتقِد ماكيلر أننا سنكون مُحاصَرين.»

بعد الإفطار، أصدر اللورد سترانلي أوامره بأن الباخرة يجب أن تتقدَّم إلى أبعدِ نقطةٍ فوق منبع النهر، أينما كانت؛ لذا انطلقوا، وبدءوا في الاستكشاف. واكتشفوا أن المجرى الذي كانوا يُبحرون فيه كان مجرد تفريعة، وليس النهر الرئيسي، كما ظنَّ ماكيلر. على بُعد حوالي ميل واحد فوق المناجم، بدأت الأرض تظهر، وكانت كلتا الضفتين مغطاةً بغابات رائعة. عند وصولهم إلى رأس الدلتا، وجدوا أن النهر نفسه يتجه شمالًا مباشرة، في حين أن تفريعةً مشابهةً لتلك التي تمر عبر حقول الذهب تنطلق عبر الغابة إلى الجنوب الغربي. كانت التفريعة الجنوبية الغربية هي الأصغر بين المجاري الثلاثة؛ لذلك لم يشغلوا أنفسهم بها، بل تحرَّكوا باتجاه النهر الرئيسي حتى وصلوا إلى ممرٍّ ضيق بين التلال باتجاه الغرب يطلُّ على سلسلة الجبال ناحية الشرق.

قال سترانلي: «سيكون هذا مكان التخييم، كما أتخيَّل.» «سنعود إليه، لكنَّني أرغب أولًا في فحص القناة عند مصب النهر.»

اكتشفوا، وهو ما أدهش ماكيلر، أنَّ التيار يتدفَّق حتى الآن إلى الشمال لدرجةِ أنه عندما تحوَّل أخيرًا إلى الغرب، أصبح بمَقدور الباخِرة أن تصل إلى المحيط دون أيِّ احتمال لرؤيتها من منطقة الذهب. ضحك سترانلي عندما تم توضيح هذه الحقيقة، وربَّت على كتفي ماكيلر.

وصاح: «أين فخُّك الآن، يا بني؟ كنتَ ستوفِّر على نفسك بعض القلق إذا كنتَ تعلم أن الموقع كان هكذا.»

قال ماكيلر: «مع ذلك، إذا اكتشفوا هذه القناة فقد يملئونها بألغامٍ عائمة.»

«إذن قد يكونون عند مصبِّ نهر التايمز، لكنَّهم ليسوا كذلك. المهندس يجب أن يلتزم بالاحتمالات، بيتر. الآن سنعود، ونبحث عن وادينا المُنعزل، الراسخ على الضفة الشرقية، حتى إذا اكتشفَنا خصومُنا، كما تقول الأغنية، سيكون عليهم عبور نهر آخر.»

وصلوا إلى الوادي في المساء، وتذمَّر اللورد سترانلي من يومِ عملٍ شاقٍّ تمَّ إنجازه بنزاهة، مع استحقاق العشاء المُرتقَب عن جدارة، على الرغم من أن مجهوداته كانت تتكوَّن أساسًا من الجلوس على كرسيٍّ بذراعين في المقدمة، وقدميه على الحاجز.

في صباح اليوم التالي، عبر النهرَ مع ماكيلر ومجموعة من رجال الغابات، بعضهم يحمل فئوسًا، وأحدهم يحمل تلسكوبًا ضخمًا بالحامل الخاصِّ به، وآخر يحمل خيمةً صغيرة. في الجزء العلوي، قام رجال الغابات بإزالة الشُّجَيرات المُتداخلة بحيث يُمكن رؤية حقول الذهب البعيدة. ووُضع حامل التلسكوب على الصخرة، ونُصبَت الخيمة فوقه. حدَّق ستراني، وهو يضبط التركيز، في حقول الذهب، ثم فرك يديه بارتياح.

وقال: «يا إلهي، يُمكننا أن نرى أفكارهم العميقة بهذا.»

عندما نزلوا، أرسل ستراني مجموعةً أخرى إلى القمة، واحدًا مُحمَّلًا بجهاز تلغراف لاسلكي طُلب من المسئول عنه تشغيله.

قال اللورد: «إذا نجح هذا فسوف يوفِّر لنا سلك هاتف.»

وكان الباقون محمَّلين بالمؤن.

قال: «ماكيلر، لقد قمت بتعيينك في المراقبة، وسيكون رفيقك مشغِّل التلغراف الثاني لدينا. لا يعرف المرء أبدًا ما قد يحدث في هذه المنطقة؛ لذلك إذا اضطُرَّت باخرتنا إلى أن تلوذ بالفِرار، يمكنكما الاختباء في القمة، ومعكما جميع الأشياء مع الحرص على إخفائها جيدًا، ومع ذلك، ابقَيا على اتصال معنا ما دمنا في نطاقِ أربعة أميال، أو أيًّا كان الحد الأقصى للتلغراف اللاسلكي. لقد لاحظت ينبوعًا صغيرًا في منتصف الطريق تقريبًا إلى الغابة، سيزودك ذلك بمصدرٍ للماء أقربَ من النهر، وأنا أنصحك أنها أفضل لك من الشمبانيا، على الرغم من أنني قد أرسلت الكثير منها. والآن، لكي أريكَ كم أنا اقتصادي، ومن ثمَّ أوجِّه نداء إلى قلبك الاسكتلندي، سأرسل الحطَّابين إلى الغابة معك، بينما هنا لن نَحرق شيئًا سوى الخشب الصلب، ونوفر الفحم. في الواقع، لقد تشاورت مع كبير المهندسين، وبموافقته سأقوم بملء مستودع السفينة بالأخشاب الأكثر قابلية للاحتراق التي يُمكنُني العثور عليها. فأنا غير مُهتم بقمة الجبل حتى يتم رصد الباخرة «راجا»، لكن بينَما يملأ الحطَّابون، بفئوسهم ومناشيرهم، المستودعات، سأذهب إلى موضعِ حفظِ الطعام بمعدات الصيد والبندقية، وهنا تأتي وظيفة حراس الطرائد والتي سيَتقاضون عليها أجورهم.»

كانت الطرائد وفيرة، وتمَّ صيد العديد من الأسماك الرائعة.

«أوه!» صاح ستراني، في إحدى الليالي بعد عشاء جيد بشكلٍ استثنائي على الأسماك والطرائد. «بيكاديللي مكان أحمق مقارنة بهذا. إذا كانت الترتيبات البريدية أفضل قليلًا، فسنَكون بخير. يجب أن أبعث برسالةٍ إلى صحيفة «التايمز» حول إهمال حكومتنا، وأن

أنتقدَ المدير العام للبريد، كما يفعل جميع المُراسِلين أصحاب المبادئ القويمة. لقد نسيت تقريبًا كيف يبدو ساعي البريد، لكنَّني أتوقَّع أنه عندما نجعل التلغراف اللاسلكي الخاص بنا يعمل، سنكون قادرين على إعطاء بعض التلميحات لسنيور ماركوني عندما نعود.»

تأخَّرت الباخرة «راجا» ثلاثة أيام، وفقًا لحسابات ماكيلر، ولكن في صباح أحد الأيام، تعرَّف عليها ماكيلر وهي توقف ببُطء تيار نهر باراماكابو، وفي الحال تمَّ إرسال المعلومات تلغرافيًّا إلى ستراني، الذي لم يتلقَّ الرسالة؛ لأنه كان بالخارج يصطاد. كان الشاب قد أخذ غداءه معه؛ لذلك أبلغ مُشغِّل التلغراف على السفينة البخارية أولئك الموجودين عاليًا، ولم يعرف أحدٌ متى سيعود.

شاهد ماكيلر، وعينُه ملتصقة بالتلسكوب، هبوط الجيش الذي كانت تحمله «الراجا»، ورأى الرافعتَين البخاريتَين، واحدة بالمقدمة والأخرى في الخلف، تنقلان على الفور الحمولة من المخزن إلى الشاطئ. توقَّع وصول رئيسه في أي لحظة، ولكن جاءت ساعة العشاء، ولم يحضر أي زائر إلى قمة التل. نزل ماكيلر والعامل، وهناك لدهشتِه رأى ستراني جالسًا على ظهر السفينة، يقرأ بهدوء رواية، وينتظر صوت الجرس.

سأل ماكيلر: «ألم تَصلك رسالتنا؟»

«أوه، نعم، من ساعتين. لقد وصلت «الراجا»، أليس كذلك؟ هذا مثير جدًّا للاهتمام. ستسعد، يا ماكيلر، بمعرفة أنني حظيت بأنجح يوم في الصيد.»

أجاب ماكيلر بجفاف: «نعم، هذا مثير للاهتمام للغاية، كما لاحظت. اعتقدت أنكَ إذا تلقيت رسالتي في الوقت المناسب، فستصعد إلى المراقبة.»

«أنا آسفٌ لأنني أصبتك بخيبةِ أمل يا بيتر، لكن عندما أضع رجلًا ممتازًا في موقعٍ ما، لا أتدخل معه أبدًا. لا حاجة لي تمامًا على قمَّة التل، والوضع مريح أكثر بكثير هنا.»

«ربما تفاجأت بمعرفة عدد الرجال الذين هبطوا من الباخرة «راجا». هم يكفون، حسب تقديري، للقضاء علينا في وقتٍ قصير إذا عثروا علينا.»

«حسنًا، دعنا نأمُل ألا يعثروا علينا يا بيتر.»

«لقد نصبوا عددًا من الخيام بالفعل، وبدءوا عمليات التفجير في الساعة الواحدة.»

«إنهم لا يُضيِّعون أي وقت، أليس كذلك؟»

«لا، بالتأكيد. أرى أنهم جهَّزوا كشافات كهربائية على الصاريتَين، على ما يبدو لتغطية مجال العمليات؛ لذلك أظن أنهم سيعملون ليلًا ونهارًا.»

قال اللورد بإعجاب: «أنا أحبُّ الرجال النَّشِيطين. لو كان هناك قطار معلَّق يصل إلى أعلى التل، لكنت أخذت كرسيًّا بذراعين لمجرد الاستمتاع بالجلوس ومشاهدتهم. آه،

ها هو ذا جرس العشاء، الحمد لله. بيتر، لقد اصطدتُ بعض الطيور اليوم والتي أعتقد أنك ستَستمتِع بها.»

«شكرًا لك، لكن كل ما أريد هو شطيرة. وسأعود إلى المراقبة. لم نَفتح صناديق المؤن بعد. يجب أن أعلم ما إذا كان هؤلاء الأشخاص سيعملون بالفعل طوال الليل.»

«خذ بنصيحتي يا بيتر ولا تفعل. استمتع بفترة راحة جيدة في سريرك المريح. أولئك الذين ينامون جيدًا يعيشون طويلًا.»

قال بيتر: «سأعود.»

«آه، أرى ما تُحاول القيام به. ستجبرني على منحك أجرًا لنوبتَي الليل والنهار معًا، أو ربما تتوق لتقليد طاقة هؤلاء الأشخاص على صخرة الذهب. الآن اقتنع، من أجلي، بتناول عشاء جيد عندما يكون كل شيء جاهزًا لك. ضع الشطائر في جيبك، إذا كنت ترغب في ذلك، لقضمها أثناء مراقبتك بالليل، إذا كنت ستَستمرُّ في تسلق ذلك التل الشديد الانحدار.»

هز ماكيلر رأسه.

«أناشدك أن تقتنع، يا بيتر؛ لأنك إذا لم تَخضَع للإجراءات اللطيفة، فسوف آمرك، وبعد ذلك إذا رفضت، فسأُقيِّدُك بالأصفاد. لن أتنزَّه طوال اليوم في أفريقيا نيابةً عنك، وبعد ذلك يتم تجاهل ما اصطدتُه عندما أعود. سأُقدِّم تنازلًا واحدًا: لا تقلق الليلة بشأن ملابسك المسائية. ولا تخجل من روعة رفقائك على المائدة، بل كرِّس انتباهك إلى العشاء، الذي أتمنَّى أن ينول إعجابك، وسأطلب من المضيِّف أن يُحضر لك بعضًا من الشطائر اللذيذة.»

لذلك اضطر ماكيلر، كونه موظفًا مستأجرًا، إلى الامتثال. على رأس المائدة في ذلك المساء، أبدى اللورد سترانلي رأيه ببلاغة عن الأذى القادم من العمل.

قال: «أنا لا أتفق مع صديقي، الرئيس روزفلت، فيما يتعلَّق بالحياة الشاقة. فإنه يتغاضى تمامًا عن حقيقة أن العمل وُضع على هذه الأرض باعتباره لعنة، والآن يتظاهر العديد من الأشخاص غير المفكرين باعتباره نعمة. يُذكِّرُني روزفلت بشيء من ماكيلر هنا، باستثناء أنه أكثر لطفًا، ولديه حسُّ دعابة أكبر. وماكيلر في الواقع، مدفوعًا بدعوات الواجب، وبمساعدة عضلةٍ تُغذِّيها العصيدة، سوف يتسلق الليلة قمة التلِّ هذه، بينما نلعب الورق. وهذا سيَمنحه شعورًا بالتفوق علينا ولن يتمكَّن غدًا من إخفائه. أنا أتعاطف دائمًا مع أولئك الأشخاص الذين قضوا على أريستيدس الملقَّب بالعادل.»

ظلَّ ماكيلر صامتًا طَوال كل هذا الهزل، لكنه مع ذلك استمتع بعشائه، على الرغم من أنه في اللحظة التي تمَّ فيها تقديم القهوة وتجهيز طاولة الورق، جدَّف إلى الجهة الأخرى من النهر، وربط قاربه بأمان، وصعد عبر ظلام الغابة ليرى المصابيح الكهربائية المضاءة فوق منجم الذهب عندما وصل إلى القمة.

على الرغم من لا مبالاة اللورد سترانلي الواضحة، ظهر على القمة بعد الإفطار بوقت قصير. ووجد ماكيلر مُمدَّدًا على الصخرة، ويبدو نائمًا، فلم يُزعجه، لكنه حوَّل انتباهه بدلًا من ذلك إلى التلسكوب، الذي رأى من خلاله ما يكفي من العمل الشاق الذي سيرضي أكثر الناس كسلًا. أدار التلسكوب في كل اتجاه، وفي النهاية ثبَّته في نقطةٍ تغطي النهر أسفل المنجم. هناك حدَّق بهدوء لفترة طويلة، حتى قاطعه ماكيلر مُستيقظًا من نومه، معربًا عن تعجبه من رؤية رئيسه جالسًا على جذع شجرة مقطوع يحلُّ محلَّ الكرسي.

«صباح الخير، بيتر. أخبرني بشأن الليلة، أيها المراقب.»

«لقد عملوا طوال الليل، سيدي، سواء في تفجير المعدن أو تفريغ السفينة.»

«إذن هذا يعني أننا سنحتاج قريبًا إلى أن نتحرك مرة أخرى. إذا قاموا بتحميل الباخرة «راجا» بالسرعة التي قاموا بتفريغها، فستَخرُج في المحيط قبل أن نعرف أين نحن.»

«لهذا السبب أتيت الليلة الماضية، سيدي. اعتقدت أنك لم تُدرِك تمامًا مدى السرعة التي تقترب بها زيارتنا هنا من النهاية.»

رد سترانلي بتكاسُل: «ومع ذلك، يبدو أن ما يفعلونه الآن يُشير إلى إقامةٍ مطوَّلة من جانب الباخرة «راجا».»

سأل ماكيلر: «ماذا يفعلون الآن؟»

«إنهم يزرعون ألغامًا عائمة في النهر على بُعد حوالي نصف ميل تحت حقول الذهب. لقد أنهوا للتوِّ صفًّا واحدًا يمرُّ بوضوحٍ عبر مجرى النهر، ويعملون على السلسلة الثانية على بُعد ربع ميل، وفقًا لتقديري للمسافة، بالقرب من المحيط. يستخدمون قاربين عاديين، وزورقًا بخاريًّا واحدًا. النهر مُغلَق، وهناك إعلان فعليٌّ للحرب يا بني، وماكيلر يبدو نائمًا.»

الفصل الخامس

دعوة للغداء

قفز ماكيلر على قدمَيه، وقد أصبح مُستيقظًا تمامًا، وحدَّق عبر التلسكوب. وصاح منتصرًا: «كما ترى، كنتُ على حق بعد كل شيء!»

«نعم، لقد كنت محقًّا في جانب ومخطئًا في جانبٍ آخر. أعترف أنني لم أومن باللغم العائم، لأنه ليس سلعةً يُمكنك شراؤها من كل تاجر حديد؛ لكنك كنت مخطئًا في توقُّع أنهم سيتركون قناة للباخرة «راجا» لتخرج منها: لقد أغلقوا النهر تمامًا. بالطبع هذه ميزة. فعندما يحين وقت مغادرة الباخرة «راجا»، سيتم التقاط تلك الألغام وإحضارها إلى الشاطئ؛ لذلك، من خلال مراقبة حقل الألغام على النهر، سنتلقَّى إشعارًا برحيل الباخرة «راجا».»

«وهل تنوي اللَّحاق بها عندما يتم إزالة الألغام؟»

«يا إلهي، لا. سنَرحل من القناة الرئيسية.»

«إذن لن تفعل شيئًا حيال وكر المتفجرات هذا؟»

«وماذا عسانا أن نفعل؟ لو كنا يابانيِّين، ومُستهترين بالحياة البشرية، فربما تسللنا إلى هناك وجعلنا الألغامَ تطفو على الماء؛ لكن هذا سيكون عملًا خطيرًا، وإذا خرج واحد أو أكثر إلى المحيط، فقد نجد أنفسنا مسئولين فعليًّا عن تدمير إحدى سفن الركَّاب في كيب تاون.» واصل اللورد على نحوٍ حالم، مُمدِّدًا جسده بأقصى حد في المكان الذي هجره ماكيلر: «ولكن مع كل ذلك، ما فائدة هذا الذهب؟ لا يُمكنك الاستمتاع به، إلا في لندن أو باريس، أو ما يُسمى بمركز حضارة. لقد رأيت للتو كيف يُحوِّل البشر الذين يبحثون عنه إلى وحوش، عندما يستعدون بدم بارد لإبادة رفاقهم من المخلوقات.»

«لكنك عرفتَ كل ذلك، سيدي، قبل أن تُغادر إنجلترا.»

«صحيح، صحيح، هكذا فعلت؛ لكن هنا تركت الحقيقة انطباعًا أكبرَ في ذهني. وتوصَّلت إلى نظرية. أعتقد أن هذه البقعة هي جنة عدن. فالتربة والمناخ يُساعدان على نمو أي شيء. ويُمكنُك الاستمتاع بأي درجة حرارة تريدها ببساطةٍ عن طريق الصعود أعلى وأعلى في التلال؛ فكلما صعدت لأعلى، انخفضت درجة الحرارة. هناك الكثير من الأخشاب من جميع الأنواع، وقد اكتشفتُ بالأمس شلالًا جميلًا من شأنه أن يمنحنا ما يكفي من الكهرباء لتزويد مدينة بالطاقة؛ لذلك أعتزم إنشاء مدينة فاضلة حديثة، واخترتُ مكانًا سنَبدأ منه اليوم في إخلاء الغابة وبناء أكواخ من الخشب. ستقع نواة مُستعمرتنا على رأس الدلتا بجانب المجرى الذي يمرُّ بحقل الذهب ويتدفَّق مباشَرة إلى المحيط. وسأنقُل الباخرة إلى هناك، ومن ثمَّ ستُترك وحيدًا يا بيتر؛ لأنني أصرُّ على مراقبتك لأعدائنا المحتمَلين من هذه البقعة، والإبلاغ عما يفعلونه بالتلغراف اللاسلكي.»

«إذن أنت تنوي التخلي عن منطقة التعدين هذه دون مقاومة؟»

«أوه، أنا أكره المقاومة. ولا أرغب في إهدار هذا المناخ المثالي في المقاومة. دعنا نكن سعداء عندما تكون هناك فرصة للسعادة.»

استلقى الشاب هناك ويداه مشبوكتان خلف رأسه، ورفع بصره إلى ماكيلر الحائر متسائلًا بعينين نصف مغمضتين:

«بالمناسبة، ماكيلر، هناك شيء يطفو على صفحة النهر بالقرب من اليخت من شأنه أن يُثير اهتمامك. هل أخبرتك أنني أحضرت معي قاربًا صغيرًا مُميَّزًا بمحرك من «ثورنيكروفت»، وهو بالفعل مصفَّح ومضاد للرصاص؟ يمكننا استخدامه لزيارة المنجم، والعودة، ونتركهم يُطلقون الرصاص علينا، ونحن ممدَّدون على سطحه محميون بجوانبه المصفحة. لا يمكن إصابة أحد، إلا إذا كان مطلق النار على قمَّة برج كنيسة. أعتقد أنني سأزور معسكر التعدين.»

«أنصحك بشدة يا سيدي ألا تفعل شيئًا من هذا القبيل.»

«أوه، حسنًا، لن أفعل، لكن هذا القارب الصغير سيكون مفيدًا لزيارتك. إنه وحش صغير رشيق، وأكثر فاعلية على هذه المياه من قارب التجديف.»

«هل أنت جادٌّ بشأن تلك المدينة الفاضلة، سيدي؟»

«بالتأكيد، وهذا يُذكِّرني أنه يجب أن أبدأ.»

نهض، وتمطَّى بتكاسل، وأومأ برأسه مودعًا ماكيلر، ومضى في طريقه على مهلٍ أسفلَ التل.

تلقَّى الحطَّابون على متن اليخت المسمَّى «ذات الرداء الأبيض» الإعلان عن المدينة الفاضلة الجديدة بروحٍ مختلفة تمامًا عن روح ماكيلر، لكنهم بالطبع لم يعرفوا شيئًا عن الذهب الذي كان سبب الرحلة البحرية. انطلق اليخت إلى جانب الهضبة التي اختارها سترانلي كموقع لقريته الأولى، وامتلأ الهواء في الوقت الراهن بصوتِ تحطُّم الأشجار المتساقطة، مع صوت رنين الفأس، وزمجرة المنشار. كان حرَّاس الطرائد والطاقم جاهزين للعمل، مع الاستعانة بأولئك الذين لم يتمكَّنوا من تقطيع الخشب في استخدام المنشار اليدوي، أو دحرجة جذوع الأشجار إلى ضفة النهر؛ حيث أمر سترانلي بتكديسها.

احتل ماكيلر ومسئول التلغراف مكانهما الوحيد ليلَ نهار، وأرسلا تقاريرَ عن التقدُّم المحرَز. أخيرًا، أعلن ماكيلر أن تحميل الخام قد وصل إلى حدٍّ أن علامة الحمولة القصوى على جانب الباخرة «راجا» كانت مغمورة بالفعل، وأضاف ماكيلر أن هذا من شأنه أن يُظهِر أن الباخرة لم تكن تنوي الإبحار إلى إنجلترا. في غضون نصف ساعة من تسلُّم هذه الرسالة، أحضر القارب الصغير السريع ذو المحرك سترانلي والطبيب إلى سفح تلِّ المراقبة، ووصل الاثنان الآن إلى القمة في وقت قصير.

قال سترانلي: «ماكيلر، أدرِ التلسكوب الخاص بك باتجاه منبع النهر إلى أول جزء من الماء الصافي الذي تراه.»

بينما كان ماكيلر يفعل ذلك، التفت الرئيس إلى مشغِّل التلغراف وقال:

«أرسِل رسالةً إلى زميلك بهذه الكلمات: «دعهم يأتون جميعًا».» وتابع: «اطلب منه أن يُكرِّرها ليبيِّن أنه قد فهم.»

سأل ماكيلر، واضعًا تفسيره الخاص على عبارة التحدِّي المألوفة: «هل تتوقَّع هجومًا؟»

أجاب سترانلي: «نوع من الهجوم. راقب سطح تلك المياه، وأخبرني بما تراه.»

صرخ ماكيلر: «أوه! يبدو أن هناك طوفًا ينزل.»

«لا، إنها جذوع أشجار مُنفصلة. لقد فهموا إشارتنا، أيها الطبيب، وتصرَّفوا على الفور. الآن، ماكيلر، أدرْ عدستك باتجاه الألغام العائمة، واترك مكانك للطبيب. لقد وعدته بإلقاء النظرة الأولى. كم عدد الألغام التي زرعوها، ماكيلر؟»

«لا أعرف يا سيدي.»

«آه، نعم أتذكَّر؛ كنت نائمًا في موقعك. حسنًا، يُسعدني أن أبلغكم أن الرقم الذي رأيته في النهر كان بالضبط ٢٧. الآن، أيها المسئول عن التلغراف، قف هنا وقم بعملٍ مفيد. إذا حدثت انفجارات، فلا يتحدَّث أحد، ولكن يجب على كل واحد أن يحسب عدد اندفاعات المياه التي يراها، ثم سنقارن الملاحظات في نهاية الوابل.»

هتف الطبيب وعيناه ملتصقتان بالمنظار: «يا للعجب!»

صعد عمود طويل من الماء، أبيض كالثلج، في الهواء، وتوقَّف مؤقتًا، وتحطَّم مثل صاروخ جوي، وهبط في شكل مطرٍ ضبابي، حملته الرياح ونفخته على سطح الماء. ثم انطلق ثلاثة آخرون في الهواء كما لو كانوا في مُسابقة. جاء صوتٌ مثل رعد بعيد عبر الدلتا، والآن يبدو أن أحد الألغام فجَّر آخر، أو أن جذوع الأشجار كانت أثخن مما كان متوقعًا؛ لأن جدارًا من الماء ارتفع من سطح النهر، ممتدًّا من الشاطئ إلى الشاطئ الآخر، مع وجود حطام هنا وهناك، وبدلًا من القعقعة، سمع الرجال الأربعة على الجبل قصفًا رعديًّا حادًّا. جعل هذا الأمر العد مستحيلًا. لبضع لحظات لم يحدُث أي شيء آخر، ثم انفجر خط الألغام على بُعد ربع ميل من النهر عمليًّا في وقت واحد، مما شكَّل على الفور لفترة وجيزة شلالًا من شلالات نياجرا في السماء.

قال ستراتلي بهدوء وهو يُعلِّق فوق كتفه مرةً أخرى المنظار الذي كان يستخدمه: «أعتقد أننا تمكَّنا منهم. أدرِ التلسكوب الخاص بك إلى البرِّ مرةً أخرى، أيها الطبيب، وشاهد هؤلاء الأشخاص الهزليين يتعثَّرون بعضهم فوق بعض في عجلةٍ من أمرهم لمعرفةِ ما حدث. إنهم يُشبِهون عش النمل المضطرب.»

سأل ماكيلر: «ماذا فعلت باليخت؟ إذا رأى أيٌّ من هؤلاء الأشخاص جذوع الأشجار المنشورة تطفو على النهر، فسيكون هناك تحقيق سريع للغاية لاكتشاف مَن قام بنشر تلك الجذوع.»

«هذا صحيح، ماكيلر. لذلك أخذت اليخت عبر النهر بعيدًا عن الطلق الناري، أو بعيدًا عن أنظار مدينتنا الفاضلة المهجورة. إذا أتوا عن طريق البرِّ فلن يتمكَّنوا من الوصول إليه.»

قال الطبيب: «لن يأتوا برًّا. يتمُّ تجهيز الزورق البخاري، ويقف ثلاثة رجال على حافة الصخرة يستعدون للصعود على متنه، كما أتخيَّل. وهم مسلحون بالبنادق أيضًا.»

قال ستراتلي: «فقط انظر من خلال التلسكوب، ماكيلر، وأخبرني إذا كنت تعرف الرجال الثلاثة.»

«نعم؛ هناك المدير الطويل القامة، مع قبطان الباخرة «راجا» بجانبه، والضابط الأول بالجانب الآخر.»

قال ستراتلي مُصحِّحًا: «لا تقل الضابط الأول، بيتر. يقول كلارك راسل إنه لا يوجد شيء اسمه ضابط أول. إنه مجرد ضابط؛ ومن ثم لديك ضابط ثانٍ وثالث، ولا أعرف

عددهم. حسنًا، أيها الطبيب، دعنا ننطلق ونَلتقي بهم في القارب ذي المحرك. نحن حطَّابون أبرياء، نبحث عن الأخشاب التي سقطت من الضفة، تذكَّر.»

احتجَّ ماكيلر قائلًا: «أنت بالتأكيد لن تذهب إلى هناك.»

«يا إلهي، بالطبع. سنُخبرهم بقصتنا قبل حتى أن يبدءوا في طرح الأسئلة.»

«لكنَّك أعزل.»

«تمامًا.»

«وهم يمتلكون بنادق.»

«هكذا يبدو الأمر.»

«إذن من التهور أن تَلتقيَ بهم دون أن يرافقك عددٌ متساوٍ من الرجال المسلحين لحمايتك، على الأقل. يجب أن آخذ كلَّ ما سيحمله القارب ذو المحرك.»

«أعلم أنك ستفعل ذلك يا بيتر، ولكن، كما قلت كثيرًا، أنت شخص مُتعطِّش للدماء. يمكننا أن نختبئ خلف الجوانب مُستلقِين على وجوهنا، قبل أن يتمكَّن أيٌّ واحد من الثلاثة من إطلاق النار؛ ثم في هذا الوضع الراقد سأشرح لهم بقدْر ما أستطيع أن القارب ذا المحرِّك «ثورنيكروفت» يمتلك مقدمة غواصة فعَّالة مثل تلك الخاصة بسفينة حربية، وإذا لم يرغبوا في صدم زورقهم البخاري وإغراقه، فمن الأفضل إلقاء بنادقهم على السطح. وسأُصرُّ على أن مَن يتحدَّث معي سوف يتحدَّث كرجل نبيل إلى آخر. وسأقول لهم إنني عضو في مؤتمر السلام في لاهاي. هيا بنا أيها الطبيب. سوف ندعو هؤلاء الأشخاص إلى الغداء، ونُبهجهم بأفضل أنواع النبيذ والسيجار التي يمكن الحصول عليها في أفريقيا»، وبهذا غادر سترانلي والطبيب إلى القارب ذي المحرِّك المُنتظِر.

جثم قائد القارب الصغير ذي المحرِّك على عجلته، التي كانت تُشبه إلى حدٍّ ما تلك الخاصة بالسيارة؛ حيث انطلق القارب السريع في النهر حتى وصل إلى التفريعة التي تؤدي إلى المنجم، ثم انطلق بأقصى سرعة في هذا الممر المائي. كان سترانلي والطبيب واقفَين، وعند الالتفاف حول أحد المُنحنيات رأيا الزورق البخاري يهتزُّ بصعوبة نحوهما عكس التيار.

قال سترانلي: «أوقف المحرِّك. أدرْ مقدمة الزورق، واقترب بمحاذاته لتكون على مسافة حوالي ٢٠ قدمًا، ثم اضبط سرعته لتُلائم سرعة الزورق.»

بدا أن المدير، والقبطان، والضابط، الذين كانوا واقفين جميعًا، قد أصيبوا بالشلل المصحوب بالدهشة لرؤية مثل هذا القارب السريع في مثل هذه المنطقة.

لم يتحركوا لرفع بنادقهم، أو حتى لتحية الوافد. مرَّ بهم القارب ذو المحرِّك مثل بطة برية، دون سماع صوت الآلات أو رؤية البخار، يدور برشاقة، ويقترب بمحاذاتهم بدقة خفيفة كان من المفترض أن تثير إعجابَ بحَّارٍ خبير مثل قبطان الباخرة «راجا».



أصاب الذعر الرجال الثلاثة.

لكن أصاب الذعر الرجال الثلاثة. تحوَّل وجه القبطان المتوهِّج المتأثر بالعوامل الجوية إلى أرجواني مرقَّش؛ وفتح فمه، ووقف هناك مُحدِّقًا، والخوف في عينيه المنتفختَين.

أوحى على الفور مظهر سمو اللورد سترانلي غير القلق، وقامته المنتصبة، وملابسه البيضاء، من وجهة نظره الخبيرة، أنه ضابط في البحرية البريطانية. وقد زاد هذا الخطأ من خلال القبعة المَجدولة الذهبية الأنيقة التي كان يرتديها الطبيب؛ لكن سلوك الرجلَين بالملابس البيضاء لم يكن مقلقًا مثل سلوك القارب نفسه ومظهره. فقد تمَّ التعامل معه بمهارة عالية، وجاء إلى جانبهم بتلك الطريقة الوقحة الصفيقة لضباط البحرية والوحدات الأصغر في البحرية البريطانية. كانت هناك لمسة من الغطرسة في هيكلِه الفخم، كما لو كان يعرف أن القوة الكاملة للأمة البحرية تتجسَّد فيه. لم تُفقد أهمية جوانبه المدرعة مع الرجلين البحَّارين، على الرغم من أن مدير المنجم لم يدرك ذلك على الفور، لكن الثلاثة أدركوا الأهمية الشريرة لتلك المقدمة البارزة من الفولاذ، والتي كانت تظهر بوضوح، وإن كانت تتمايل، من خلال المياه الخضراء الشفافة، خطيرة مثل أنفِ سمكةِ قرشٍ آكلةٍ لحومَ البشر.

ابتسم اللورد سترانلي وهو يدرك الذعرَ الذي سبَّبه ظهوره المفاجئ.

حيَّاهم بسرور: «صباح الخير. هل رأيتم أيَّ أخشاب تطفو على سطح هذا النهر؟»

«أخشاب؟» شهق مدير المنجم. «نعم، نعم، رأينا.»

«هل فُقدت، في رأيك؟»

«أنا أظن أن معظمها يتمايل في أمواج المحيط الأطلسي.»

غمغم الطبيب: «لم تُفقد، لكنها ذهبت سلفًا.»

ظنَّ سترانلي أن القبطان والضابط يعرفان الكثير عن الطبيعة القرصانية اللصوصية لرحلتهم أكثر مما كان يفترض. كان كلاهما يُدرك جيدًا أن السفن الحربية البريطانية كانت في الغالب تحشر أنفها في شئون جميع القادمين الغرباء في العالم؛ حيث لم يكونوا مطلوبين، ومع ذلك إذا كان هناك بحَّارٌ جديرٌ، يمارس مهنته القانونية، فليس ثمَّة سببٌ لإصابته بانهيار عصبي عند رؤيةِ مركبٍ يُشبه قاربَ طوربيدٍ صغير. وكان يعتقد حتى هذه اللحظة أن القبطان، والضباط، وطاقم الباخرة «راجا» كانوا مشاركين أبرياء في مخطَّط للنذالة والسرقة، لكنه الآن علم أن القبطان والضابط كانا على قدم المساواة في المؤامرة مع المدير الأسمر الطويل القامة، ووضع هذه المعلومات في الجزء الخلفي من دماغه لاستخدامها في المستقبل عندما يلتقي القبطان في عُرض البحر.

تلعثم القبطان، وهو يتحدَّث لأول مرة: «هل أنت ضابط في البحرية، يا سيدي؟»

أجاب سترانلي بمرح: «أوه عزيزي، لا؛ أنا مجرد شخص عادي.»

تنفَّس الثلاثة الصعداء في وقت واحد، وفقدت وقفتهم المتحنطة شيئًا من صلابتها.

«أنا أُبحِر في الساحل في يختي.»

سأله مدير المنجم: «هذا ليس يختك، أليس كذلك؟»

«بلى، يقع اليخت الخاص بي على بُعد أميال قليلة من أعلى النهر، وهو يخت عابر للمحيطات. لقد بُني بهدف الراحة وإسكان عدد لا بأس به من الرجال.»

سأل المدير، وهو يستعيد شجاعته بشكل واضح: «آه، كم تَحمِل من الرجال؟»

أجاب اللورد: «فليباركني الرب لو كنت أعرف.» ثم سأل: «كم عدد الرجال لدينا أيها الطبيب؟»

أجاب الطبيب بطريقةٍ مُبهَمة من اللامبالاة: «لم أُحصِهم أبدًا يا سيدي.»

تابع الرئيس: «إنهم مشتَّتون في أرجاء البلاد. كثير منهم من الحطابين، والباقي حراس طرائد من الأراضي التي أملكها في إنجلترا. يُمكنُهم جميعًا إطلاق النار — ضع ثقتك في حراس الطرائد فيما يتعلَّق بهذا الأمر.»

«وهل اليخت الخاص بك مبنيٌّ على طراز قاربك هذا؟»

«لا. كما أخبرتك؛ فهو مصمَّم للراحة. يسرني أن أريَه لك إذا منحتَني شرف الزيارة. في الواقع، يقترب الوقت من مُنتصَف النهار؛ لذلك سأكون مسرورًا إذا تفضلتم أنتم الثلاثة أيها السادة الكرام لتناول الغداء معي. يُمكنني أن أعدَكم بوجبةٍ مقبولة، وبعض النبيذ الممتاز، والسيجار الذي سيَستحضِر ذكرياتٍ من هافانا.»

همس المدير للقبطان، الذي أومأ برأسه ببعض الشك، كما لو كان يقول: «حسنًا، أعتقد أنه من الأفضل أن نرى ما يدور هناك، على أيِّ حال.»

ثم رفع المدير صوته وقال:

«شكرًا يا سيدي. سنكون سعداء للغاية بالحصول على لقمة، ومشروب، ودخان. صديقي هنا هو قبطان الباخرة «راجا»، وهذا هو السيد طومسون، الضابط. أنا فراونينجشيلد، أُمثِّل مالكي هذه المنطقة.»

«يسرُّني التعرُّف إليكم، أيها السادة. اسمي سترانلي.»

«وهو اسم مشهور جدًّا في أفريقيا، سيد ستانلي.»

تهجَّى اللورد: «س-ت-ر-ا-ن-ل-ي». «لا يُمكنني ادعاء ميزة أنه نفس اسم أحد المستكشفين.»

سأل المدير: «هل لي أن أستفسر عن سبب زيارتك لهذه المناطق؟»

«ببساطة أنا أهتم بالطرائد الكبيرة؛ لذا أحمل بعض حراس الطرائد معي. ثمَّ مرة أخرى، كما تعلمون على الأرجح، أنا مُهتم بالأخشاب، ومن هنا يأتي الحطَّابون بفئوسهم ومناشيرهم. لقد قطعنا كميةً كبيرة من الحطب، ونأمُل أن نُكمل بها الفحم لدينا. قد يبدو لك سببي الثالث غير عملي إلى حدٍّ كبير. كان لديَّ بعض الأفكار حول إنشاء مُستوطنة هنا، أو في أي مكان آخر صحي ومُناسِب ليس بعيدًا عن الساحل. أنا سعيد بهذا الجزء من البلاد. اكتشفت في التلال أثناء إطلاق النار العديد من الشلالات التي يُمكِن أن توفِّر طاقة رخيصة. ومنذ بضعة أيام، أعطيتُ أوامر للحطَّابين بإعداد جذوع الأشجار لبناء الأكواخ. وكنتُ بعيدًا أطلق النار في الوقت الذي بدءوا فيه العمليات، وأخشى نوعًا ما أن أتجاهل واجباتي بوصفي مؤسسًا لمستوطنة. أيًّا كان الأمر، فقد كدَّسوا جذوع الأشجار بالقرب من حافة النهر؛ حيث يكون الانحدار شديدًا. وهذا الصباح، مثل خنازير مُتهوِّرة، يبدو أن جذوع الأشجار قد سقطت واحدًا تلو الآخر في الماء. أظن أن كومةً واحدة دفعت باقي الأكوام. كما أخبرك، كنتُ غائبًا، ولكن عندما وصلتني الأخبار، أخذت هذا الزورق وتعقَّبتها في النهر؛ حيث ظننت أنه ربما استقرت الأخشاب المنشورة أو تكدَّست في مكانٍ ما، ويمكن سحبها وإعادتها؛ ولكن إذا كانت، كما قلت، في المحيط بالفعل، فأخشى أن نكون قد فقدناها، وسنحتاج إلى قطع المزيد.»

استمع فراونينجشيلد إلى هذه القصة بجبينٍ مُتجعِّد، ونظرة حادة إلى المتحدِّث، الذي تحدَّث بطريقةٍ سهلة وبطيئة، مما جعل المدير يعتقد بأنه في مواجَهة أحمق ثري لديه أموال أكثر مما يحتاج، وتدريجيًّا، بدأ الرجل الذي ركل ماكيلر في المخزن يستعيد شجاعته. لقد شعر بالخجل من إخفاقه في التحلِّي بالشجاعة عندما افترض أنه بمواجهة سلطة من بريطانيا العظمى.

«ربما لا تدرك، سيد سترانلي، أن الأخشاب التي تقطعها تقع في ملكية خاصة.»

احتجَّ الشابُّ قائلًا: «أنت مُخطئ بالتأكيد. كلُّ الخرائط التي رأيتُها — والتي سأعرضها لك عندما نصعد على متن اليخت — تصفُ هذه المنطقة على أنها أرضٌ غير مَملوكة لأحد.»

«هذا ليس هو الحال، سيد سترانلي. تمَّ الاستحواذ على أكثرَ من مائة ميل مربَّع من هذه المنطقة من قِبل نقابة أوروبية، وأنا أمثِّلها.»

«أنت تُدهشني. من أيِّ حكومة قامت هذه النقابة بشراء المِلكية؟»

«لم يشتروها من أي حكومة؛ لقد حصلوا على حق الامتياز من زعماء السكَّان الأصليين. لا توجد حكومة أوروبية لديها ولاية قضائية على هذا الجزء من أفريقيا.»

«هذا ما اعتقدته. إذن هل تُؤسِّس مُستوطنة أقصى النهر؟ هل هذا هو المكان الذي أتيت منه؟»

«نعم.»

«لقد وصلت في الباخِرة التي تحدَّثت عنها — نسيت الاسم؟»

«الباخرة «راجا». نعم. أنا مهندس تعدين، ونحن نُجرِّب الموارد المعدنية لهذا البلد.»

«فهمت. إذن من المُحتمَل أنك تُحمِّل الباخرة «راجا» بمثل هذا الخام الذي يُمكنُك العثور عليه، وتُعيده إلى أوروبا لاختبارِه.»

«بالضبط.»

«ما تُخبرني به هو الأكثر إثارة للاهتمام، لكن بالتأكيد لم تكن هنا عندما أتيت إلى هذا النهر في يختي قبل أقل من شهر؟»

«نعم، لم نكن هنا في ذلك الوقت، لكنَّنا توقعنا هذا، وحصلنا على الحيازة منذ أكثر من عام.»

«إذن أنت لديك السلطة لتأمرني بالمضي قُدمًا؟»

«أؤكِّد لك، سيد سترانلي، أنه فيما يتعلَّق بي شخصيًّا، يُمكنك تأسيس مستوطنتك، أو البقاء هنا طالَما تريد، لكنَّني لا أتصرَّف نيابةً عن نفسي. وتحقيقًا لمصلحة أصحاب العمل، ولمنع حدوث تعقيدات في المستقبل، إذا اكتشفنا معادن ثمينة، فمن واجبي أن أحذِّرك.»

«هل يمكن أن تتفضَّل بإعطائي عنوان تلك النقابة الأوروبية؟»

«سيكون هذا عديم الفائدة يا سيدي. فقد تلقَّيت تعليماتٍ بأنهم لا يعتزمون منح أي امتيازات أو تراخيص لأجانب. سواء أكانوا يربحون أم يخسرون، فهم ينوون استغلال هذه المنطقة لمصلحتهم الخاصة. وإذا اعترضت على سلطتي، فسيُسعدني تقديم أدلة موثقة تؤكد ما أقوله.»

احتجَّ سترانلي قائلًا: «عزيزي سيد فراونينجشيلد، لا يجب أن أحلم بالاعتراض على سلطتك. أعترف أنني كنتُ مغرمًا بهذه المنطقة الخالية من السكان، على الرغم من أنني لا أفكِّر كثيرًا في المنطقة على طول الساحل. ومع ذلك، فإن أفريقيا كبيرة، ولا أشك في أنني قد أجد مكانًا مناسبًا بنفس القدْر لتنفيذ خططي. ما تقوله لا يُظهِر إلا مدى ضآلة العالم.

مَن كان يتخيَّل أنه في هذه المنطقة التي تبدو بكرًا، على بُعد آلاف الأميال من ما نُسميه بالحضارة، يتمُّ الاستحواذ على الأرض كلها، تمامًا كما لو كانت قطعة أرض مخططة حديثًا بالقرب من نيويورك أو لندن، سيتم استغلالها في بناء فيلات رديئة الجودة. حسنًا، حسنًا، نحن نعيش ونتعلم. إنه أمرٌ محبط إلى حدٍّ ما، لكن ما بيدي حيلة. آمُل ألا ترسل فاتورة باهظة للأشجار التي قطعتها بشكل غير قانوني، خاصة عندما تتذكَّر أنني فقدت معظم الأخشاب.»

قال فراونينجشيلد ضاحكًا: «أوه، لا. لا تقلق.»

«يبدو من الغريب جدًّا أنني، من بين جميع الناس، أصبحت مُتعديًا وصائدًا غير قانوني؛ لأنني عندما أكون في بلدي الأم أكون من أشد المؤيدين لحقوق الملكية. فأنا أملك العديد من الممتلكات في إنجلترا، وأنا من المحافظين المتعنِّتين جدًّا عندما يتعرَّض أيٌّ من امتيازاتي للتهديد؛ لذلك يجب أن أكون آخرَ رجلٍ يتعدَّى على حقوق الآخرين، وآمل، سيد فراونينجشيلد، عندما تتواصل مع المالكين، أن تنقل إليهم اعتذاري المتواضِع، مع التأكيد على أنني إذا أسقطت مرة أخرى شجرة، فسأبذل ما في وسعي لأعرف أنها نمَت على أرضي.»

كرَّر فراونينجشيلد على نحو مطمئن: «أوه، لا تقلق.»

صاح ستراتلي، وهم يقتربون من التدفُّق المائي الثلاثي، ملوِّحًا بيده إلى اليمين: «هناك! هل ترى الجرح العميق الذي أحدثته في غابتك؟ ذاك هو المكان الذي اخترته ليكون نواةً لمستوطنتي. وهناك ما تبقَّى من جذوع الأشجار، وأنا أُقدِّمها لك مجانًا دون مقابل لقطعها.»

علَّق فراونينجشيلد: «إنها مكدَّسة بالقرب من الحافة إلى حدٍّ ما.»

«نعم، كلنا ندرك ذلك الآن، بعد فوات الأوان. إنه مثل غلق الباب بعد سرقة الحصان. يجب أن أستفسر عن كيفية حدوث ذلك. لم أرَ رجالي منذ أن سمعت بالكارثة. أظن أنهم سيُقدِّمون الكثير من الأعذار المعقولة، وسيَربطون خطأ الحادثة بأيِّ شيء سوى غبائهم. حسنًا، أيها القبطان، ما رأيك في اليخت الخاص بي؟»

أجاب القبطان: «حواف دقيقة جدًّا يا سيدي»، بينما كان هو والضابط يُحدِّقان في الباخرة البيضاء الواقعة على الضفة الأخرى من المجرى الرئيسي.

قال ستراتلي: «إذا سمحت لي، سوف أسبقك على متن الباخرة، لإبلاغ الطاهي والمضيِّف أنه سيتمُّ تقديم ثلاثة أطباق إضافية.»

صعد هو والطبيب الدَّرج؛ واستقرَّ القارب ذو المحرك خلف السفينة، ثم جاء الزورق البخاري عند الجزء السفلي من دَرج السفينة. رحَّب سترانلي بضيفَيه على رأس الدَّرج، وأرشد القبطان والمدير إلى المقاعد المريحة في مؤخِّرة السفينة، وأمر مُضيِّفَ سطح السفينة بإحضار النبيذ والخمر. ودوَّن ملاحظةً ذهنية عن حقيقة أن الضابط بقي في الزورق، وظن من هذا الأمر أنه لم ينجح في تهدئة شكوك القبطان والمدير. وعقد العزم على منحهما فرصةً للتشاوُر على انفراد معًا، متسائلًا عما سيفعلانه عندما يتوصَّلان إلى قرارٍ بشأن الأحداث الأخيرة.

«يجب أن أذهب للأسفل لتحضير النبيذ. فأنا أحمل مفاتيحَ صندوق النبيذ بنفسي كأي مالك حكيم. مع طاقم مختلط أنت تعرف الحكمة وراء فعل هذا الأمر، أيها القبطان.»

«نعم سيدي، أنا أعرف»، وبهذا ذهب المضيِّف اللطيف إلى الدَّرج المتَّجه لأسفل مع الطبيب.

«ما رأيك فيه؟» تمتم القبطان، عندما أصبح وحده مع المدير في القسم الخلفي من ظهر السفينة.

قال فراونينجشيلد بثقة: «أوه، إنه جيد. لقد قابلتُ الكثير من هذا النوع من قبلُ. أحمق ثري، حسن الأخلاق، لا يتمتَّع بذكاء شديد، ينفق المال الذي ورثه.»

أجاب القبطان: «لست متأكدًا من ذلك.»

«أوه، أنت تشكُّ في الجميع. لقد ارتكب خطأ هنا، وأجرؤ على القول إنه قد استمتع كما قال، بإطلاق النار وتقطيع الأشجار، وما إلى ذلك.»

غمغم القبطان: «أرأيت أن هذا القارب مُجهَّزٌ لإرسال برقيات لا سلكيًّا؟ هذا هو الغرض من السلك الواصل بين الصاريتَين.»

نظر فراونينجشيلد عاليًا.

«أوه، هذا هو، أليس كذلك؟ حسنًا، لا أرى أي شيء يدعو إلى القلق، حتى لو كان الأمر كذلك. أظن أن الكثير من اليخوت مزوَّدة بجهاز ماركوني في الوقت الحاضر. بالتأكيد لا يمكن أن يفيده كثيرًا هنا في غرب أفريقيا.»

«قد يكون على اتصال مع شخصٍ ما في الخارج.»

«في المحيط، تقصد؟ ما فائدة ذلك؟»

أجاب القبطان: «لا أعرف.» وتابع: «هذا الرجل معسول اللسان جدًّا بدرجةٍ غير ملائمة لي.»

«ماذا تقترح أن تفعل؟ هل تريد إغراق قاربه وإغراقهم جميعًا؟»

«لا.»

«ماذا إذن؟»

«راقِبه ولا تَشرب الكثير من نبيذه.»

«لستَ بحاجةٍ إلى تحذيري بهذا الشأن، أيها القبطان. سيكون من المناسب أكثرَ تحذيري عندما نَقترب من الوطن.»

اعترف القبطان: «أنت على حق. إذا لاحظت أنني أصبحت ثَرثارًا، فقط أعطِني وكزة، حسنًا؟ يجب أن يجلس كلٌّ منا بجانب الآخر على الطاولة.»

«أعتقد أنك مُرتاب دون داعٍ أيها القبطان. لا بد أن هذا القارب قد غادر إنجلترا قبل أن نرحل.»

«لستُ متأكدًا من ذلك. بعض هذه اليخوت العابرة للمُحيطات سريعة جدًّا. ربما يعمل بمحرك توربيني.»

«ألا يُمكن لرجلٍ حكيم مثلك بالأمور البحرية أن يُخبرنا بما إذا كان مزوَّدًا بمحرك أم لا بالنظر إليه؟»

«لا، ليس من الخارج. سؤال لأحد الرجال سيحسم الأمر.»

«آه، ها هو ذا النادل يأتي بالمشروبات. حسنًا، يا رجل، لديك يختٌ لطيف جدًّا هنا.»

«نعم يا سيدي.»

«محرِّكات توربينية، على ما أعتقد؟»

«لا أعرف يا سيدي. سيكون المهندس قادرًا على إخبارك.»

«أجل، أعتقد أنه سيفعل. منذ متى غادرت إنجلترا؟»

«آسف جدًّا يا سيدي، لكني لا أتذكَّر التاريخ. سيعرف القبطان أو المالك.»

«أوه، بالطبع. هل توقَّفت في العديد من الأماكن منذ أن تركت الوطن؟»

«نتنقل هنا وهناك يا سيدي.»

«لشبونة، أو تينيريفي، ربما؟»

«حسنًا يا سيدي، لست خبيرًا بالأماكن الأجنبية. فجميعها متشابهة بالنسبة إليَّ يا سيدي. بليموث، أو ساوثهامبتون، أو ليفربول، سيدي، هناك بعض الاختلاف بينها.»

غمغم فراونينجشيلد بينما انسحب الرجل باحترام: «حسنًا، حسنًا.»

قال القبطان: «انظر، حتى الخدم حذرون.»

«أوه، هذه هي الطبيعة المُبهَمة للخادم الإنجليزي. أعتقد أن سترانلي يتفاخر بطريقةٍ ما. هناك شيء في ذلك الانطباع اللعين الذي يُعطيه، على الرغم من لطفِه، وخدم هؤلاء

الناس يعرفون متى يكون التوقيت مناسبًا، ويبقون أفواههم مغلقة. ومع ذلك، لا أستطيع تخيُّل أنه تم إرسال مثل هذا الرجل المدعي، مع يخت عصري، وعصابة من حراس الطرائد للتدخل معنا. ماذا يمكن أن يفعل؟»

صاح القبطان قائلًا: «المقدمة الفولاذية لذلك القاربِ ذي المحرك لم تبدُ عصرية. بإمكانه إغراق الباخرة «راجا»، محملة كما هي، في حوالي ١٠ ثوانٍ، على الرغم من أنه سيَنهار إذا حاول ذلك، وفيما يتعلَّق بما يُمكنه فعْله، انظر إلى ما فعله بالفعل. قد يكون سقوط كل تلك الأخشاب في النهر من قبيل الصدفة، كما يقول، لكنَّني لا أُصدِّق ذلك. فقد تناسب الحدث مع مسألة الألغام على نحوٍ يجعلني أرتاب في الأمر بشدة. لم يكن بإمكانه أن يرتطم بها بشكل أفضل، وبتكلفة أقل، لو كان قد درس الأمر لمدة عام.»

«نعم، يتطلَّب الأمر بعض الشرح، أليس كذلك؟ ومع ذلك، لا يوجد شيء يُمكن فعله مع طاقمه من البحَّارة القليلي الخبرة. وهو لا يجرؤ على مهاجمتنا؛ فهناك الكثير منا.»

«أعتقد أنك ستُغيِّر رأيك قبل نهاية الأسبوع، سيد فراونينجشيلد. شاهد ما فعله بالفعل. لقد أخلى النهر، والممر المائي من المحيط إلى المنجم مفتوح. سأقول لك ما الأمر، سيد فراونينجشيلد؛ كان هناك سوء تقدير، وهذا الرجل شوارتزبرود ليس ذكيًّا كما كنت تعتقد.»

«لماذا تقول هذا؟»

«لأنه وفقًا لقصتك، كان من المفترض أن يستغرق الأمر أسبوعًا أو أسبوعين لتجهيز سفينة بخارية أخرى، وبحلول ذلك الوقت كنت تتوقَّع حماية النهر وإقامة بضعة حصون. الآن ماذا حدث؟ بدلًا من ذلك، قاموا باستئجار أسرع يخت يُمكنهم العثور عليه في إنجلترا، وقطعوا الطريق أمامنا. إن كلام هذا الرجل المعسول عن تأسيسِ مستعمرةٍ كلُّه هراء. لقد كانوا يتجسَّسون علينا منذ أن جئنا إلى هنا. وأخذ الرجال الآخرون في إنجلترا وقتهم في تجهيز باخرة، أو ربما اثنتين، أو ربما ثلاثة. وقام هذا الرجل بإخلاء القناة لهم، وفي أي صباح جميل قد ترى ثلاث أو أربع سفن في عُرض البحر، تَحمِل ربما ٣٠٠ أو ٤٠٠ رجل. حينها ماذا ستفعل؟»

«لن يكون هناك أي شيء نفعله، بالطبع، إذا حدث كل هذا. ومع ذلك، كلُّ ما تقوله هو مجرد تخمين، ولكن إذا تطوَّر الموقف فلن يتمكنوا من المساس بنا. نحن لا نفعل شيئًا غير قانوني. أقول لك إن شوارتزبرود العجوز أكَّد لي أنه سيَحصُل من المالكين الجدد على وثيقة قانونية تُغطي كلَّ ما أمر بفعله.»

«لكن افترض أنه لم يحصل على تلك الوثيقة؟»

«كلانا سجينان ملعونان، هذا ما نحن عليه!»



نحن سجينان ملعونان، هذا ما نحن عليه.

«أوه، ثِق به! بالطبع حصل عليها، ولكن حتى لو لم يفعل ذلك، فنحن لا نفعل شيئًا غير قانوني. ها أنت ذا يُمكنك تجميع ثروتك إذا قمت بثلاث رحلات إلى لشبونة ومنها. أنت آمن تمامًا، مهما حدث؛ لأنك مُلزَم بإطاعة أوامر أولئك الذين استأجروا السفينة. لكن بصرف النظر عن كل ذلك، نحن خارج الولاية القضائية البريطانية هنا، وستكون خارج

الولاية القضائية البريطانية في لشبونة. لم تفعل شيئًا، ولا يمكنك فعلُ أيٍّ شيء، ما دمت تطيع الأوامر؛ فهذا سيجعلك خاضعًا للقانون البريطاني.»

«أنا لا أحب المهمة نوعًا ما، سيد فراونينجشيلد؛ أقول لك ذلك بصراحة.»

«هراء يا رجل. إذا كان هناك أي شخص في خطر، فهو أنا، وأنا لستُ خائفًا. أنت محمي بأوراق سفينتك. أنت مُلزَم بالأوامر، ويجب أن تطيعها. إذا كان هناك أي خطأ، فإن الأشخاص الآخرين هم الذين يجب أن يتحملوا العبء الأكبر. ليس من الإجرامِ الإبحارُ بسفينة من ساوثهامبتون إلى ساحل غرب أفريقيا، وليس من الإجرامِ القيامُ برحلات بحرية إلى لشبونة ومنها. أنت بخير، أيًّا كان من تأذَّى؛ لذلك لا تهلع، أيها القبطان، لمجرد أن أحمقَ غنيًّا لديه يخت اكتشف نهر باراماكابو.»

القبطان، الذي كان مُضطربًا للغاية، ولكنه اطمأنَّ إلى حدٍّ ما من نبرة الصوت الواثقة لرفيقه، كان يقلِّب بذهن شارد الصفحات المصوَّرة في صحيفة «سِفير»، التي أخذها من على الطاولة المصنوعة من الخوص بجواره. فجأة لفَتَ انتباهه شيء.

«يا إلهي، فراونينجشيلد، انظر إلى تاريخ صحيفة «سِفير»! مكتوب ٢٤ من مايو، ونحن أبحرنا في اليوم ١٣ — وهو يوم مشئوم جدًّا كما أصفه دائمًا. لقد اشترى هذه الصحيفة بعد أكثر من أسبوع من مُغادرتنا! أقول لك يا فراونينجشيلد، لقد انتهَينا. نحن سجينان ملعونان، هذا ما نحن عليه!»

الفصل السادس

هجوم في أعالي البحار

رفع السيد المدير فراونينجشيلد بيده نسخةَ صحيفة «سِفير»، وحدَّق بجبين مضطرب في هذا الدليل القاطع على التاريخ.

وقال أخيرًا: «نعم، لقد كان في إنجلترا بعد رحيلنا بأسبوع، ويجب أن يكون قد جاء مباشرةً إلى هذه البقعة، وتجاوَزَنا في مكانٍ ما على الطريق؛ أثناء الليل، على الأرجح.»

كان القبطان واقفًا الآن، وقبضتاه مضمومتان.

استفسر المدير: «ماذا تَقترح أن تفعل؟»

«أود أن أعرف أولًا ما إذا كنا هنا بوصفنا ضيوفه أم سُجَناءه. لقد كُنا حمقى لقبولنا دعوته دون أن نمنح أنفسنا الوقت للتفكير والتشاور.»

«لكن، اللعنة، أيها القبطان، لقد ظهر أمامنا بشكلٍ غيرِ متوقَّع لدرجةِ أنه لم يكن هناك وقت للتخطيط، أو حتى للشك. وبدا أنه يتحدَّث بأمانة وصراحة، وكان توضيحه جاهزًا جدًّا لدرجةِ أنني منذ لحظةٍ كنت أعتقد أنه كان مجرَّد سائح بريء، له أذواق غريبة، والمال اللازم لإرضاء هذه الأذواق؛ هوس بإطلاق النار على الطرائد الكبيرة، مثل الكثير من المُنتمين للطبقة العليا، وبالطبع، هذا النوع من الرجال يتجوَّلون في جميع أنحاء العالم. وتُقابلهم في كل مكان: أمريكا الجنوبية، وأفريقيا، وآسيا. بالطبع وضَعنا هنا على متن سفينتِه، ويُمكنه الانطلاق بسرعة مارًّا بسفينتك، ومُستوطنتي، بعد أن يقذفنا نحن الاثنين في المخزن، بلا حول لنا ولا قوة، تمامًا مثلما حجزتُ المهندس الاسكتلندي في الباخرة «راجا» في ساوثهامبتون. يا إلهي، لا يجب أن أتعجَّب، ولكن هذا ما يدور في ذهنه: إنه يُقلِّد ما فعلتُه. لن يكون لدينا أيُّ فرصة للدفاع عن النفس مع وجود هذا العدد الكبير من الرجال على متن القارب، ولن يكون بإمكان زورقنا البخاري رؤيته إذا كان هذا القارب مزوَّدًا بمحركاتٍ توربينية. لقد انفجرت الألغام والطريق خالٍ.»

«ألا تَعتقِد أن رجالك سيطلقون عليه الرَّصاص وهو يمر بهم؟»

«بلى، إلا إذا كنتُ هناك لآمرَهم بذلك. لم أُكلِّف أحدًا بتولي الأمور. أتساءل ما الذي يفعله كل هذا الوقت بالأسفل؟ إذا كنا ضيوفه، ينبغي أن يكون هنا لتقديم واجب الضيافة.»

قال القبطان بحزن: «ربما يُعطي أوامره. نحن محاصرون يا ولدي. لن يتركنا كل هذا الوقت للتشاور معًا ما لم يكن واثقًا منا.»

«لماذا لم يأتِ الضابط من الزورق؟»

«أخبرته أن يبقى هناك إلى أن أتصل به. كما ترى، كانت لديَّ شُكوكي تجاه هذا الرجل منذ البداية. إذا حاول وضع يده علينا، سأصيح للضابط ليقطعها.»

احتجَّ المدير قائلًا: «وما فائدة ذلك؟» وتابع: «القارب ذو المحرِّك يُمكن أن يلحق بزورقنا حتى لو كان في منتصَف الطريق إلى المخيم.»

قال القبطان، عندما ظهر سترانلي، مُتأنِّقًا ومبتسمًا، على رأس الدَّرج: «آه، ها هو ذا يأتي.» وتابع: «سأحسم مسألة ما إذا كنا سجناء أم لا في غضون ثانيتين.»

قال سترانلي وهو يتَّجه نحوهما: «آمل أن تَعذُراني، لكنكما أول ضيوف يسعدني استقبالهم على متن القارب منذ أن غادرت إنجلترا، وأتمنَّى أن أبذل قصارى جهدي؛ لذلك سمحتُ لنفسي بإعطاء طلبات خاصة لوجبة الغداء، وسوف يرن الجرس، كما أخبروني، في غضون ربع ساعة تقريبًا.»

أجاب القبطان: «أنا آسف للغاية، سيد سترانلي، لكنَّني قلقٌ بعض الشيء بشأن سفينتي؛ لذلك طلبت من الضابط البقاء في زورقنا، ويجب أن أطلب منك أن تعذرني. فأنا لا أستطيع البقاء لتناول الغداء.»

قال سترانلي: «يا إلهي، أنا آسف.» وتابع: «لماذا؟ ما الضرر الذي يُمكن أن يلحق بالباخرة الخاصة بك؟»

«حسنًا، لقد رأيت جذوع الأشجار المتراكمة لا تزال قريبة جدًّا من حافة النهر، وأخشى أنها لو سقطت أيضًا، ووقعت علينا بالطول، فقد تُسبِّب بعض الأضرار في الباخرة «راجا».»

طمأنه سترانلي قائلًا: «أخبرني رجالي أنه لا يوجد أيُّ خطر من سقوط المزيد من جذوع الأشجار في النهر. ومع ذلك، فهم حَمقى لدرجةِ أنهم قد يكونون مخطئين، وأنا أُشارِكُك قلقك وأتعاطف معك. بالمناسبة، هل أتلف أيٌّ من جذوع الأشجار الأخرى قاربك؟»

«لا أعرف حتى الآن. بالتأكيد اصطدم ببعضها.»

«إذن، أيها القبطان، يجب أن تدعني أدفع ثمن أي ضرر حدث؛ نعم، وأن أدفع أكثر مما ينبغي؛ لأنني، بعد كل شيء، المسئول عما حدث. بالطبع، كما ترى، عندما أتينا إلى النهر، لم يكن هناك سفن، ولم يكن هناك أي دلالة على وجود أي مُستوطَنة. ومع ذلك، هذا لا يُعفيني من عدم توقُّع حدوث ذلك. إذا اصطدمَت الأخشاب بالباخرة، فهل من المُحتمَل أن يكون الضرر خطيرًا؟»

أجاب ربَّان الباخرة «راجا»: «بالطبع، لا أستطيع أن أقول ذلك دون فحص.»

«حسنًا، أيها القبطان، نحن نَنتمي لعرقٍ مُقامر. سأمنحك هنا ١٠٠ جنيه ذهب، سواء ربحت أو خسرت. إذا كان الضرر ١٠٠٠ جنيه، حينها تكون قد خسرت. إذا لم يكن هناك ضرر على الإطلاق، ربما تكون قد ربحت ١٠٠ جنيه. هيا أيها القبطان، ما رأيك؟»

«إذا لم يحدث أيُّ ضرر يا سيد سترانلي، فأنا لا أريد منك أي أموال. وحتى في حالة إصابة الباخرة بضرر، لست متأكدًا من أحقيتي في مطالبتك بالمال. فبعد كل شيء، كانت المسألة مجرد مصادفة.»

«هل ستكون راضيًا بالتنازل عن حقك مقابل ١٠٠ جنيه، نقدًا وعدًّا؟»

«سأكون راضيًا تمامًا إذا أعفيتني من حضور مأدبة الغداء، وسمحت لي بالعودة إلى سفينتي.»

«أوه، بالتأكيد، لكنِّي أود منك أن تأخذ المال. ألا يُمكنك أن ترسل الضابط وتأمُرَه بالعودة وإبلاغك بما يحدث؟ إنه لأمرٌ مُؤسِف أن تفوتك وجبة، كما تعلم.»

«سأشعر بالأمان أكثر إذا ذهبت بنفسي.»

«نعم، أعرف بالضبط مدى القلق الذي لا بدَّ أن تشعر به، وسأفعل نفس الشيء لو كنت مكانك. حسنًا، أيها القبطان، النقطة الوحيدة بيننا هي ١٠٠ جنيه أم لا. كي أكون صريحًا، لن أعترض على دفع تعويض كامل لأصحاب الباخرة عما فعلته. ومع ذلك، أتخيَّل أن سفينةً متينة جدًّا مثل سفينتك لم يلحق بها أيُّ ضرر. فمُقدِّمتها تقع باتجاه منبع النهر، والتيار ليس قويًّا هناك كما هو هنا. أعتقد أن الأخشاب إذا ما اصطدَمت بالسفينة بأيِّ حال من الأحوال، فستنطلق بعيدًا، ولن تجرف سوى القليل من الطلاء؛ ولكن إذا كان عليك الذهاب، فسوف أصرُّ أن تأخذ المائة جنيه.»

قال المدير، وهو ينظر إليه بابتسامة: «خذ المال، أيها القبطان.» كان من الواضح أن مخاوفه قد تمَّ التغلُّب عليها مرةً أخرى، ولكن لم يكن من السهل إقناع القبطان.

قال: «حسنًا»، متطلعًا إلى إنهاء الموقف ومعرفة ما إذا كان سيدعه يذهب أم لا.

تابع سترانلي، موجهًا كلامه للمدير: «والآن، سيد فراونينجشيلد، دعنا نَحسم جميع شئوننا المالية قبل الغداء، حتى نتمتَّع بوجبتنا دون التفكير في النزعة التجارية داخلنا. لقد رأيت الضررَ الذي سبَّبتُه في غابتك، مُعتقدًا أنها كانت مُمتلكاتي طوال الوقت. بالطبع، إذا كنت تعمل من أجل نفسك وحدك، فأنا متأكد من أنني أستطيع إجراء صفقة سهلة للغاية معك، لكنك مسئول عن رعاية هذه الأراضي لصالح النقابة الأوروبية التي تحدَّثت عنها، ومن ثم، نيابةً عنها، يجب أن تكون عادلًا وليس كريمًا. بكم تُقدِّر أعمال التدمير التي قمتُ بها وفقًا للعملة المحلية؟ أعلم أنه سيُكلفُني مبلغًا كبيرًا من المال إذا ارتكبت مثل هذا التعدِّي الذي لا يُغتفَر في إنجلترا.»

«كم عدد الأشجار التي قطعتَها يا سيد سترانلي؟»

«أوه، الرب أعلم! عشرون، ثلاثون، أربعون، خمسون، ستون، أو ربما مائة. يُمكن بسهولة اكتشاف ذلك. سنرسل رجلًا بالقارب ذي المحرِّك لعدِّ جذوع الشجر المقطوعة.»

«أوه، الأمر لا يستحق. هل تَرضى بالتنازل عن ١٠٠ جنيه أخرى؟»

«بالتأكيد؛ وبهذا تكون قد خفَّفتَ عليَّ العقوبة بثَمنٍ بخس، سيد فراونينجشيلد. فقط اعذرني لحظة حتى أحصل على المال»، ومرة أخرى اختفى بالأسفل.

لكن كل هذا لم يُغيِّر مخاوف القبطان على الإطلاق.

وقال: «لقد ذهب لإعطاء الإشارة.»

«حسنًا، كما تعلم، أيها القبطان، أنا أحترمك جدًّا، لكن لا يُمكنني تصديقُ أنه من المُمكن عدم الوثوق في هذا الشاب. قد يكون أحمق، لكنه رجل نبيل. لا أعتقد أنه سيدعو ثلاثة رجال إلى وليمةٍ ثم يسجنُهم. الآن، أنا لستُ أحمق، لكنني لست رجلًا نبيلًا كذلك، ولو كان لدي عدو تحت سلطتي، لأنهيتُ الأمر في دقيقة، ومع هذا فأنا مُتأكِّد من أنه لن يفعل ذلك. ستراه يأتي بالمال، وستفوت وجبة رائعة بالذهاب إلى الباخرة «راجا».»

«أنا على استعداد لتفويت الوجبة، إذا تمكَّنتُ من الصعود على متن سفينتي. سأستدير بها وأتَّجه نحو المحيط في غضون ساعة. وأنت توقَّف هنا بقدْر ما تستطيع؛ طوال فترة بعد الظهر، إن أمكن، وامنح الباخرة «راجا» فرصةً للابتعاد عن الأنظار قبل أن يتبعها هذا الرجل.»

«لكن بإمكانه اللَّحاق بك بسهولة. ومع ذلك، ماذا يُمكنه أن يفعل إذا لحق بك؟ أنت بالتأكيد لا تتوقَّع منه أن يستولي على سفينتك؟»

«لا أعرف ما أتوقَّعه، لكنِّي أخاف منه. أعتقد أنه قادر تمامًا على ملاحقتي في البحر، والاستيلاء على الباخرة «راجا».»

«هراء، سيكون ذلك بمثابة قرصنة دنيئة. وسيؤدي هذا إلى الشنق. لن يُفيدَه إغراقك، وماذا سيفعل بالباخرة «راجا» إذا استولى عليها؟ هناك الكثير من الشهود على متن الباخرة. لن يجرؤ على الإبحار إلى أي ميناء في العالم. ومِن ثم ليس هناك أدنى خطر من ذلك. إنه ليس قرصانًا. لقد ولَّت أيام القرصنة. قد يكون أحمق، لكنه ليس بالأحمق الذي يجرِّب خدعة من هذا القبيل.»

«هل يمكنك التوقُّف هنا وإعطائي فرصةً للهروب؟»

«عن طيب خاطر.»

«حسنًا، إذا حدث وابتعدت عن الأنظار، فمن المرجَّح جدًّا أنه لن يتمكَّن من اللَّحاق بي قبل أن أكون في نهر تاجوس.»

عاد سترانلي مع بعض لفاتٍ الذهب المغلَّفة بالورق، وقسَّمها بالتساوي بين القبطان وفراونينجشيلد. لم يستطِع الأخير مقاومة إغراء طرح سؤال.

«كنت أنظر إلى هذه الصحيفة المصورة، ولاحظت أن تاريخها حديث جدًّا. لا بد أنك قمت برحلة سريعة من إنجلترا، سيد سترانلي.»

للحظةٍ كادوا أن يتمكنوا من الشاب، لكنه لم يسمح أن تُغيِّر معرفةُ ذلك الأمر تعبير وجهه الهادئ. أخذ الجريدة في يده ونظر في التاريخ.

«نعم، يفعلون هذه الأشياء بسرعةٍ في الوقت الحاضر، ولكن ربما ليس بالسرعة التي قد يتصوَّرها شخصٌ غيرُ مُعتاد على الصحافة. أعتقد أن الصحف الأسبوعية المصورة تؤرَّخ في وقتٍ ما في المستقبل، وقد قيل لي إنهم يُرسلون إصداراتهم الأجنبية سلفًا قدْر الإمكان. هذه، الآن، يُمكن أن تكون قد أتت من لندن، عبر باريس إلى لشبونة، ووصلَت إلى تلك المدينة على الأرجح قبل عدة أيام من التاريخ المذكور على الغلاف. يجب أن أسأل الطبيب من أين اشترى هذه النسخة، سواء في لشبونة أو تينيريفي.»

وألقى صحيفة «سِفير» على الطاولة بلا مبالاة كما لو أن الأمر، بعد كل شيء، لم يكن مهمًّا، وحتى فراونينجشيلد، الذي كان يُراقبه مثل محقِّق قادم من رواية، لم يُميِّز أي تردد في صوته، ولم يلمح أي نظرة انزعاج في عينيه.

قال القبطان، الذي لم يكن ناجحًا بنفس القدر في إبعاد نبرة القلق عن كلماته: «حسنًا، سيد سترانلي، أنا مُمتنٌّ جدًّا لدعوتك، على الرغم من أنني لا أستطيع الاستفادة منها؛ لذلك يجب عليَّ أن أودِّعك.»

«أوه، أنت لم تَرحل بعد، أيها القبطان»، قال سترانلي بضحكةٍ طفيفة، وقفز القبطان من مكانه إثر المفاجأة ناصبًا قامته. مشى سترانلي إلى رأس الدَّرج المتَّجه لأسفل، وقال:

«هل يُمكن أن تسرع قدْر الإمكان بالأسفل؟»

وبمجرد أن أدار ظهره لهم، أمسك القبطان بمِعصم فراونينجشيلد.

وهمس: «إنه يلعب معي مثل قطة تلعب بفأر.»

أجاب الآخر: «هراء.» «لقد تلفَت أعصابك. إنه شفَّاف مثل الزجاج.»

استدار سترانلي، يتبعه هذه المرة مُضيفٌ يحمل سلة كبيرة،

وقال: «لا أحب أن أفكِّر في أنك ستُفوِّت غداءك، أيها القبطان؛ لذا جعلتهم يُحضرون سلةً لك وللضابط في طريقك إلى الباخرة «راجا». يوجد في السلة العديد من زجاجات الشمبانيا التي أعتقد أنها ستُعجبُك، وستعجب أيَّ أحدٍ خبير في الخمر الجيد، وهناك أيضًا علبة من السيجار. إذا لم تُثِر هذه السجائر إعجابك الشديد، فسوف أصرُّ على أن تمنحني علبةً أفضل في المرة القادمة التي نلتقي فيها. لذا وداعًا أيها القبطان وحظًّا موفقًا. أتمنى أن تُبحر في أعالي البحار برخاء وأمان. آمل أن ألتقي بك مرة أخرى عندما لا تكون في عجلة من أمرك.»

وُضعت سلةٌ وسَبَت في الزورق، ولوَّح سترانلي بيده للقبطان والضابط بينما كان قاربهم ينطلق بسرعة باتجاه التيار نحو معسكر التعدين.

أخيرًا رن الجرس.

قال الشاب، عائدًا من أحد الأركان: «حسنًا، سيد فراونينجشيلد، إذا كنتَ جائعًا مثلي، فستستمتع بهذه الوجبة. هيا بنا.»

استمتع المدير بالوجبة، واستغرقا وقتًا طويلًا في تناولها، وبعد انتهائها صعدا على سطح السفينة للاستمتاع بالقهوة، والمشروبات الكحولية، والسيجار. وقع المدير تحت سحر محادثة الشاب، وبدأ في مراجعةِ تقديره الأول بأن مُضيفه كان أحمق. كان قد شرب قليلًا من الخمر المتوافر بكثرة، ولكن مع شعور الرضا الذي سبَّبه، ضحِك بهدوء لنفسه بين الحين والآخر على مخاوف القبطان التي لا أساس لها، والتي تسبَّبت في هروبه من هذه الوجبة الممتازة.

«إذا كان هذا سيجارًا من صندوقٍ مماثل للصندوق الذي أعطيته للقبطان، فيجب تهنئة الرجل العجوز.»

«نعم إنه كذلك. بالطبع، سيصل القبطان للأماكن المدنية قبل أن تفعل بوقت طويل، ومن ثمَّ يمكنه أن يوفِّر لنفسه أي نوع من السجائر التي يحبها لكنك، في هذا المكان

البعيد عن العالم، لست محظوظًا جدًّا؛ لذلك يجب أن أتوسَّل إليك لقبول ست علبٍ من السجائر تخليدًا لذكرى الوقت الممتع الذي قضيته برفقتك.»

«يا إلهي سيد سترانلي، أنا ممتنٌّ جدًّا لك، ويُمكنني إخبارك على الفور أنني لن أرفض. فالمرء لا يحصل على هدية مثل هذه كلَّ عام من حياته، للأسف.»

«إذن لزيادة المعدل، سيد فراونينجشيلد، يجب أن تسمح لي بإضافة بضعة صناديق من الشمبانيا لدينا.»

«حقًّا، أنت لطيف للغاية. لا أعرف كيف أشكرك.»

«لا تَقُل ذلك، أتوسَّل إليك.»

اقترب أحد المضيفين وقدَّم إلى سترانلي مظروفًا مختومًا، فتحه بعد أن استأذن ضيفه قائلًا:

«أُعطي جميع أوامري كتابيًّا، حتى لا يكون هناك خطأ، ونادرًا ما أتلقى تقاريرَ شفهية من أي شخص.»

قال فراونينجشيلد: «فكرة جيدة.»

«نعم، فذلك يمنع النزاعات بعد ذلك.»

قرأ لنفسه الكلمات المكتوبة بقلم رصاص التي أرسلها مسئول التلغراف الذي قام بتدوين رسالة لاسلكية من على قمة التل.

«الباخرة «راجا» تَستدير، ومن الواضح أنها على وشك الرحيل.»

كتب سترانلي بقلم رصاص على ظهر الرسالة الكلمات التالية إلى ماكيلر.

> أبلغ مرةً أخرى إذا كانت الباخرة «راجا» قد أبحرت بالفعل؛ ثم خذ معك أي شيء لا تُريد أن تتركه، وانزل إلى الماء. سيكون القارب ذو المحرك في انتظارك. اصعد على متن المركب من عند المقدمة، وابتعد عن الأنظار على الفور في العنبر الأمامي؛ لأن الرجل الذي ركلك إلى المخزن يجلس معي بالخلف، ولا أريده أن يتعرَّف عليك.

بإعطاء هذا للمُضيف المنتظر، استأنف سترانلي المحادثة مع ضيفه، الذي لم يُظهر أيَّ رغبة في المغادَرة. بعد فترة وجيزة جاءت الرسالة الثانية: «لقد أبحرت الباخرة «راجا». أرسل القارب ذا المحرك الآن.»

قام سترانلي بطي الورقة، وسلَّمها للمضيف.

وقال: «أعطها للقبطان»، وبعد بضع دقائق سمع صوت خرخرة القارب ذي المحرك وهو يغادر السفينة. أثار الصوت فراونينجشيلد.

وسأل: «هل تُرسل القارب بعيدًا؟ أخشى أن أضطر إلى الاعتماد عليك في توصيلي إلى المخيم لأن زورقنا البخاري لم يَعُد.»

أجاب سترانلي بسهولة: «أوه، لا تقلق.» وتابع موضحًا: «القارب لن يذهب بعيدًا؛ فقط ذهب ليُحضِر اثنين من رجالي كانا يُنقِّبان في التلال. في الواقع، هذه هي نهاية انتهاكي لممتلكات الغير؛ لأنه لا فائدة من تحديقي في أرضٍ تمَّ وعد شخص آخر بها. وبالنسبة للقارب ذي المحرك، والوصول إلى المخيم، يُمكنني أن آخذك إلى هناك بشكلٍ مريح أكثر من ذلك القارب الصغير. كما ترى، لا يوجد شيءٌ آخر ليبقيني هنا، كما قلت، ما لم أتمكَّن من التوصل إلى اتفاق مع نقابتك، ومن المحتمل جدًّا ألا يُناسِبَني ذلك؛ لأن رخص ثَمن الأرض كان أحد أهدافي في المجيء إلى هنا. إذا كانت نقابتك تتوقَّع العثور على معادن ثمينة في هذه الأرض، فمن غير المحتمل أن يبيعوا لي أيًّا من أسهمهم بالسعر الذي يجب أن أحرص على دفعه؛ لذلك أعتقد أنني سأنطلق بعيدًا، ولكن سيعتمد ذهابي للشمال أو الجنوب على الظروف عندما أخرج إلى البحر.»

«ماذا، لن تُبحِر الليلة، أليس كذلك؟» قال فراونينجشيلد، معتدلًا في جلسته.

«بلى، لا فائدة من التوقُّف هنا بعد الآن. هل تعرف أي مكان على طول الساحل يكون مناسبًا كمُستعمَرة للإنجليز؟ أود أن يشبه هذا المكان قدْر الإمكان: التلال، ومجرًى كبير من المياه النقية، خالٍ من أي مُستنقَعات تُسبِّب الحمى، وتربة جيدة.»

«لا، سيد سترانلي، هذا هو الجزء الوحيد من أفريقيا الذي أعرفه.»

«من المحتمل جدًّا أن يكون قبطان الباخرة «راجا» قادرًا على إعطائي بعض التلميحات. ربما يكون قد لفَّ حول العالم قليلًا، ولا شك أنه أبقى عينيه مفتوحتين. أتمنى لو فكَّرت في سؤاله قبل مغادرته عما إذا كان يعرف هذا الساحل أم لا. إلى جانب ذلك، أود أن أعلم على وجه اليقين ما إذا كنتُ قد أتلفتُ سفينته. إنه لأمرٌ جيد أنها لم تكن بالاتجاه الآخر، وإلا فقد يحطِّم جذع شجرة الدفة، أو المروحة، أو كلتيهما.»

قال فراونينجشيلد مُتلعثمًا: «أخشى ألا تتمكَّن من رؤية القبطان مرةً أخرى. لقد كان حريصًا جدًّا على المغادرة، وأنا أظن أنه قد خرج الآن إلى مياه البحر المفتوحة.»

علَّق سترانلي بشكلٍ غيرِ مبالٍ: «آه، في هذه الحالة، سأواسي نفسي من خلال التأكيد على أن باخرته لم تتضرر.»

عاد القارب ذو المحرِّك في الوقت المحدَّد ودخل ركَّابه اليخت دون أن يراهم ضيف سيدهم. تمَّ رفعُ القارب ذي المحرِّك على متن اليخت، وقال القبطان، قادمًا من الخلف:

«أي أوامر أخرى، يا سيدي؟»

«نعم. بليموث، إذا سمحت. وأيها القبطان، توقَّف فقط في طريقك عند المخيم الذي بلغني أنه يقع على الضفة اليُسرى للنهر. وتوقَّف عند رصيف المرفأ إن وجد؛ وإن لم يكن هناك واحدٌ، فربما يكون زورق السيد فراونينجشيلد في انتظاره. هناك بعض الصناديق التي ستَنتقِل إلى الشاطئ.»

انطلقت الباخرة إلى أسفل النهر بسرعةٍ كافية. جلس فراونينجشيلد صامتًا جدًّا، لكن مضيفه اختلق الثرثرةَ بسبب صمت الطرف الآخر. كان يروي قصصًا مُسلية، وتجاربَ غريبة ذات صلة، وكل ذلك بكياسة رقيقة، وكأن ضيفه هو أكثر الرجال شرفًا، بدلًا من أن يكون مجرد مغامر ولصٍّ في مهمة للبحث عن الذهب.

توقَّف القبطان بخبرةٍ عند رصيف المرفأ. لم يكن هناك شيء يُمكِن رؤيته من الباخرة «راجا» التي رست هناك مؤخَّرًا. وعلى الرغم من حقيقة أنهم رأوا رئيسهم ينطلِق نحو الشاطئ، توقَّفت مجموعاتٌ كبيرة من الرجال عن العمل، وكانوا يقفون على بُعد ٢٠ أو ٣٠ ياردة من رصيف المرفأ، ينظرون بعيون تملؤها الدهشة إلى الباخرة البيضاء الرائعة التي خرجت من البرية. صعد فراونينجشيلد إلى الشاطئ مثل رجلٍ يحلُم، ووضَع بعضُ الخدم صناديقَ الشمبانيا والسيجار على الصخرة بجانبه. انحنى اللورد سترانلي على حاجز السفينة وودَّع المدير.

وقال: «ألا ترغب في القدوم إلى بليموث معنا؟ كل تلك المسافة مقابل مبلغ بسيط. وبزورق سريع تابع للمجلس المحلي. لن نتوقَّف بين تشيلسي وجسر لندن.»

قال فراونينجشيلد بتنهيدة عميقة: «الله يعلم كم أتمنَّى لو أستطيع ذلك.»

صاح سترانلي بمرح: «حسنًا، على الأقل تمتعنا بوقت الظهيرة، وأنا مُمتنٌّ جدًّا لصحبتك. آمل أن تجد معادن ثمينة في هذه البقعة؛ كلونودايك أو كيمبرلي ثانية من الذهب أو الماس. بطريقةٍ ما أعتقد أنك ستَنجح؛ ولذا سأترك لك أطيب تمنياتي. وداعًا، وداعًا.»

كانت السفينة البخارية تتحرَّك مسرعةً في أعالي النهر بينما كان سترانلي يُلوِّح بيده للعصابة المختارة من الأشرار الذين كانوا يُغطُّون أعلى جزء بارز من الحيد البحري.

تمتم في نفسه: «بعد كل شيء، إنهم إنجليزيون، بؤساء، ونحن بعيدون جدًّا عن الوطن!»

المدير الواقف هناك على الصخرة تذكَّر فجأة ورفع قبَّعته. انطلق هتاف من الخارجين عن القانون، ولوَّحوا عاليًا بقبعاتٍ ممزقة.

«اسحب الصافرة، أيها القبطان، واهتف «هيب-هيب-هيب-هوراي»»، ودوَّت الصافرة عبر الدلتا.

وقف المدير لفترة طويلة يراقب القارب المتراجع ويداه مشبوكتان خلفه.

قال: «يا إلهي، لا أعرف ماذا أفعل بهذا الرجل! أعتقد أن القبطان على حق، وأنه سيَستولي على الباخرة «راجا» قبل حلول الظلام، ومع ذلك لن أطلق عليه النار من مدفعي.»

بمجرد أن ابتعد اليخت «ذات الرداء الأبيض» عن أنظار المخيم، وصل الساحلَ في وقت قياسي، وعبر القناة العميقة بين النهر والبحر بشيء من الحذر، ثم اتجه مباشرةً نحو الغرب. كان لا يزال هناك ساعتان تقريبًا على غروب الشمس فوق المحيط الغربي. بعيدًا إلى الشمال، يمكن رؤية الباخرة «راجا» مقتربة جدًّا من الشاطئ أكثر مما يبدو آمنًا تمامًا؛ حيث كانت فكرة القبطان بلا شك هي الابتعاد عن الأنظار خلف أول لسان بحري قد يقابله. وكان القارب المحمَّل بحمولة ثقيلة يحرق الفحم بإسراف طائش، والرياح الخفيفة القادمة من الشاطئ تحمل إلى البحر راية سوداء من الدخان. اتجه سترانلي إلى القبطان.

وسأل: «هل يمكنك اللَّحاق به قبل غروب الشمس؟»

«أعتقد ذلك يا سيدي.»

«حسنًا، أعتقد أن أفضل خططنا هي إقناعه بأسرع ما يمكن بأنه لا يستطيع الهروب منا. لا أحب أن أراه يهدر الفحم بهذه الطريقة. فالفحم أكثر قيمةً من الخام الذي يحمله حتى نصل إلى تينيريف. بأقصى سرعة إلى الأمام، أيها القبطان.»

ارتفع طنين التوربينات جدًّا، وزاد ارتعاش اليخت بشكلٍ ملحوظ مع اختراق مقدمة السفينة الحادة للمياه بسرعة مُدمِّرة قوارب مزودة بطرابيد. وجد المضيف، وهو يضع فناجين الشاي، على طاولة من الخوص، بعض الصعوبة في الحفاظ على الصحون المهتزة من الكسر. كانت الباخرة «راجا» تسبقهم بحوالي أربع ساعات، وكانت على الأرجح قطعت مسافة ٣٠ عقدة من الطريق الطويل أمامها. بدا أنها تصعد لأعلى ولأعلى في الماء، وكان لا يزال هناك ربع ساعة على غروب الشمس فوق الأفق عندما جاء اليخت «ذات الرداء الأبيض» مخترقًا الماء من الجانب المواجه لليابسة، يحملُه الآن قوة دفعه؛ حيث تم إيقاف

التوربينات من مسافة بعيدة. ومن الواضح أن كلَّ مَن كان على متن الباخرة «راجا» كان يتكئ على الحاجز يراقب السرعة المذهلة للقارب الشبيه ببجعة، بيضاء ورشيقة، بينما كانت تتباطأ سرعته تدريجيًّا. لاحظ سترانلي وجه القبطان القَلِق، وصاح قائلًا:

«أخبِر الوقَّادين لديك أن يقتصدوا في ذلك الفحم.» أجاب القبطان بعدوانية:

«لا أَحد يُعطي أوامر على هذه الباخرة سواي.»

أجاب سترانلي: «صحيح تمامًا»، بنبرة أقل استبدادًا من صراخه الأول الحاد. «لهذا السبب أطلب منك إعطاء الأمر.»

أرسل القبطان، بعد لحظة من التردُّد، الأمر للطاقم بالأسفل، ثم عاد مرة أخرى إلى السفينة البيضاء، التي كانت تنطلق الآن بالسرعة ذاتها الخاصة بسفينته السوداء.

قال سترانلي بنبرة صوته العادية: «أيها القبطان، لقد شعرنا أنا وفراونينجشيلد بالأسف الشديد لأنك لم تَستطع تناول الغداء معنا، لذلك ربما ستتكرم بالصعود على متن هذا اليخت وتناول العشاء معي.»

أجاب ربَّان الباخرة «راجا» باقتضاب: «لا يُمكن للقبطان أن يترك سفينته.»

«عادة لا، لكن هذه حالة استثنائية. لديَّ رسالة لك، أيها القبطان.»

«إذن لماذا لم تُعطِها لي ظهرًا؟»

«أوه، تعالَ الآن، لا يستطيع الرجل التفكير في كل شيء عندما يشعر بسعادةٍ غامرة لاستقبال ضيف متوقَّع ومُرحَّب به للغاية. يجب أن تعترف، أيها القبطان، أنه بمجرد أن توليت عمل ساعي البريد في المحيط، لم أُضِع وقتًا للوصول إليك. ولا أعتقد أن هناك أي شيء في هذه المياه كان سيَلحق بك بهذه السرعة كما فعلت. ألن تقوم الآن بعمل استثناء، وتُشرِّفني بحضورك؟»

«لا لن أفعل. إذا كان لديك، كما تقول، رسالة من أجلي، فسأقوم بإلقاء حبل من أجلها.»

«حسنًا، في ظاهر الأمر، يبدو ذلك عادلًا. رجل في إنجلترا يُلقي لك حبلًا وأنت تلقي حبلًا لحبله. ومع ذلك، فإن هذه الرسالة، على الرغم من أنها موجَّهة إليك، لا أنوي التخلي عنها. هناك العديد من المستندات في جيبي وأود أن أعرضها عليك، وأود أن أقدِّم بعض التفسيرات التي ستُثير اهتمامك.»

«انظر هنا، سيد سترانلي، أنا قبطان على متن هذه الباخرة، وأنا في أعالي البحار. أُحذِّرك، أمام الشهود هنا، من أنَّ أي تدخل من جانبك هو قرصنة. لن أصعد على متن

باخرتك، ولن أسمح لأي شخص من باخرتك بالصعود على متن باخرتي. أنا لا أتلقَّى أوامر من أحد سوى سادتي، أصحاب هذه السفينة. أنا الآن مُلزَم بأوامرهم، وأتصرَّف وفقًا لها. لن أتقبل أي تدخل.»

«مرةً أخرى أقول إنك مُحقٌّ تمامًا أيها القبطان. آراؤك رائعة، ووجهات نظرك عن الواجب البحري صحيحة. ومع ذلك، من الضروري أن نتمتَّع أنا وأنت بمحادثة هادئة معًا، وأطلب منك أن تُسدي لي معروفًا وتأتي على متن اليخت.»

«حسنًا، لن أفعل.»

«إذن، إذا لم تتغيَّر ظروف المرء لتناسبه، فعلى المرء أن يتغير ليتغلب على ظروفه. أطلب إذنك للصعود على متن سفينتك.»

«لن أُعطيَكَ الإذن. لقد أخبرتك بذلك من قبل. الآن، ابتعد من هنا، وإلا سأضع قذيفة مدفع في غرفة المحركات.»

«أوه، هل لديك مدفع على متن الباخرة؟ يا له من أمر جميل! نحن غير مُسلَّحين تمامًا، لكنِّي أود أن أقول، أيها القبطان، إنه من المرجح جدًّا ألا تتسبب قذيفة المدفع في حدوث ضرر كبير. يمكنك حتى أن تزرعَ لغمًا عائمًا أمام اليخت «ذات الرداء الأبيض»، وعلى الرغم من أنه من المُحتمَل أن يفجِّر مقدِّمته، إلا أنني أعتقد أنه بإمكاني الزحف للخلف، مثل سرطان البحر، إلى أقرب ميناء؛ حيث شقَّت سفينة وايت ستار «سوفيك» طريقها من ليزارد إلى ساوثهامبتون.»

«هلا تبتعد من هنا يا سيدي؟»

«لا، وأنت لن تُطلقَ علينا النار أيضًا، أيها القبطان. ليس من آداب البحر إطلاق قذائف المدفع على رجلٍ حتى تَنتهيَ من السيجار الذي قدَّمه لك. أكره بشدة أن أشير إلى الهدايا الخاصة بي بهذه الطريقة، ولكن ما زلت أتمنَّى أن تفهم أنني على دراية جيدة بالقانون البحري.»

«أريد أن أنسجم مع رحلتي، سيد سترانلي، دون مضايقة.»

«يا إلهي، فليبارك الرب قلبك المحب للبحار، أيها القبطان، وتَنسجم مع رحلتك. إذا كان بإمكانك الهروب منا، فلا تَدعْني أضع أي عقبة في طريقك.»

«هلا تبتعد يا سيدي؟»

«بالتأكيد لا. أنا لم أتجاوز حقوقي على الإطلاق. وهذا الجزء من المحيط يخصُّني بقدرِ ما يخص الباخرة «راجا». أنا لا أؤخرك على الإطلاق، وكل حديثك عن التدخل هو

مجرد خداع. إذا استخدمت قاربي بشكلٍ قد يُعرِّض سفينتك للخطر، فقد يكون لك الحق في الاعتراض؛ لكني أَلفِت انتباهك إلى حقيقةِ أننا مُسيطرون بالكامل، ويُمكنني أن أحافظ على مسافة صغيرة جدًّا بين السفينتين. إذا ذهبت بعيدًا، فلن أتمكَّن من التحدُّث معك دون إجهاد حلقي، وهو ما أرفض فعله. الآن، أنت لن تأتي على متن سفينتي، ولن تسمح لي بالصعود على متن سفينتك.»

«هذا صحيح.»

«حسنًا، لا أعتقد ذلك. ومع هذا، فأنت تُجبرُني على القيام بما يجب عليَّ بشدة عدم فعله، لصالحك، وهو أنني مُضطرٌّ لقراءة رسالتك، والوثائق التي أشرت إليها، على مسمع من طاقمك وطاقمي.»

«يُمكنك قراءة ما يعجبك للطاقم.»

«أيها القبطان، أطلب منك إعادة النظر في هذا الرأي. أعتقد أنك ربما تكون قد أبديت مثل هذه الملاحظة بصدقٍ في أيِّ رحلة أخرى قمت بها على الإطلاق خلال حياتك البحرية الطويلة، باستثناء هذه الرحلة. فقط فكِّر للحظة. لا تتسرَّع في الرد، وتأكَّد أنني لا أعني أيَّ ضرر لك ولا لأي شخص آخرَ على متن سفينتك. بل على العكس تمامًا. ما أنوي فعله سيكون لمصلحتك إلى حدٍّ كبير، ولمصلحة كلِّ مَن معك.»

عندما أشار اللورد سترانلي إلى رحلته الحالية، وقف القبطان، الذي كان يتَّكئ على الحاجز، فجأة. كان الرجال يتهامسون بعضهم مع بعض. رأى القبطان أن سترانلي قد أخرج من جيبه عدة مظاريف، ووقف هناك في انتظارِ ردِّه. أخيرًا قال القبطان بصوتٍ أجش:

«هل ستأتي بمفردك يا سيدي؟»

«أوه، بمفردي تمامًا، بالطبع، بما أنها رغبتك، أو يُمكنك القدوم إلى هنا مع نصف دزينة أو دزينة من الرجال كحراس شخصيين لك، إذا أردت. وأحضر المدفع أيضًا، إذا كان سيجعلك ذلك تشعر بأمان أكبر.»

«أفضِّل أن تأتي على متن الباخرة هنا، يا سيدي.»

«جيد جدًّا. فلتقذف حبلًا أقوى قليلًا مما كنت ستُرسله للحصول على الرسالة، وسأكون معك في لمح البصر.»

«ولكن كيف لي أن أعرف أن الآخرين لن يتسلقوا؟»

«حسنًا، يا إلهي، سلِّح رجالك بالعتلات، واطرحهم أرضًا مرة أخرى. لا تجعلني أنتظر هنا طوال الليل. سيحلُّ الظلام قريبًا جدًّا، ولن آخذ أكثر من ١٠ دقائق من

وقتك. يبدو أنك متلهف جدًّا لحدوث قتال، لكني لا أستطيع مساعدتك. فأنا رجل سلام، ولهذا السبب أرتجف عندما تتحدَّث معي عن المدفع. أقسم أنني سأُخبر السير هنري كامبل-بانرمان والرئيس روزفلت بالطريقة التي تتصرَّف بها. إنك تُمثِّل خطرًا فعليًّا في أعالي البحار، مع إنذاراتك، وطلقاتك عبر غرفة المحركات، وكل ذلك. فلتقذف حبلًا، واجعل رجالك يُراقبون بحيث يتأكدون من أن اليخت لا يقفز على متن سفينتك. لا عجب أننا غير محبوبين نحن الإنجليزيِّين بسبب توحُّدنا.»

بدا القبطان خجولًا بشدة من مخاوفه في مواجهة هذا المزاح، وإلى جانب ذلك، ضحك بعض أفراد طاقمه، الأمر الذي أحرجه أكثر وأكثر. تدلَّى حبلٌ يتلوَّى في الهواء، وسقط مباشرةً على سطح اليخت.

صاح ستانلي: «تشبَّث جيدًا بالأعلى»، وهو يشد الحبل، وتأرجح بعيدًا عن قاربه، وتسلَّق بصعوبة جانب الباخرة «راجا» الأسود الشبيه بالجرف بيديه وقدميه مثل القرد.

الفصل السابع

قبطان الباخرة «راجا» يصبح ثريًّا

سار القبطان بحزنٍ شديد إلى الوكر الكريه الرائحة الذي يسميه المقصورة، ونزل سترانلي معه على الدَّرج، وجلس على الطاولة.

بدأ قائلًا: «الآن أيها القبطان، هل يُمكن أن يسمعنا أحدٌ؟»

«لا يا سيدي.»

«حسنًا، لقد جئتُ إلى هنا كصديق لك. أريد أن أُنقذَك، إذا أمكن.»

«تنقذني؟»

«نعم.»

«لست بحاجة إلى أي إنقاذ.»

«كلَّا، أنت بحاجةٍ إلى ذلك، وبدرجةٍ كبيرة. اعتقدت في البداية أن فراونينجشيلد كان الجاني الوحيد، وأنك مجرَّد ضحية بريئة. وعلمت اليوم أن الأمر لم يكن كذلك؛ في الواقع، كنت أظن ذلك من قبلُ؛ لأنه عندما ساعدتَ في زرع تلك الألغام عبر نهر باراماكابو، لا بد أنك كنت تعلم أنك ترتكب جريمة كبرى.»

«إذن لم يكن الأمر مجرد صدفة؛ أنت «قمت» بإرسال جذوع الأشجار؟»

«بالطبع فعلت.»

«هل تُراقبنا منذ أن وصلنا إلى هناك؟»

«نعم، لقد جئت من إنجلترا لهذا الغرض. غادرتُ بعد أسبوع من مغادرتك، وكنت هناك قبلك بأسبوع، أكثر أو أقل. ورجلي، ماكيلر، الذي اختطفتَه على متن هذه الباخرة في ساوثهامبتون ...»

«أنا لم أختطفْه يا سيدي. لقد كان فراونينجشيلد.»

«أوه، أنا أعرف كل شيء عن هذا الأمر. ماكيلر على قاربي الآن، على بُعد ٣٠٠ ياردة من مكان جلوسك. لقد كان على قمَّة التل ومعه تلسكوب، يفحص كلَّ فعلٍ قمتَ به منذ أن رسوت.»

«لكنَّني مُضطرٌّ إلى إطاعة الأوامر.»

«أوه، لا، أنتَ لستَ كذلك. إذا طُلب منك ارتكابُ عمل إجرامي، فلا يجب عليك الرفض فحسب، بل أنتَ مُلزَم أخلاقيًّا بتقديم المعلومات إلى السلطات.»

«لم يكن لديَّ أي علاقة بوضع ماكيلر في المخزن. فراونينجشيلد هو مَن وضَعَه، ولم أكن أعرف أنه كان هناك حتى قضينا أكثرَ من يوم في البحر. كنتُ أنا مَن أصرَّ على أنه يجب إرساله إلى الشاطئ مع ربَّان السفينة. أراد فراونينجشيلد أن يأخذَه معنا.»

«هذا لا يُهم، أيها القبطان. بالطبع، حينما علمت أن رجلًا قد اختُطف بهذه الطريقة على متن سفينتك، كان عليك أن تستدير، وتعود مباشرة إلى ساوثهامبتون، وتُقدِّم المعلومات إلى السلطات. ولكن حتى لو لم يُثِر مثل هذا العمل غير القانوني شكوكك، فلا بد أنك كنت تعلم جيدًا عندما زرعت تلك الألغام أنها لم تكن بالونات لعبة كنتَ تضعها في الماء. لقد فات أوان التظاهر بالبراءة. لقد تلقَّيتَ رشوةً لارتكاب جريمة.»

«لم يتم وضعُ الألغام العائمة في المياه الإنجليزية.»

«سيدي العزيز، جريمتك ضد القانون الدولي. لا يُسمح لأي شخص بوضع ألغامٍ عائمة في نهرٍ قد تعبُر به باخرة بريطانية، وفيما يتعلَّق بذلك، فإنك تضعها هناك عن عمدٍ لتحطيم باخرة بريطانية. أنت في هذه اللحظة تقود سفينةَ قرصنةٍ مليئة بالمعدن الخام المسروق.»

«لا أعرف شيئًا عن ذلك يا سيدي. كانت هذه السفينة مُستأجَرة، وقد أخبرني سادتي أن أطيع أوامر الذين استأجروها، وهم شوارتزبرود العجوز وعصابته.»

«نحن نضيِّع الوقت فحسب، أيها القبطان. أنت تتحدَّث عن عقود الإيجار والمالكين. حسنًا، أنا مالك الباخرة «راجا». اشتريتها من السادة سبارلينج آند بيلج.»

«كما تقول. لا علاقة لي بهذا. حتى إذا اشتريتَ السفينة، فأنت مُلزَم بموجب القانون بتنفيذ عقد الإيجار. وحتى انتهاء عقد الإيجار وعدم تجديده، يظلُّ الملاك بلا سلطة. أنا أمتثل لعقد الإيجار طوال فترة سريانه، وما دمتُ أفعل ذلك، فأنا لا أرتكب خطأً.»

«أنت تُدرك جيدًا ما تفعله. أنا واثق من ذلك. فأنت لستَ ساذَجًا. الآن، أنت لا تبحر باتجاه البرتغال، أنت تُبحر باتجاه شرطي، وأريد أن أُنقذَك من ذلك الشرطي.»

قال القبطان ساخرًا: «أوه، نعم، أنت ترغب في امتلاك السفينة والحمولة لنفسك، أليس كذلك؟»

«بلى، بالضبط.»

«حسنًا، لن تحصل عليها!» صاح الربَّان بغضب، وهو يضرب الطاولة بقبضته الضخمة. «أنت تتحدَّث معي عن السرقة! ماذا تكون؟ يا إلهي، أنت قرصان، هذا ما أنت عليه. قلت ذلك لفراونينجشيلد، ولم يُصدِّقني. كان يعتقد أنك لن تجرؤ على الصعود على متن سفينتي في أعالي البحار؛ التي تعرفها بشكلٍ أفضل. أنت وشرطيَّك! يا إلهي، اللعنة، سيكون لديَّ ما يُبرِّر شنْقي لك على أحد طرفي عارضة الشراع!»

احتجَّ سترانلي بلطفٍ شديد: «لا يُمكنُك فعلُ ذلك، أيها القبطان.»

«لماذا؟»

«لأن هاتين الصاريتين لديك غير مزوَّدتَين بعوارض أشرعة. يمكنك أن تُعلِّقني من المدخنة، أو تسمح لي بالتدلي بالسلاسل من أحد أذرع الرافعة البخارية، هذا كلُّ ما يُمكنك فعْله.»

«لماذا لا تتسلَّق أنت وعصابتك من الأشرار على متن السفينة مثل القراصنة الحقيقيين، وتجعلني أمشي على اللوح الخشبي؟»

«لقد صعدت على متنها مثل قرصان حقيقي، وسأجعلك تمشي على اللوح الخشبي.»

«يا لك من شيطان!» صاح القبطان، وهو ينهض، واضعًا يديه المضمومتين على الطاولة، ووجهه المتورِّد بشكلٍ طبيعي يزداد احمرارًا من الغضب. وتابع قائلًا: «سأريك — سأريك ما نفعله بالرجال من نوعِكم الذين يجرءون على الصعود على متن سفينة في أعالي البحار.»

قال سترانلي محاولًا تهدئته: «اجلس يا عزيزي، اجلس.» وتابع قائلًا: «لا تتبجَّح. ما فائدة إحداث ضجة؟ دعنا نناقش الأمر وديًّا.»

صاح القبطان بأعلى صوت، وهو يرتجف ويشعر بالاستياء: «ستجعلُني أسير على اللوح الخشبي، أليس كذلك؟»

«أوه، حسنًا، حسنًا، إذا كنت تَعترِض، فهذا بالطبع يغيِّر من طبيعة الموقف. اعتقدت أن المشيَ على اللوح الخشبي كان تسليةً بحرية مألوفة. يبدو أن الصديق كلارك راسل قد خدَعني. إذا كان الأمر مُنافيًا للآداب، فلنتوقَّف عن قول المزيد بشأنه. اجلس أيها القبطان.»

لكن القبطان لم يجلس. كان يُحملِق بعينَيه، ووجهه يزداد احمرارًا، وشفتاه ترتجفان من شدة الكراهية.

«جئت مع اليخت اللعبة الخاص بك!»

«إنها لعبة، أيها القبطان، تَسير أسرع قليلًا من هذه السفينة القديمة البطيئة.»

«أنت وصديقك الوقح تَرتديان زي ضباط البحرية، وتَجرُؤان على الصعود على متن سفينتي.»

«هذا رائع، أيها القبطان. أحبُّ هذه العبارة، «على متن سفينتي». يسعدني أنك تؤكد لي صحة كلام كلارك راسل. نعم، لقد جئت على متن سفينتك. ماذا بعد؟»

«ماذا بعد؟ يا إلهي، إذن أنت تُحاول أن تُهددني في مقصورتي الخاصة، على سفينتي الخاصة. اللعنة، مَن تعتقد نفسك، أودُّ أن أعرف؟»

«أنا إيرل سترانلي من ويتشوود.»

الآن، عاد القبطان إلى كرسيِّه ببطء، دون أن يُطلب منه، وحدَّق عبر الطاولة في الشاب. هذا الاحترام الكامن للطبقة الأرستقراطية الذي يتخلَّل حتى أكثر رعايا صاحبة الجلالة البريطانية الديمقراطيين، تسبَّب في انهيار فوري للوحشية التي كانت تُهدِّد بحدوث نهاية مفاجئة للمناقشة. ومن الغريب بما فيه الكفاية أن القبطان الصادق لم يُفكِّر أبدًا في التشكيك في هذا البيان، الذي تم إصداره بنبرة هادئة ولكن مُقنعة للغاية.

قال لاهثًا: «إيرل سترانلي!»

«نعم؛ من ويتشوود. نحن نصرُّ دائمًا على ويتشوود، على الرغم من تأكُّدي من عدم معرفة السبب؛ لأنه لا يوجد لورد سترانلي آخر، وويتشوود بعيدة كلَّ البعد عن أن تكون أهم ممتلكاتي. ومع ذلك، أنت تعلم، أيها القبطان. الحياة الإنجليزية مليئة بالتناقضات.»

«اللورد الثري سترانلي؟» تساءل القبطان، مع التشديد على كلمة ثري.

«لقد أخبرتك للتوِّ أن هناك واحدًا فقط.»

«إذن لماذا بحق السماء تقوم بالقرصنة في أعالي البحار؟ هل هذه هي الطريقة التي كسبت بها أموالك؟»

«لا، لقد جمع أسلافي أموالي بشكلٍ أو بآخر، لكنني أعتقد أن طريقتهم كانت قطع الطرق وليس القرصنة. يبدو أن نهب الأراضي التي لا تخصُّهم شغل أوقات فراغهم؛ ولهذا، نتيجة ظهور المدن الصناعية في الجزء الأوسط من البلاد، على أجزاء من ممتلكاتنا، واكتشاف مناجم فحم، وما إلى ذلك، ازدهرت عائلتي ازدهارًا أفضلَ مما تستحق، وها أنا ذا مُمثِّل القرن العشرين لها.»

«إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تتدخَّل في هذه المسألة؟»

«لأنني أحبُّ رؤية اهتمام المرء بشئونه الخاصة. فالسفينة التي تبحر بها بجدارة مِلكي. اشتريتها بعد أيامٍ قليلة من مُغادرتِكَ ساوثهامبتون. إليك سند نقل الملكية، وهذه هي الرسالة التي تحدَّثت عنها، والتي كتبها السادة سبارلينج آند بيلج، لإبلاغك بأنني المالك الجديد، وأنني سأكون مسئولًا عن راتبك فيما بعد، ونتيجةً لذلك سيسرُّهم جدًّا، كما سيسرني أيضًا بالتأكيد، إذا فعلتَ ما أقوله لك.»

قرأ القبطان الوثائق بعناية، ثم نظر لأعلى.

«حسنًا إنه توقيع السادة سبارلينج آند بيلج، ولا أحد يعرفُه أفضل مني، ولكن ماذا عن الحمولة؟ هل تنوي تفريغها في لشبونة؟»

«لا، أعتزم الانطلاق بها إلى بليموث.»

«ولكن حتى لو كانت السفينة لك، فإن الحمولة ليست كذلك.»

«بالتأكيد كنت تعلم أنهم كانوا يسرقون المعدن الخام، أيها القبطان؟»

«قالوا لي إن لهم الحقَّ في ذلك لمدة ثلاثة أشهر. أراني السيد شوارتزبرود أوراقًا بهذا الصدد. لهذا السبب كانوا في عجلةٍ من أمرهم. كانوا يرغبون في الحصول على أكبرِ قدْر ممكن في الوقت المحدَّد، وعرضوا عليَّ مكافأةً قدرها خمسة آلاف جنيه إسترليني علاوة على راتبي إذا قمت بإجراء ثلاث رحلات إلى لشبونة، وألفَين لكل رحلة إضافية في غضون ذلك الوقت.»

«إذن أيها القبطان، لماذا لم يركِّزوا طاقاتهم على التنقيب عن المعدن الخام، ولم يكلِّفوا أنفسهم عناء زرع الألغام في النهر؟»

«يا إلهي، أخبرني فراونينجشيلد أنهم كانوا يبحثون عن بعض القراصنة الذين سيتدخَّلون معهم. لم نكن نَنوي تفجير أي سفن إلا إذا كانت مصمَّمة على عبور النهر رغمًا عنا. لهذا لم نضع الألغام عند مصب النهر. وعلى الأرض المرتفعة غرب المخيم، وضع فراونينجشيلد رجلين للمراقبة طوال الوقت. إذا رأيا أيَّ سفينة تقترب، كان عليهما النزول إلى النهر في قاربٍ تم الاحتفاظ به أسفل المناجم، ويأمران الباخرة بالعودة. وإذا رفض القبطان العودة، حينها يأتي على مسئوليته الخاصة.»

«فهمت. وهل أخبر فراونينجشيلد رجلَيه بإبلاغ القبطان وطاقمه أن النهر مُلغَّم؟»

«لا أعلم.»

«الآن، أيها القبطان، بالحديث كبحَّار إلى آخرَ، ألم يبدُ لك كلُّ هذا، بالإضافة إلى المبالغ المالية الكبيرة التي وُعدت بها، أمرًا مريبًا إلى حدٍّ ما؟ هل بدا لك هذا تجارة نزيهة؟»

«حسنًا، أيها الإيرل، لقد أبحرت إلى جميع أنحاء البحار البعيدة، وعرفت أن الأشياء التي تم القيام بها كانت تبدو مريبة جدًّا في ميناء ساوثهامبتون، ومع ذلك فقد كانت على ما يُرام بقدرِ ما عرفت من قبل. فهناك أشياءُ تحدُث في البحار الجنوبية تبدو غريبة إلى حدٍّ ما في قناة بريستول، كما تعلم.»

«إذن، ألم تَعتقِد أنك ستتعرَّض لأي مخاطر؟»

«أوه، مخاطر! البحَّار يتعرَّض لمخاطرَ كلَّ مرة يُغادر الميناء. وإذا كان هذا يمثِّل مخاطرة، فقد كان هناك أموال جيدة في نهاية الأمر، وهذا ليس الحال دائمًا عندما يبحر المرء على متن باخرة متجولة في الوقت الحاضر، نتيجة تقطيع كل شيء إلى أشلاء بسبب المنافسة الأجنبية. كما ترى، أيها الإيرل، الرجال المولودون ولديهم مال لا يُقدِّرون دائمًا ما سيفعله الناس الذين يُحاولون تجميع القليلَ من المال بالرغم من كبرِ سنِّهم. فأنا لديَّ زوجة وعائلة في منزلٍ مُستأجَر في ساوثهامبتون، بانتظاري ثلاث فتيات في الوطن، أيها الإيرل، تُرِكْنَ بلا حولٍ ولا قوة فقيرات، فضلًا عن امرأتي العجوز.»

ألقت عينا القبطان نظرةً حالِمةً بعيدة بدا وكأنها تخترق المستقبل وتتساءل بشأنه. لقد نسي، في هذه اللحظة، الشاب الجالس أمامه، ومضى كما لو كان يتحدَّث إلى نفسه.

«هناك قطعة أرض تمتد إلى مصب النهر في ساوثهامبتون — خمسة أفدنة وأكثر قليلًا. قام أحدهم ببناء كوخ هناك ووضع سارية علم على العُشب أمامه. ثم سئموا منه، وهو معروض للبيع. يُريدون ألف جنيه مقابل المكان، شاملًا كلَّ شيء. هناك عددٌ قليل من الأشجار، وهناك مبانٍ خارجية؛ مكان رائع لتربية الدجاج. ثم هناك شرفة في المقدمة، وقد يجلس بها رجل عجوز على مقعدٍ مريح يدخِّن غليونه، ويرى السفن الأمريكية وهي تبحر. وعائلتي تعيش في منزلٍ مستأجَر في شارع جانبي. لطالَما أردت قطعة الأرض تلك، أيها الإيرل، لكن لم يكن لديَّ مال فائض، وعندما أنوي الاستقرار بها، ربما ستكون ملكًا لشخص آخر، وبأيِّ حال من الأحوال لم نكن لنتمكَّن من تحمُّل تكاليفها. مخاطر؟ بالطبع هناك مخاطر، ولكن عندما أفكِّر في ذلك الكوخ الصغير — حسنًا، أقبل بالمخاطرة، أيها الإيرل.»

قال الإيرل بلطف: «عزيزي القبطان، إن قطعةَ أرضِكَ تجعلُني أخجل من نفسي ومن محاضراتي الأخلاقية. فأنا لديَّ الكثير من الأراضي، والبعض الآخر يمتلك القليل جدًّا. ها هو ذا رجلٌ مجتهد مثلك، لا يملك أرضًا، وها هو ذا كسول مثلي لديه آلاف الأفدنة! فلتَشنُقْني إذا لم أتحوَّل إلى راديكالي لولا المثال الفظيع لوليام توماس ستيد.

حسنًا، أيها القبطان، قطعة الأرض هذه لك من هذه اللحظة. إذا اشتراها شخصٌ آخر في غيابك، فسنطردُه. سأدفع لك كلَّ ما وعدك به شوارتزبرود العجوز سواء قمت بالرحلات أم لا. وفي واقع الأمر، لن تقوم بالرحلات. لا أعتقد أن شوارتزبرود كان ينوي أبدًا الوفاء بوعده، وأشكُّ كثيرًا في إمكانية حصولك على المال. الآن، أنا ممتاز في الحصول على المال، وأعتقد أنه يمكنني إقناع شوارتزبرود بالمطالبة بامتياز الدفع لك. كما ترى رجال المدينة هؤلاء أذكياءُ جدًّا بالمقارنة بالرجال البسطاء والصادقين مثلك ومثلي. وبعد أن تنتهيَ من عملهم، سيتركونك دون مساعدة إذا تمَّ القبض عليك، أو سيَحرمونك من أجرك إذا هربت. يمكنك التأكُّد من ذلك؛ فقد فعل شوارتزبرود وجماعته كلَّ شيء بأكثر الطرق القانونية. في الواقع، في المرة الأخيرة التي رأيتُه فيها، تملَّقَني حتى حصل مني على وثيقةٍ لديَّ سببٌ للاعتقاد بأنها تُغطِّي السلوك الإجرامي لهذه الرحلة الاستكشافية. ليس لديَّ أدنى شك في أنني إذا رفعت القضية إلى المحاكم القانونية فسوف أُهزَم. لهذا السبب فضَّلتُ محاربةَ القضية في أعالي البحار؛ حيث لا يُمكن إصدار أمر قضائي إلا بعد فوات الأوان. أنت وأنا، أيها القبطان، لسنا أذكياءَ بما يكفي لمواجهة هؤلاء الأوغاد.»

كان هناك ما يقارب بسمة متكلَّفة من الرضا عن النفس على وجه القبطان حيث وجد نفسه مرتبطًا برجلٍ من منزلة اللورد ستراني.

قال: «حسنًا، أيها الإيرل، ماذا تريدني أن أفعل؟»

قاطعتهم الخطوات الثقيلة للضابط نازلًا السُّلم.

«ماذا تريد؟» صاح القبطان بأعلى صوت. «اخرج من هنا.»

أوضح الضابط قائلًا: «عفوًا يا سيدي، لكنهم يشعرون بالقلق على متن اليخت، ويريدون معرفة ماذا حلَّ برئيسهم.»

قال ستراني: «فقط اعذرني للحظة، أيها القبطان، وسأتحدَّث معهم. أنت تعلم أنك تطاولت علينا إلى حدٍّ ما عندما نادينا عليك لأول مرة، وربما يعتقدون أنك فعلت بي كما فعلت في ماكيلر. أشعر بالإطراء لأنني صنعت تورية هناك؛ لأن كلمة «كيلر» هي الكلمة الألمانية للقبو.» قفز الشاب بخفةٍ فوق السُّلم، وتوجَّه إلى جانب السفينة.

صاح ماكيلر: «هل كلُّ شيء على ما يُرام يا سيدي؟»

«على ما يُرام، شكرًا.»

«سيحلُّ الظلام، كما تعلم. ألم يكن من الأفضل أن ألقيَ مسدسًا لك، وإذا جرَّبوا أيَّ حِيل، يُمكنُك إطلاقه، وسنكون على متن السفينة قبل أن تقول «شوارتزبرود»».

«آه، ماكيلر، ماكيلر، أنت تفكِّر دائمًا في الأسلحة الفتَّاكة وأعمال القرصنة! لا عجب أن أحصل على سمعةٍ سيئة في الأوساط البحرية. كل شيء يسير بسلاسة، وأتوقَّع أن أكون معك في غضون ١٠ دقائق.»

عاد سترانلي إلى المقصورة؛ حيث وجد القبطان جالسًا، محدِّقًا في الفضاء. وكان أحدهم قد أشعل مصباح زيت معطر.

«حسنًا، أيها القبطان، قبل الإجابة عن سؤالك، أودُّ أن أقول إنني مُهتم بحركة المرور التجارية بصرف النظر عن ملكيتي للباخرة «راجا». وقبل أن أغادر إنجلترا، حجزت لك وظيفة القبطان على باخرةٍ جديدة تُسمَّى «ويتشوود»، وهي ضعف حجم هذا القارب، ومخصَّصة للتجارة في أمريكا الجنوبية. أعتقد أنها ستكون جاهزةً لك بمجرَّد أن نصل إلى بليموث، وفي اللحظة التي نكون فيها في بليموث، سأُسلِّمُك شيكًا بألف جنيه لتأمين تلك القطعة من الأرض بجانب مصب النهر في ساوثهامبتون. صِف لي الطاقمَ المتواجد هنا على متن السفينة؟ هل يتمرَّدون، أم يسهُل التعامل معهم؟»

«أوه، الطاقم بخير، أيها الإيرل. إنهم رجال من ديفون؛ معظمهم. كان هناك عدد كبير من المسافرين الذين أخذناهم تحت مسئولية فراونينجشيلد، لكنهم تجمَّعوا غالبًا من تلقاء أنفسهم، وتجنَّبوا التعامل مع الطاقم. الطاقم بخير، يا سيدي.»

«هل تعتقد أن أيًّا من أفراد الطاقم كان على علمٍ بما يجري؟»

«لا، لا أعتقد أن أي شخص كان يعرف ما كان يحدث إلا أنا وفراونينجشيلد.»

«هل ترغب في أن يكون طاقمك الحالي معك على الباخرة الجديدة؟»

«نعم يا سيدي، أرغب في ذلك.»

«والضباط أيضًا؟»

«نعم. والضباط أيضًا.»

«حسنًا، أريدك أن تصعد على متن يختي، وتكون قبطانًا له من هنا إلى بليموث. واصطحب الضابط معك، إذا كنت ترغب في ذلك، أو أيًّا من الضباط الآخرين، وكذلك أفراد الطاقم ولكن ليس رجال ديفون. وسأضع بعضًا من رجالي على متن السفينة مكانهم.»

«هل تقصد أن أترك السفينة، أيها اللورد؟»

«نعم. سيحلُّ قبطان اليخت وضابطه مكانك ومكان ضابطك.»

كان وجه القبطان يُضرَب به المثلُ في التردُّد والشك.

«لا يبدو الأمر على ما يُرام، أيها اللورد.»

«لقد أخبرك المُلَّاك السابقون أن تُطيعَني، وأنا المالك الجديد. هذا صحيح تمامًا. لقد قمت بنقلك إلى اليخت كما لو كنت أقوم بنقلك إلى معدية، من أجل أخذك بشكلٍ أسرعَ إلى مقرِّ القيادة الجديد. سنَصلُ إلى بليموث في غضون أسبوعين، أو ثلاثة أسابيع قبل وصول الباخرة «راجا». أفضِّل ألا تذهبَ إلى ساوثهامبتون، ولكن إذا كنت تعتقد أنه يمكنك الابتعادُ عن الأنظار، فلا أمانع المرور سريعًا من هناك، ورؤية عائلتك، وتأمين تلك الملكية. في الواقع، إذا كانت المنطقة التعدينية لا تزال معروضة للبيع، وكان المنزل خاليًا، فلا يوجد سبب يمنعك من نقل أسرتك إليه. سيكون لديك الوقت الكافي، ثم يمكنك العودة إلى بليموث، والاعتناء بسفينتك الجديدة، وتعيين الرجال الذين تحتاجهم لتكملة طاقم الباخرة «راجا» عند وصولها.»

لم يردَّ القبطان: بل أظهر رأسه المنحني وجبينه المتجعِّد وجودَ صراع عقلي.

«أظنُّ أنك معروف جدًّا في ساوثهامبتون؟»

قال: «لا؛ لست معروفًا جدًّا كما تعتقد. أمكث هناك لبعض الوقت، ثم أنطلِق في رحلة طويلة. لست معروفًا كما تعتقد.»

«كما ترى، أيها القبطان، أنا مُصمِّم على أن أحصل من شوارتزبرود العجوز على المال الذي سأدفعه ليس فقط لك، ولكن لفراونينجشيلد ورجاله. فأنا لا أنوي تركهم عالقين هناك بينما يجلس شوارتزبرود بأمانٍ في لندن؛ لذلك أتمنَّى ألا تصل أيُّ شائعات حولَ ما حدث إلى آذان شوارتزبرود ونقابته؛ ولذا لا أريد أن يراك ويتعرَّف عليك أيُّ شخص، إذا كان ذلك ممكنًا، وإذا تم التعرُّف عليك، فاحرص على عدم التحدُّث عما حدث.»

«فهمت. تُريد نقلَ جميع الشهود إلى أمريكا الجنوبية. حسنًا، كما تعلم، أيها اللورد، ولا أعني أيَّ تقليل من احترامك، تبدو طريقتك في فعل الأشياء مريبةً إلى حدٍّ ما، أيضًا، كما قلت منذ قليل.»

«بالطبع يبدو الأمر مريبًا، لكن يجب أن تُقاتِلَ حوتًا بسمكةِ قرشٍ إذا لم يكن لديك حربة. يجب إما أن ألجأ إلى القانون، وهو الحربة، مع شوارتزبرود العجوز، الذي هو الحوت، أو أن أعتمد أساليبه الخاصة، وألعب بسمكةِ القرش. عليك أن تختار طبَق السمك الذي ستأخُذُه، وعليك أن تُعطيَ طلبك للنادل الآن.»

«فلتفترِض أنني رفضت، ماذا ستفعل؟ هل ستُحاول القبض علينا؟»

«يا إلهي، لا. سأتبعك فقط، تمامًا كما تتبع سمكةُ القرش سفينةً محكومًا عليها بالهلاك. وفي اللحظة التي تقترب فيها من ميناءٍ به قنصُل بريطاني، سأتوجَّه إليه سريعًا،

وأعرض أوراقي، وأطبِّق القانون، وهو أمرٌ أنا مُتردِّد في القيام به، كما أخبرتك. ولكن لحظة حدوث ذلك لا يمكنني إنقاذك أيها القبطان. لا أعرف ما العقوبة، أو ما إذا كانت هناك عقوبة. ربما تسمح لك طاعتك للأوامر بالتسلُّل عبر فتحات الشبكة، وربما مرةً أخرى لن يحدث ذلك. وإذا لم يحدث ذلك، فلن تشغل عائلتك هذا الكوخ الصغير عند مصبِّ النهر في ساوثهامبتون، والذي كان ملكك منذ لحظة. أوه، يا إلهي، أنا إما أكرهك أو أرشوك الآن، أيًّا كان الأمر. يجب عليك الاختيار بحرِّية. ومهما حدث، سأشتري قطعة الأرض هذه، وأُقدِّمها لزوجتك، إذا أخبرتني بمكانها، وأعطيتني عنوانها. الآن، أيها القبطان، حدِّد خيارك: الحوت أو القرش.»

أطلق القبطان تنهيدةً عميقة، تكاد تَفطُر القلوب، بدتْ وكأنها تأتي من عميق صيحاته. قام ببطء وثقل، ومدَّ يده.

وقال برصانةٍ، كواحد على وشك اتخاذ قرار مهم: «لورد سترانلي، لورد سترانلي، أنا مُستعدٌّ للسير على اللوح الخشبي.»

عندما خرج اللورد سترانلي من مقصورة القبطان في الباخرة «راجا»، وأخذ نفسًا طويلًا مُرضيًا من هواء المساء الرائع بالخارج، رأى أن القمر قد ارتفع، بينما كان الوهج من غروب الشمس لا يزال يُلوِّن السماء الغربية. تلاشى النسيمُ الخفيف القادم من أفريقيا تمامًا، وكان البحر أملسَ حول السفينتَين كمرآةٍ مصقولة. وبمجرد أن أعطى سترانلي أوامره، أتى قبطان اليخت به إلى جانب الباخرة «راجا»، وتوقَّفت محرِّكات كلتا الباخرتين. كان القبطان ويلكي، مُحذرًا سلفًا، قد حزم جميع متعلقاته، وسرعان ما تأرجح على متن الباخرة السوداء. وقام قبطان الباخرة «راجا» وضابطه بإلقاء متعلقاتهم في الصناديق، وبالتالي تم النقل دون ضياع للوقت.

قال سترانلي: «ماكيلر، أخشى ألا تُصبح الرفاهية من نصيبك، وإلى جانب ذلك، أظهرت لك التجربة على اليخت أن هناك فرصةً ضئيلة لحدوث أي شيء مُثير. لا بد أنه أمرٌ محبِط أن تتذكَّر أنه لم يتمَّ حتى تفريغُ أيٍّ من بنادقك المتعددة الطلقات؛ لذلك سأطلب تأرجُح الصناديق على متن الباخرة «راجا»، مع الذخيرة الكافية لذبح كامل قوَّتنا البحرية، وسأعطيك ستةً من حرَّاس الطرائد. يُمكنك إما استخدام حرَّاس الطرائد لإطلاق النار على الطاقم، أو تسليح الطاقم والقضاء على حراس الطرائد. كنت أنوي اصطحاب طاقم الباخرة «راجا» على متن اليخت، ووضع طاقم اليخت على متن الباخرة «راجا»، لكنَّني أناني جدًّا لدرجةِ أنني لا أستطيع أن أثق بهؤلاء البحارة غير البارعين من باخرةٍ

متجوِّلة مع التنظيم الدقيق إلى حدٍّ ما الخاص باليخت. هل ستقبل العمولة وتُبحرُ إلى الوطن على متن الباخرة «راجا» غير المريحة؟»

قال ماكيلر: «يسرُّني ذلك يا سيدي.» وتابع قائلًا: «كما ترى، أشعر بقليلٍ من عدم اليقين بشأن الحكمة من ترْك القبطان ويلكي دون حمايةٍ مع طاقمٍ غريبٍ برغم كلِّ شيء. يمنحُهم قبطانهم شخصية جيدة، لكن القبطان ويلكي، وهو ضابط صارم بطريقته الخاصة، قد يكون في خلافٍ معهم؛ لذلك من الجيد أن يكون لديه قائدٌ مُتعطِّش للدماء وقوة لا تُقاوَم تحت تصرُّفه. لكن تذكَّر، يا بيتر، أنه مقابل كل بحَّار تُطلقُ عليه النار، يجب على أحد حراس الطرائد أن يتولَّى وظيفة البحَّار، والتي قد تُصبح غيرَ مريحة في عاصفة؛ لذا اقمع روحك الحربية حتى يأمرها القبطان بالخروج. أتخيَّل مظهرك العابس، مثل الإمبراطور الألماني، وأنت تمشي على سطح السفينة، ستُخمِد أيَّ تمرُّد في مهده، إن أمكن ذلك. ومع ذلك، من الآمِن الاحتفاظُ بالبنادق في الخلفية في حالة الطوارئ. لذا اتَّصِل بستة مُتطوِّعين من بين رجالي، وألقِ بحقيبتك على متن القارب ذي الشراع، وبعد ذلك سنودِّع بعضَنا حتى ألتقيَ بك مرة أُخرى في بليموث.» عندما اكتمل التبادل، ابتعد اليخت الأبيض عن السفينةِ المتجوِّلة وسرعان ما اختفى في الشمال مثل الشبح. شاهد القبطان ويلكي رحيله بأسف، ولم يكن سعيدًا بترقيته إلى الباخرة المتجوِّلة المتسخة والقذرة، مع طاقمها المترهِّل الذين يرتدون ثيابًا رثَّة مثل الفزَّاعات. شعر القائد الجديد لليخت أيضًا بأنه ليس في مكانه في هذه السفينة الرائعة، النظيفة بعناية، المطلية بالنيكل، والتي تشبه كعكة العروس، في حين أنَّ البحَّارة، في زيهم الرسمي الأنيق المهندم النظيف، أعطوه انطباعًا بأنه في كابوسٍ حيث تم تكليف جندي أخرق بمسئوليةٍ سرِّية من الضباط. ونظرًا لأنه كان بحجم ويلكي تقريبًا، فقد قام بونديربي الصالح، بناءً على أوامر سترانلي، بتزويده صباح اليوم التالي بزيٍّ رائعٍ أضاف إلى جمال مظهرِه الخارجي دون زيادة راحتِه الداخلية بنسبة كبيرة. ومع ذلك، فهِم القبطان الصريح عمله، بصرفِ النظر عن الزيِّ الذي يرتديه، وسترانلي، الذي درسه بشكلٍ غير ملحوظ أثناء الرحلة، وضع به ثقةً كبيرة، وشعر بالخجل إلى حدٍّ ما من عدم الثقة التي جعلته ينقل القبطان من الباخرة «راجا» لليخت. قبل مرور أسبوع، كان على يقينٍ من أن هذا البحَّار الأجش كان سيأخذ الباخرة «راجا» مباشرةً إلى بليموث بمجرَّد أن يأمر بذلك، تمامًا كما كان يفعل القبطان ويلكي بكل إخلاص. وعلى الرغم من أن سترانلي لم يقُل شيئًا عن هذه الثقة، وحتى إنه كان يشك فيما إذا كان الرجل العجوز البسيط قد أدرَكَ سبب التغيير، إلا أنه قرَّر مع

ذلك إجراء تعديلات، ولكن ليس بالكلام. كان الطقس لطيفًا بشكلٍ ملحوظ طوال الوقت تقريبًا، واشتكى سترانلي من أن الرحلة كانت تُشوِّه جميع روايات كلارك راسل. وتذمَّر للطبيب من أن إيمانه بكلارك راسل يمر بضغوط هائلة.

قال للطبيب: «عندما نصل إلى هدوءٍ مطلق للأمواج والرياح في إحدى روايات كلارك راسل، فإننا نعرف دائمًا ما يُمكن توقُّعه. فجأةً يأتي من الغرب إعصار مُمزِّق يضعنا على نهايات عوارضنا. ثم مطرٌ جامح يجعلنا عاجزين عن الرؤية، وظلمةٌ مطلقة مضاءة فقط بومضات البرق الرائعة. يجب على كل شخص أن يتشبَّث بأي شيء قريب منه: تذهب في البحر أقفاص الدجاج، وهناك هرج عام بحيث لا يمكن سماع صوت الأوامر. تتحطَّم الصواري، والمداخن، وما إلى ذلك: نُحاولُ أن نستعيد الوضع الصحيح للسفينة، مُترنِّحين تحت الأمواج العالية مثل الجبال، ونجد هيكل السفينة مُفكَّكًا في صباح اليوم التالي، والطبَّاخ غائبًا، ولا توجد لفائفُ ساخنة من أجل وجبة الإفطار. الآن، في الواقع، أمضينا أمسياتٍ دون أن يكون هناك حتى نسيم عليل على سطح النهر، ثم يلي ذلك ليلةٌ هادئة، ويأتي الصباح بحمرةٍ رقيقة، مثل تلك الموجودة على وردة جديدة. أتخيَّل أن المحيط قد تحسَّن منذ عهد كلارك راسل، أو ربما نظَّم مكتب الطقس الحكومي أعمال تبليط. نحن شعب رائع، أيها الطبيب، وأخيرًا بريطانيا تحكم الأمواج حقًّا.»

سئم الشاب من الرحلة بسرعةٍ تُضاهي سرعة يخته. وكان يتوقُ إلى جريدته الصباحية ونزهة في شارع بيكاديللي. عندما عبَر خليج بسكاي الهادئ، اتصل بأحد العاملين المسئولين عن التلغراف اللاسلكي لديه، وقال له:

«اسمع، يا بني، ألا يُمكنك ضبط قيثارتك السماوية، وإحضار بعض الأخبار لنا من السماء؟ ألسنا في نطاق حضارة ماركوني بعد؟»

«نعم يا سيدي. وصلت عدة رسائل خاصة، وبعض قصاصات الصحف، لكن لا شيء مهم. وزير المالية يتحدَّث في مجلس العموم عن مشروع قانون، بقدْر ما أفهم، لتنظيم بنك إنجلترا.»

«أخشى ألا يكون هذا الموضوع مُثيرًا للغاية، يا ولدي، وإلى جانب ذلك، فأنا لا أفهم الأمور المالية، ولم أفهمها أبدًا. ومع ذلك، أرحِّب حتى بكلمات أحد السياسيين هذا المساء؛ لذا إذا كان الوزير لا يزال يتحدَّث، فاكتب ما يقول. وبالمناسبة، إذا أُتيحت لك الفرصة للتحدُّث، فمن الممكن أن تسأل الأفق عن السباقات التي أُقيمت اليوم، والخيول التي فازت.

فبعد كل شيء، إنه لشيء مُشجِّع أن نعلم أن وزير المالية يقف على قدميه. هذا يدل على أن إنجلترا العجوز لا تزال ناجحة. يبدو أنه مضى عام على وجودي هناك.»

غادر العامل إلى مقصورة التلغراف، وعاد سترانلي مرةً أخرى إلى سيجاره وقهوة ما بعد العشاء. في الوقت الحاضر عاد الشاب بابتسامة على وجهه.

وقال: «إنه مُستمرٌّ في حديثه مرة أخرى يا سيدي»، وسلم سترانلي ورقة عنوانها:

وزير المالية

خلال العقد الماضي، كان معدَّل الفائدة البنكية لدينا في حالة تقلُّب مُستمر؛ حيث تغيَّر عدة مرات، وتراوح من اثنين ونصف إلى سبعة في المائة، وهو اختلاف لم يكن له أيُّ تأثير سوى تأثير مُفيد على الأعمال. يبلغ الذهب في قسم الإصدار في بنك إنجلترا عادةً حوالي ٣٠ مليون جنيه إسترليني، والتي ثبَتَ أنها غير كافية لاحتياجات عصرنا. من ناحية أخرى، نادِرًا ما يسمح بنك فرنسا بانخفاض احتياطيه إلى ما دون ١٠٠ مليون جنيه، مما أدَّى إلى بقاء معدل الفائدة البنكية لدى بنك فرنسا ثابتًا يتراوح بين اثنين ونصف وثلاثة في المائة، ولم يرتفع إلى أربعة في المائة لمدة ثلاثين عامًا. في الاثني عشر شهرًا التي سبقت تقرير عام ١٩٠٤، لم يتم تغيير معدل الفائدة البنكية في فرنسا مرة واحدة، في حين قفز معدل الفائدة البنكية الخاص بنا من …

هنا قام سترانلي بكرمشة الورقة في يده، وألقى بها في المحيط.

صاح قائلًا: «يا إلهي!» وتابع: «أتساءل ما نوع الدماغ الذي يستمتع بهذا النوع من الهراء! ولا كلمة واحدة عن السباقات! على أيِّ حال، ماذا يتوقَّع هؤلاء العاملون بالتلغراف اللاسلكي من الأخبار؟»

كان الشاب الجاهل يحلم قليلًا بأن الرسالة التي يقرؤها سيكون لها تأثير مذهل على حياته المهنية في ذلك اليوم عندما اضطُرَّ بنك إنجلترا بموجب قانون البرلمان الجديد إلى رفع احتياطي الذهب من ٣٠ مليون جنيه إسترليني إلى ١٠٠ مليون. وكان هناك اضطراب مالي في جميع أنحاء العالم على وشْك الحدوث لم يشكَّ فيه سترانلي أكثرَ مما فعل المُشرِّعون الحكماء الذين وافقوا على مشروع القانون بأغلبية كبيرة. واعتقد معظمهم، بما في ذلك اللورد، أن السباقات أكثرُ أهمية وإثارة للاهتمام.

سار القبطان إلى مؤخِّرة السفينة. مع مرور الأيام، ازداد إعجابُ الشاب الأهوج بهذا المحارب المخضرم في البحر، على الرغم من حقيقة أن القبطان قد سعى إلى نقل منجم الذهب الخاص به.

صاح: «اجلس، أيها القبطان.» وقال: «ماذا ستشرب؟»

«كوبًا من القهوة، لإبقائي مُستيقظًا. أتوقَّع أن أكون مستيقظًا طوال الليل، أو على الأقل حتى نمرَّ على أوشانت.»

«أنت على حق، إذن هي القهوة. أوه، بالمناسبة، لقد غيَّرتُ رأيي، ويجب أن تغيِّر مسارك. بدلًا من التوجُّه مباشرةً من أوشانت إلى بليموث، قم بتوجيه مسارك إلى قناة ساوثهامبتون.»

«جيد جدًّا، أيها الإيرل.»

«ولقد غيَّرتُ رأيي أيضًا فيما يتعلَّق بقطعة الأرض تلك الخاصة بك.»

قال القبطان، وهو يشعر بغصَّة في حلقه، وخيبة الأمل واضحة على وجهه: «أوه، حقًّا أيها الإيرل؟»

«نعم، هذا هو سبب ذهابنا إلى ساوثهامبتون. ستُخرج هذا اليخت من الخدمة — أعتقد أن هذا هو المصطلح البحري — إلى جانب قطعة الأرض الخاصة بك. كما تعلم، أنا حريص على ألا يتمَّ رؤيتك، وكذلك ألا يحظى أيُّ شخص على متن اليخت بفرصة للتحدُّث.»

«سأهتم بذلك، أيها الإيرل.»

«يا عزيزي، لا تدعوني بالإيرل. أخبرتُك أنني إيرل في إطارٍ من السرية المُطلَقة. ألم تلاحظ أن الجميع يخاطبني «سيدي»، وأنا حتى لا أصرُّ على ذلك. نحن جميعًا أحرار ومتساوون في البحر، باستثناء القبطان الذي يحكُمنا. عندما نصل إلى مصب النهر في ساوثهامبتون، سأذهب إلى الشاطئ في قاربٍ بمحرك، وسأزور وكيل الأرض، وأحصُل على الملكية التي تبلغ مساحتها خمسة أفدنة، وأعطي صكوك الملكية لزوجتك، وأدعوها والعائلة للذهاب ومشاهدة الكوخ.»

«إنها تَعرف مكانه يا سيدي. لقد ذهبنا إلى هناك كثيرًا معًا.»

«إذن لن تسمح لأحد بمغادرة اليخت، ولا حتى نفسك. سوف تُبقي الفتيان مشغولين أثناء وجودي على الشاطئ. اصطحب اليخت إلى أقربِ محطة فحم، أينما كانت، واملأه بالماس الأسود. أعتقد أننا قد نرغب في الذهاب إلى نيويورك. في أيِّ وقت تتوقَّع أن تمرَّ على أوشانت؟»

«حوالي جرس واحد يا سيدي؛ أي بعد منتصف الليل بنصف ساعة.»

«كم ستستغرق الرحلة من أوشانت إلى ساوثهامبتون؟»

«يمكننا أن نفعل ذلك بسهولة خلال ١١ ساعة.»

«إذن سنصل إلى هناك ظهر الغد؟ جيد جدًّا. ربما من الأفضل لك أن تقودني مباشرةً إلى ساوثهامبتون، وتهتم بإجراءات الميناء وعملية التزوُّد بالفحم، وترسو عند ملكيتك بحلول الساعة السادسة مساء اليوم التالي. سأقضي الليلة في فندق؛ لذا لا داعيَ للقلق بشأني. كم عدد أفراد أسرتك أيها القبطان؟»

«الثلاثة الكبار في البحر، والثلاث الأُخريات في المنزل مع زوجتي.»

«ثلاث فتيات؟ أوه، يا لَلمرح! حسنًا، أعتقد أننا رتَّبنا كل شيء. سترى أن القارب ذا المحرك جاهز لي عند رصيف المرفأ بعد ظهر الغد وطوال اليوم التالي. ربما أود أن أتَّجه إلى أعلى الخليج إلى قطعة الأرض، أو إلى الأسفل، أيًّا كان الأمر. أظن أنك ستَلفت انتباهي عندما نمرُّ بها؟»

«أوه، نعم سيدي. أنا لا أدخل ساوثهامبتون أو أُغادرها أبدًا دون النظر إلى قطعة الأرض هذه.»

«ممتاز. في حوالي الساعة الخامسة مساءً، بعد غدٍ سأدعو زوجتك والفتيات الثلاث للقيام برحلةٍ معي على متن القارب ذي المحرِّك. وعند وصولي إلى هناك، سأقوم بتسليم المفاتيح وصكوك الملكية لسيدة المنزل، وإذا أتيت إلى الشاطئ، فسوف أُقدِّمُك إلى العائلة. يمكنك التوقُّف طوال الليل على الشاطئ. وفي صباح اليوم التالي، خذ اليخت، وأبحِر به ببطء إلى بليموث. هناك يُمكنك أن تسمح للجميع بمغادرة اليخت، لكن لا تُبالغ في ذلك. أنت تفهم ما أريده، وهو ألا يتحدَّث أحدٌ عن المنجم في غرب أفريقيا أو النقل في مُنتصَف المحيط؛ لذلك أتوقَّع منك السيطرة على قسمِكَ من الطاقم. وأنا مسئول عن رجالي. أوه، نعم، بالمناسبة، سآخذ الحطَّابين ظهر الغد، مع كلِّ مَن بقيَ من حراس الطرائد، وأرسلهم إلى منازلهم، بما في ذلك بونديربي المُمتاز؛ لذلك لن يكون لديك مَن تتعامَلُ معه إلا أولئك الذين ينتمون إلى اليخت.»

كان أداء اليخت «ذات الرداء الأبيض» أفضلَ مما توقَّعه القبطان، وهبط مالكه في ساوثهامبتون في الساعة الحادية عشرة إلا ١٠ دقائق. ودَّع رجاله، وأرسلهم إلى منازلهم، جميعهم أغنى من ذي قبل بسبب رحلتهم الطويلة. زار مكتب وكيل الأرض، وأجرى معاملاته التجارية في غضون ١٠ دقائق، وكتب له شيكًا، وأخبر المديرَ أن تكون الأوراق

جاهزةً بحلول الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي. ثم ذهب إلى الشارع الجانبي وطرق على الرقم الذي أعطاه إياه القبطان. فتح الباب شابَّة مُمتلئة الجسم، وتُشبه عيناها اللامعتان عينَي والدها.

قال وهو يُربِّت تحت ذقنها: «حسنًا يا عزيزتي، هل أنت ابنة القبطان الشجاع، كما نقول في النسخة المنقَّحة من «بينافور»؟»

تراجعت الفتاة في غضبٍ مُبرَّر، ولو كان من الممكن أن تقتله نظرة الغضب في عينيها، لكان في خطر، لكن الشابَّ قاسي القلب ضحك فقط.

وسأل: «هل أمك في المنزل؟»

سألت الفتاة الغاضبة: «مَن أنت؟»

«هذا هو نفس السؤال الذي طرحه عليَّ والدك. إنه سرٌّ، وسأخبره لأمك فقط.»

في هذه اللحظة، ظهرت في القاعة الأم، بعدما سمعت نبرة صوت ابنتها العالية، وتخيَّلت أن شيئًا ما لم يكن على ما يُرام؛ امرأة سمينة، عجوز، عبسَت في الوجه الغريب الطويل القامة، الذي كان يرتدي ملابسَ أنيقة.

«اسمي سترانلي، سيدتي، وأنا مالك سفينة. وزوجُكِ هو أحد القباطنة لديَّ.»

«هو ليس كذلك. إنه قبطان الباخرة «راجا».»

«هذا صحيح، وأنا مالك الباخرة «راجا». لقد اشترى زوجك للتوِّ هذه الملكية الصغيرة أسفل الخليج؛ تلك التي بها كوخ وسارية علم، كما تعلمين.»

«ما الذي تتحدَّث عنه يا سيدي؟ زوجي على بُعدِ مئات ومئات الأميال في البحر.»

«أوه، لا، سيدتي، لقد اختلط عليك الأمر. بالطبع لم يشترِ العقَار بنفسه. لقد عملت بوصفي وكيلًا له، وقد جئتُ فقط لأخبرك عن الصفقة. وستتوفَّر صكوك الملكية ظهيرة الغد، عندما أتشرَّف بتسليمها لكِ.»

«إذن نجحَت مغامرته؟ كانت لديَّ شكوكي حيال ذلك.»

«وأنا كذلك يا سيدتي، لكننا نحن الذين نتوقَّع وقوع كارثة غالبًا ما نكون في حيرة. كل شيء على ما يُرام، كما تلاحظين.» ثم التفت إلى مَن سمحَت له بالدخول فقال موبِّخًا: «من فضلك لا تعبسي في وجهي هكذا، وأغلقي الباب وادعيني إلى قاعة الاستقبال. ألا ترين أنني زائر؟»

لم تَقُل الفتاة شيئًا، لكنها نظرت إلى والدتها.

قالت المرأة وهي تفتح الباب على اليسار: «تفضَّل يا سيدي»، وعندها أغلقت الفتاة الباب الأمامي بتردُّد واضح.

سأل سترانلي: «أين الفتاتان الأخريان؟»

«إنهما في المطبخ يا سيدي.»

«من فضلك أحضريهما. أتمنَّى أن أرى جميع أفراد الأسرة، وأن أكون على معرفة جيدة بالقبطان.»

اختفَت الفتاةُ غيرُ المطمئنة التي فتحت الباب، بإيماءة من والدتها، وعادت بعد فترة وجيزة مع طفلتين صغيرتين تنكمشان بخجلٍ خلفَ أختهما الكبرى، التي من الواضح أنها كانت تحكم المنزل.

قال سترانلي: «آه، يا لها من عائلة رائعة! من الواضح أن هؤلاء الفتيات لم يعتمِدن في جمالهن على والدهن فقط.»

قالت الفتاة الكبرى بغطرسة: «أعتقد أن والدي هو أوسم رجل في العالم.»

«ستُغيِّرين رأيك في يوم من الأيام، آنستي، إلا إن كنتُ مُخطئًا بدرجةٍ كبيرة. أعترف بقيمة والدك، لكنك لن ترَي أبدًا صورته على بطاقة بريدية خاصة بالجمال. والآن، إذا كنتنَّ مُستعداتٍ لبعض الأخبار، وإذا وعدتنَّ بعدم الإغماء، فسوف أخبركن بها.»

صاحت الزوجة في ذعر: «أوه، هل أُلقي القبض عليه؟»

«أُلقي القبض عليه؟ بالطبع لا. لماذا يجب القبض عليه؟ إنه يزوِّد اليخت الخاص بي بالفحم في هذه اللحظة في مكانٍ ما في ميناء ساوثهامبتون، على بُعد نصف ميل من المكان الذي تجلسين فيه.»

كانت هناك بعض صيحات المفاجأة إزاء هذه المعلومات، لكن سترانلي استمر غيرَ مُبالٍ.

«الآن، كما أخبرتك، الكوخ لك، وأتمنَّى أن تفعلي شيئًا جريئًا للغاية؛ صاخبًا، كما يقولون في أمريكا. قاربي ذو المحرك بالأسفل عند رصيف المرفأ، ويُمكنُه أن يأخذك من الكوخ وإليه بقدْر ما تريدين، وسيكون أسرعَ من الترام أو السيارة الأجرة أو عربة السكة الحديدية. سيدتي، ستكونين رئيسةَ أسرعِ تسوُّقٍ شهدتْه ساوثهامبتون على الإطلاق. سيرسو زوجك عند الكوخ في السادسة مساءَ غد. هناك احتمالات بأن المنزل الفارغ قد يحتاج إلى القليل من التنظيف؛ لذلك يجب أن تأخذ ابنتك الكبرى معها مجموعة من الخادمات وتنظِّف المنزل من أعلى غرفة إلى الدور السُّفلي. بعد ذلك، سيدتي، عليك الذهاب

إلى أي متجر أثاث تختارينه، وتتجاهلين كلَّ ما لديك الآن، وتُأثِّثين كل غرفة في ذلك المنزل قبل الساعة الرابعة غدًا.»

«لكن، سيدي، هذا سيُكلِّف الكثير من المال، ونحن ...»

«نعم، لم أكن أتوقَّع أن يتم ذلك بلا مقابل، وليس لديَّ أدنى فكرة عما سيكون عليه إجمالي المبلغ. ولكن ها هي ذي ٣٠٠ جنيه للمضي قُدمًا. لقد حصلت عليها اليوم عن قصدٍ في شكل عملات ورقية جديدة من بنك إنجلترا. وسأدفع لك غدًا أي مبلغ إضافي آخر.»

سألت المرأة المندهشة: «ولكن كيف لنا أن ندفع لك يا سيدي؟»

«لا حاجة لذلك، سيدتي. لقد قدَّم لي زوجك خدمة رائعة جدًّا، وأنا فقط أرتِّب هذا لتكون مفاجأة سارة له، وأيضًا بسبب الإعجاب الشديد الذي أبدتْه ابنتك الكبرى لي.»

حرَّكت الفتاة رأسها بغضب.

«إنه مُخادع يا أمي؛ لا تصدِّقيه. هناك شيء مزيف في كل هذا. أنا متأكدة من أن هذه العملات الورقية مزورة. يريد إخراجنا من المنزل، ثم يسرق الأثاث. قرأت عن شخصٍ مثله في الصحف. وسُجنَ لمدة سبع سنوات.»

ضحك اللورد سترانلي.

«يا إلهي، يا لكِ من ذكية أيتها المخلوقة الشكاكة. لقد خمنت ذلك أول مرة. هل قيمة الأثاث في هذه الفيلا ٣٠٠ جنيه؟»

قالت الفتاة على الفور: «لا، ليس كذلك.»

«ممتاز. خذي تلك العملات الورقية إلى البنك، واحصلي على قطعٍ ذهبية مقابلها، واتركي لوالدتك مسئوليةَ الحراسة حتى تعودي. سيَسألونك على الأرجح من أين حصلت عليها، وستجيبين على هذا النحو: «إنها عائدات شيك بقيمة ٣٠٠ جنيه إسترليني صرَفَه اللورد سترانلي من ويتشوود في لندن وكاونتي اليوم، في الساعة الحادية عشرة والنصف.» وإذا كانوا لا يزالون يرغبون في معرفة كيف وصل هذا المبلغ لك، فقولي إن اللورد سترانلي هو مالك عدة بواخر، وإن والدك هو قبطان أكبرها. لا تقولي شيئًا عن الباخرة «راجا»؛ لأنه الآن رئيس باخرة ضعف حجمها. لقد أخذت العملات الورقية لأنَّها كانت أخفَّ في حملها، ولكن عندما تحصلين على القطع الذهبية، آمل أن تفعلي ما أطلبه منك، وتُغادري هذا المنزل على الفور، حتى أتمكَّن من سرقة أثاثه دون إزعاج.»

شهقت الأم: «هل أنت اللورد سترانلي؟»

«نعم، سيدتي، وهناك خدمة أخرى أريدُها منك، ومن هؤلاء الفتيات الثلاث الساحرات. لا تَذكُري لأحد أن والدك قد عاد. لا هو ولا أنا نتمنَّى أن يُعرف هذا لفترة من الوقت، وأنا

متأكِّد تمامًا من أن أربع نساء يُمكنهنَّ الحفاظ على السر، حتى لو لم يستطِع رجل واحد ذلك.»

سألت المرأة القلقة: «ليس هناك خطبٌ ما، أليس كذلك؟»

«لا شيء على الإطلاق. إنها مجرَّد مسألة تتعلَّق بسفينته الجديدة، الراسية في بليموث؛ حيث يجب أن يذهب في الصباح بعد غد.»

بالرغم من نشاط عائلة القبطان، لم يسبِق لهنَّ في حياتهنَّ أن بذَلْنَ هذا القدر من التوتر وسرعة الإنجاز في يومٍ ونصف يوم، وهذا يشمل الليلة الفاصلة؛ حيث لم تنم أيٌّ منهنَّ.

بحلول الساعة الخامسة بعد الظهر، كان كل شيء مرتَّبًا، على الرغم من أنه لم يُرضِ الابنة الكبرى تمامًا، وفي الساعة السادسة كان اللورد سترانلي سعيدًا بتعريف القبطان بممتلكاته، البشرية والمادية، القديمة والجديدة. ثم عاد مسرعًا في قاربه ذي المحرك، واستقل القطار إلى لندن.

الفصل الثامن

الباخرة «راجا» في مواجهة إشكاليات قانونية

قامت سيارةُ أجرة من محطة لندن بتوصيل اللورد سترانلي بسرعةٍ إلى ناديه المفضَّل في بول مول. أومأ له عَرضًا اثنان من معارفه كانا يَنزلان السُّلم، وجعلته هذه التحية، بالإضافة إلى عدم الاهتمام الذي شعر به في غرفة التدخين عندما دخَل، يُدرك عدم افتقاد أحد له، وهذه اللامبالاة تحول دون شعور المرء بالغرور الشديد عندما ينتصِر بذكائه على الدببة أو قُطَّاع الطرق في أنحاء الأرض البعيدة، ويعيش ليروي الحكاية، أو يُبقي الأمر سرًّا، حسب ما تقتضيه الحالة. ونظرًا لأنه كان يرتدي بدلةَ العمل العادية التي قامت بعملٍ شاقٍّ لمدة يومين في ساوثهامبتون، لم يستطِع مخالفة آداب السلوك ودخول غرفة الطعام. في الواقع، كانت القمصان الساطعة الناصعة البياض منتشرةً في غرفة التدخين لدرجةِ أنه شعر بشعورٍ غيرِ مألوف، ولكنه ممتع إلى حدٍّ ما، بأنه رائد جامح وغامض، ضلَّ طريقه إلى معقل الحضارة العصرية. نظرًا لكون غرفة الطعام منطقة محظورة، فقد اكتفى سترانلي ببضع شطائر وكوب كبير من الجَعة الألمانية. في أثناء تناوله لهذه الوجبة الاقتصادية، اتجه نحوه قميصٌ عريض ذكَّره بشراع يخت سباق.

قال السير ويليام جرينجر، صاحب القميص: «مرحبًا، سترانلي.» وتابع: «هل تذكر عندما أخبرتك الأسبوع الماضي أن فلاينج سكاد سيكون له بالتأكيد مكانٌ في سباق مابل-درهام؟»

أجاب سترانلي: «لا أتذكَّر أنني تلقيت هذه المعلومة منك.» وتساءل: «هل نجح فلاينج سكاد، إذن؟»

«نجح؟ يا إلهي، سيُقام السباق غدًا.»

«أوه، أرجو المعذرة، لقد نسيت التاريخ.»

«حسنًا، سترانلي، لقد فهمت أن فلاينج سكاد سيفوز بسهولة. إنه أمر مؤكَّد. لا تتخلَّ عنه، وتصرَّف بناءً على التلميح، ولن تشعر بالأسف. الاحتمالات ٢٥ إلى واحد في الوقت الحالي، ومقابل كل جنيه لعين تُقدِّمه، ستَحصُل على ٢٥ جنيهًا.»

«هذا رائع للغاية يا بيلي.»

«رائع؟ أوه، إنه مصدر لربح المال بسهولة.»

«آه، حسنًا، هذه الفرص ليسَت لي يا بيلي. لقد اضطررت إلى رهن ملابسي المسائية من أجل الحصول على شطيرة وكأس من الجَعة. يدي خشنة من العمل الشاق وأحاول الحصول على لقمة عيش شريفة. لماذا لا تحذو حذوي، بيلي، وتفعل شيئًا مفيدًا؟ ستقودك هذه العادة السيئة للمُراهَنة على السباقات إلى ضوائق مالية عما قريب، والأسوأ من ذلك، قد يصبح حماسك الشديد للقمار مزمنًا إذا لم توقِفه في الوقت المناسب.»

ضحك السير ويليام جرينجر بانبساطٍ على هذا الكلام. لقد كان شابًّا حصل بالفعل على إرثٍ كبير تركه والده، ومنذ ذلك الوقت أصبح عبقريًّا في الاقتراض الذي قد يُنسب لهاريمان، ملك السكك الحديدية.

«أرجوك، سترانلي، لا تَعِظ، أو على الأقل، إذا كنت ستعظ، فلا تتهرَّب من الإجابة. أنت تعلم ما أريد. أقرضني خمسة وعشرين جنيهًا حتى يوم الإثنين المقبل، أنت رجل طيب. هذا المبلغ سيجلب لي ستمائة وخمسة وعشرين جنيهًا قبل ليلة الغد. لقد اكتشفت كل شيء على ورقة من أوراق النادي، لكنَّني مُفلس؛ لذا أعطني الخمسة والعشرين جنيهًا، سترانلي.»

أخذ اللورد سترانلي، دون اعتراض، من جيبه بعض العملات الورقية من بنك إنجلترا من فئة العشرة جنيهات، واختار ثلاثةً منها، وأعطاها للسير ويليام، الذي حصل على خمسة جنيهات أكثرَ مما طلب، وبحنانٍ لمس الأوراق الجديدة، المُتماسكة، ثم قام بخدعة أن يفك إحداها، حتى يتمكن من إعادة النقود الإضافية.

قال سترانلي بضجرٍ إلى حدٍّ ما: «أوه، لا تقلق بشأن ذلك.» كان قد قضى يومًا متعبًا في ساوثهامبتون، ولم تكن الجَعة والشطائر وجبةً مُثيرة للغاية في نهاية اليوم. «لا تقلق بشأن ذلك. إذا أخذت ورقةً أخرى من أوراق النادي، فقد تتمكَّن من حساب المبلغ الإضافي الذي ستجلبُه لك خمسة جنيهات إضافية في ليلة الغد.»

قال السير ويليام براحة كبيرة: «يا إلهي، هذا صحيح»، وبعد ذلك بدت السهولة التي حصل بها على الغنيمة وكأنها تُثير جشعه وتجعله ينسى أيضًا كلَّ ما يتعلَّق باحترام الذات.

«الحديث عن المبلغ الإضافي الذي سأكسبُه يُذكِّرني، سترانلي، أنه إذا أعطيتني ورقةً أخرى من فئة ١٠ جنيهات، فسيكون المكسب كله ألفًا لكل ٢٥ إلى واحد، كما تعلم. سأدفعها بالكامل يوم الإثنين، ولكن يبدو مؤسفًا تفويت مثل هذه الفرصة، أليس كذلك؟»

«يا لك من رائع في تقدير الاحتمالات، بيلي. إذا كانت ٤٠ جنيهًا ستجلب لك ألف جنيه، فعندئذٍ، كما قلت، سيكون من المُؤسف أن تفوِّت هذه الفرصة. حسنًا، تفضَّل»، ومرِّر الورقة الرابعة من فئة العشرة جنيهات إلى عهدة الطرف الآخر.

لا يزال السير ويليام باقيًا. ربما كان الأمر أكثرَ رحمة لو أن اللورد قد اعترض بشدة على إعطائه ما يُسمَّى بالقرض. ملأه بالحسد رؤية العملات الورقية الخاصة بالطرف الآخر وهي تعود الآن إلى جيبه. وشعر ببعض الإحجام عن محاولة زيادةِ ما حصل عليه، فصاغ مقصده بشكل مختلف:

«سترانلي، إذا كنتَ تُريد مني أن أضع القليل من المال من أجلك، فيما يتعلَّق بفلاينج سكاد، فسأفعل ذلك بكل سرور.»

«شكرًا يا صديقي، لكنَّني لن أزعجك. أنوي وضع بعض المال، لكنه سيكون ضد فلاينج سكاد.»

«ماذا! هل سمعتَ أي شيء؟» صاح السير ويليام في ذعر، لكن الآخر قاطعه …

«لا أعرف شيئًا عن الحصان على الإطلاق، لكنني أعرف الكثير عن حظك، وسأحصل على ٤٠ جنيهًا مرة أخرى يوم الإثنين، دون أن أزعجك، إلا من خلال المراهنة ضدك.» ضحك السير ويليام قليلًا، وهزَّ كتفيه، وابتعد مع الغنيمة.

غمغم سترانلي في نفسه: «نعم، هذه لندن العزيزة القديمة مرة أخرى، بالتأكيد. ها قد بدأ اقتراض الأموال.»

على الرغم من تأثُّره تأثُّرًا متفاوتًا، فقد استمتع اللورد سترانلي بعودته إلى العاصمة إلى أقصى حد، ولأيام عديدة تجوَّل في بيكاديلي مثلما يتجول رجلٌ بسلاسة في أرجاء المدينة، يحسده الأشخاص الأقل حظًّا الذين عرفوه. انتهَت فترة الكسل هذه بتلقِّي برقية من ماكيلر. أرسل ذلك الشاب المتمكِّن رسالته من الركن الشمالي الغربي لبريتاني، بعد أن أمر الباخرة «راجا» بالإبحار إلى ميناء بريست. أبلغت الاتصالات سترانلي أن ماكيلر قد رفع جزءًا من الشحنة، ووضعها على متن قارب شراعي، والذي كان من المقرَّر أن يبحر مباشرة إلى بورتريث. أدَّت هذه العملية الخاصة بنقل جزء من الشحنة إلى ظهور علامة الحمولة القصوى على جانب الباخرة «راجا» مرة أخرى، وقد تدخُل الباخرة الآن ميناء

بليموث دون التعرُّض لخطر السحب أمام السلطات، بتهمة الحمولة الزائدة. وتوقَّع أن يصل بليموث في اليوم التالي.

كان سترانلي يتناول الغداء في المنزل في ذلك اليوم لأنه في الصباح جاءته مكالَمة هاتفية، وعند وضع السماعة على أذنه، ميَّز الصوت الهادئ المنخفض لكونراد شوارتزبرود، الذي بدا وكأنه يحاول قولَ شيءٍ ما فيما يتعلَّق بالباخرة «راجا». أُصيب سترانلي بنوعٍ من الكراهية للهاتف، وغالبًا ما كان يُظهِر نفادَ صبرٍ مع عمله الذي لم يُظهِره عادةً عند مواجهة شرور الحياة الكبرى؛ لذلك بعد إخبار السيد شوارتزبرود الطيب بالوقوف بعيدًا عن جهاز الإرسال، وبالاقتراب منه، وبالتحدُّث بصوتٍ أعلى، اعترف أخيرًا أنه لا يستطيع فهْم ما يُقال، ودعا المموِّل إلى زيارته في منزله بعد ظهر ذلك اليوم في الثانية والنصف، إذا كان ما قاله مهمًّا بما يكفي لتبرير رحلةٍ من المدينة إلى ويست إند.

على طاولة الغداء، تمَّ تسليمه برقيةَ ماكيلر الطويلة، وبعد قراءتها، ابتسم سترانلي وهو يفكِّر في مدى تزامن وصولها تقريبًا مع زيارة شوارتزبرود، وتساءل عن مقدارِ ما سيقدِّمه الأخير للاطلاع عليها إذا كان يعلم بوجودها. وتوقَّع أن قطب البورصة أصبح قلقًا بعض الشيء بسبب عدم وصول الباخرة «راجا» إلى لشبونة؛ حيث كان مبعوثوه بلا شك في انتظارها. وعلى الرغم من ادعائه بسوء الفهم، فقد سمع بوضوحٍ في سماعة الهاتف أن شوارتزبرود علم للتوِّ أنه مالك الباخرة «راجا»، وأنه يرغَب في تجديد إيجاره لهذه الباخرة البطيئة الحركة المُترَوية، لكنه لم يستطِع منْع نفسه من متعة طرح الأسئلة الماكرة على خصمه وجهًا لوجه. لقد كان يتوقَّع طلبًا من كونراد شوارتزبرود منذ عدة أيام، وقد وصل الآن بعد فوات الأوان تقريبًا، لأنه وجَّه بونديربي لتأمين سرير له في قطار بليموث السريع تلك الليلة.

لم يستقبل الشاب النبيل الرأسمالي المسن في مكتب عمله في الطابق السفلي، الذي ربما كان من الممكن أن يكون أنسبَ له، لكنه استقبله بدلًا من ذلك في قاعة الاستقبال الفسيحة والفاخرة في الطابق الأول؛ حيث كان سترانلي يتمتَّع بحرية العازب، ويدخن سيجارًا بعد الغداء، وبدأ المقابلة بتقديم سيجار مُماثل لزائره، والذي تم رفضه. يبدو أن السيد شوارتزبرود لم يُدخِّن أبدًا.

كان الرجل العجوز الخبيث قلقًا وعصبيًّا بشكل واضح. جلس على الحافة القصوى لكرسي أنيق، وبدا أنه لا يعرف بالضبط أين يضع يديه. الأخبار التي وصلته من السادة سبارلينج آند بيلج في ساوثهامبتون، والتي تفيد بأن اللورد سترانلي كان المالك الجديد

للباخرة «راجا»، قد أزعجت شوارتزبرود، وأظهرت طريقتُه ذلك الأمر لمُضيفه الكسول، الذي كان يسترخي على مقعد مريح، وهو يشاهد بهدوء الوافد الجديد مع تعبيرِ وجهٍ يشبه الملاك في براءته.



أنت تفتقد الكثير من المتعة في الحياة.

قال الشاب بتكاسُل: «آسف لأنك لا تدخِّن. إنك تَفتقِد قدرًا كبيرًا من المتعة في الحياة بامتناعك عن التدخين.»

«إنها عادة لم أكتسبها، أيها اللورد؛ ولذا ربما لا أشعر بنقصها بقدر ما قد يفترضه واحد معتاد على التبغ. أعيش حياةً حافلة للغاية، وفي الواقع، حياة قلقة إلى حدٍّ ما، نظرًا لأن الأوقات صعبة للغاية في المدينة؛ لذلك ليس لديَّ فرصة كبيرة لتنميةِ ما يُمكن أن أسميه — دون أن أقصد أي إهانة — رذائل صغيرة.»

«آه، هناك تاجر كبير يتحدَّث. تهتمُّ بالأشياء الكبيرة في الحياة، سواء في التمويل أو الرذيلة.»

«آمُل أن أقول دون غرور، أيها اللورد، إنَّني دائمًا ما أتجنَّب الرذيلة، كبيرة كانت أم صغيرة.»

«رجل محظوظ؛ أتمنَّى أن أقدِّم الاعتراف ذاته. إذن الأوقات صعبة في المدينة، أليس كذلك؟»

«بلى إنها كذلك.»

«لماذا إذن لا تَترُك المدينة وتأتي لتعيش في ويست إند حيث الحياة سهلة؟»

«قد يعيش الرجل الغني حيث يشاء، أيها اللورد، لكنَّني أعمل بجد طوال حياتي.»

«مسكين، لكن صادق، صحيح؟ ومع ذلك، بالنظر في كل شيء، سيد شوارتزبرود، أعتقد حقًّا أنكم مَن تعملون بجِد تَستمتعون بأموالكم بشكلٍ أفضل عندما تحصلون عليها أكثرَ منا نحن الأشخاص المرفَّهين الذين لم يعرفوا أبدًا معنى عدم وجودها. أنا أومن بالأمانة، وإذا لم تكن طبيعتي كسولة هكذا، أعتقد أنني ربما أصبحت رجلًا أمينًا. لكن عاملًا مشغولًا مثلك، سيد شوارتزبرود، لم يأتِ إلى ويست إند ليَسمع حديثي التافه حول الأمانة. في أمريكا، يذهب الرجل الذي ينوي العمل بجِد إلى الغرب. في لندن، يأتي الرجل إلى الغرب عندما يربح المال.»

«أنت تفتقد الكثير من المتعة في الحياة.»

«لديه ثروته في المدينة، ويتوقَّع أن يتوقَّف عن العمل. لقد جئت إلى الغرب مؤقتًا لرؤيتي بشأن بعض الأمور التي استمتَعَ الهاتف بخلطها مع الأزيز والقعقعة والثرثرات المتقطعة التي جعلت من الصعب فهم موضوعك. يُمكنك التكرُّم بإخباري كيف يُمكنني مساعدتك.»

«في الوقت الذي كنتُ أتوقَّع فيه تشغيل حقل الذهب، الذي تعرفه أيها اللورد، استأجرت باخرة، اسمها «راجا»، في ساوثهامبتون.»

«أوه «راجا»!» قاطعه اللورد، مُعتدلًا في جِلسته، يعلو وجهه بصيصٌ من الفهم الذكي. ««راجا» هو ما كنت تحاول أن تقوله؟ اعتقدت أنك تتحدَّث عن عَلَم القراصنة «جولي روجر». فروجر هي الكلمة التي سمعتها، و«جولي روجر» تعني عَلم سفينة قراصنة، أو شيئًا يتعلَّق بالقرصنة؛ لذلك كنت أقول لنفسي وأنا أُحاول فهم صوتك: «ماذا، يا إلهي، هل يمكن لشخصيةٍ محترمة من المدينة أن يعنيَه الحديث عن جولي روجر، كما لو كان قائد قراصنة.» أوه نعم الباخرة «راجا!» الآن أنا أفهم. تابع، سيد شوارتزبرود.»

يبدو أن الشخصية المحترمة تحوَّلت إلى تافهٍ أكثرَ شحوبًا من المعتاد عندما استمر الآخر في الحديث بحماسٍ عن سفن القراصنة والقراصنة، لكنه اعتقد أن الشاب النبيل لا يعني شيئًا على وجه الخصوص؛ حيث أراح ظهره مرة أخرى في مقعده المريح،

بعينَين نصف مغمضتين، ينفث بمرح دخان سيجاره عاليًا. في الوقت الحالي، قام كونراد شوارتزبرود بترطيب شفتَيه، وبدأ يتحدَّث مقتنعًا بأن تلميح الآخر إلى النهب البحري كان مجرَّد مُصادفة، وليس إشارة خفية إلى فراونينجشيلد وأتباعه، أو إلى مهمة الباخرة «راجا» نفسها.

«كنتُ على وشك أن أقول، أيها اللورد، إنني استأجرتُ الباخرة «راجا» من شركة شحن للناس في ساوثهامبتون، عازمًا على استخدامها في تطويرِ منجم في غرب أفريقيا. وبعد انتقال هذه الملكية من يدي ويد شركائي إليك، أيها اللورد، عقدت العزم على توظيف الباخرة «راجا» في تجارة الماشية في أمريكا الجنوبية؛ لأننا نمتلك مساحةً واسعة من الأراضي في الأرجنتين، والتي نسعى لتحقيق مصالحها للمُضيِّ قُدمًا بالهدف النهائي المُتمثِّل في تعويم الشركة.»

مرة أخرى، قام مروِّج الشركة المُرتقب بترطيب شفتيه بعدما قالتا بأمان هذه الرواية الخيالية المثيرة للاهتمام.

قال سترانلي: «إذن الباخرة «راجا» ذهبت إلى جمهورية الأرجنتين، أليس كذلك؟»

«بلى، أيها اللورد.»

«مملوءة بالديناميت وماكينات التنقيب، صحيح؟ بالتأكيد شحنة رائعة ليَنقلَها راعي ماشية، سيد شوارتزبرود؟»

«حسنًا، كما ترى، أيها اللورد، كان الديناميت والماكينات بحوزتنا، وبما أن هناك العديد من المناجم في أمريكا الجنوبية، فقد اعتقدنا أنه يُمكننا بيعُ الشحنة هناك لتحقيق فوائدَ أفضل من بيعها في ساوثهامبتون.»

«بالطبع ليس لديَّ أدنى شك، سيد شوارتزبرود، أنك تمتلك مزارعَ مواشٍي في أمريكا الجنوبية، لكنني أشك بشدة ...»

توقَّف، وفتح عينيه قليلًا، وهو ينظُر بتساؤل إليه وجهًا لوجه.

تمتم شوارتزبرود: «فيما تشكُّ بشدة، أيها اللورد؟»

«أشك في أنك تَمتلِك منجمًا في أمريكا الجنوبية تلتزم الصمت بشأنه.»

«حسنًا، أيها اللورد»، اعترف شوارتزبرود بعدم ثقة واضحة، «نادرًا ما يكون من الحكمة التحدُّث عن هذه الأشياء قبل الأوان.»

«هذا صحيح تمامًا، ولا أرغب حقًّا في التنقيب في أسرارك، ولكنَّني شعرت صراحة ببعض الاستياء بشأن أفعالك فيما يتعلَّق بالباخرة «راجا».»

«أفعالي؟ أي أفعال؟»

«يجب أن تعترف، سيد شوارتزبرود، أنه عندما استحوذت على ما يُسمى بحقول الذهب، أصبحت مالكًا لكلِّ شيء تملكه الشركة، أو على الأقل اعتقدتُ أنني كذلك. الآن، مُنحت الشركة إيجار الباخرة «راجا»، وتمَّ شراء جميع المواد التي أبحرت بها إلى أمريكا الجنوبية بأموال الشركة. لذلك بدا لي — ولا أريد أن أقول ذلك بطريقةٍ قاسية — أنك سلبتَ عمليًّا جزءًا من ممتلكاتي.»

«أنت تُدهشني أيها اللورد. لم يخطر ببالي مطلقًا أن مثل هذه الرؤية يمكن أن يتبناها أي شخص، خاصة مثلك، على دراية جيدة بالحقائق.»

هزَّ سترانلي كتفَيه.

«على دراية بالحقائق؟ أوه، لا أعرف أنني على دراية جيدة بها. أنا لستُ رجل أعمال، سيد شوارتزبرود، وعلى الرغم من أنني أشرك رجال الأعمال لرعاية مصالحي، يبدو لي أنهم في بعض الأحيان ليسوا بالذكاء اللازم. اعتقدت، بعد الاستحواذ على ملكية الشركة، أن إيجار الباخرة «راجا» ومحتويات مخزنها ملك لي، تمامًا مثل أموال الشركة في البنك، أو ذهبها في غرب أفريقيا.»

«أؤكد لك أيها اللورد أنك مُخطئ. لم يَرِد ذكر الباخرة «راجا» وإيجارها في وثائق الاتفاق بيني وبينك، بينما ذُكر المال الموجود في البنك. لكن بصرف النظر عن كل ذلك، أيها اللورد، أعطيتني وثيقةً تُغطِّي كلَّ ما تم القيام به قبل توقيعها، وقد أبحرت الباخرة «راجا» من أمريكا الجنوبية قبل عدة أيام من إنجاز ذلك المستند. وتم القيام بكل شيء بشكل قانوني، وبمشورة المحامين الأكفاء — التابعين لك ولي.»

«لا تُسئ فهْمي، سيد شوارتزبرود؛ أنا لا أشكو على الإطلاق، ولا حتى أشكُّ في شرعية الوثائق التي تُشير إليها. أنا فقط أقول إنني اعتقدت أن الباخرة «راجا» وحمولتها سيتمُّ تسليمهما إليَّ. بلا شك، كنت مخطئًا. يبدو لي برغم كل شيء، سيد شوارتزبرود، أن هناك مِعيارًا للعمل أعلى من مجرد الشرعية. ربما تكون أنت أول مَن يعترف بوجود شيء مثل الحق الأخلاقي والذي قد لا يتزامن مع الحق القانوني.»

«بالتأكيد، بالتأكيد، أيها اللورد. يجب أن أكون آسفًا جدًّا حقًّا لانتهاك أي قانون أخلاقي، ولكن، لسوء الحظ، في هذا العالم المختل، أيها اللورد، أثبتت التجربة أنه من الجيد دائمًا تدوين ما يعنيه الرجل عندما تتم عملية نقل، وإلا فقد يختلف تذكرك لما كان مقصودًا تمامًا عما أتذكَّره، ومع ذلك قد يكون كلٌّ واحد منا صادقًا تمامًا في جدالنا.»

«نعم، لا أستطيع أن أجادلك في هذا، سيد شوارتزبرود. أرى قوة تفكيرك، ولا يلوم الرجل إلا نفسه إذا أهمل تلك الاحتياطات الضرورية التي ذكرتها؛ لذلك لن نقول شيئًا آخرَ عن تلك المرحلة من الأمر، لكنك ستفهم بسهولةٍ أنه بعد اعتقادي بوجود حقٍّ لي في استخدام الباخرة «راجا»، قد لا أشعر أنني أميل إلى تجديد الإيجار لك الآن.»

«آه، مرة أخرى، أيها اللورد، كل ذلك مدوَّن. ينص الإيجار بوضوحٍ على أنه سيكون لديَّ خيار التجديد لمدة ثلاثة أشهر أخرى عند انتهاء الأشهر الثلاثة الأولى.»

«أنت تُحرجني في كل نقطة، سيد شوارتزبرود. أعتبر إذن أن شرائي للباخرة «راجا» لا يُبطِل الاتفاق الذي أجراه معك صاحباها السابقان؟»

«بالتأكيد أيها اللورد. إذا اشتريتَ منطقةً ما، فإنك تتحمَّل جميع التزاماتها.»

«يبدو ذلك عادلًا ومعقولًا. لذا فإن طلبك للتجديد هو مجرد إجراء شكلي، وسيكون أي اعتراض منِّي عليه غير مجدٍ؟»

«ألم يشرح لك السادة سبارلينج آند بيلج، أيها اللورد، أن الباخرة كانت مُستأجَرة؟»

«لم أرَ أبدًا أحدًا من تلك الشركة، سيد شوارتزبرود. تم الشراء من قِبَل وكيل خاص بي، وليس لديَّ شك في أن السادة سبارلينج آند بيلج جعلوه على دراية بجميع الالتزامات التي سأصبح مسئولًا عنها. وإذا كنتَ تُصرُّ على ممارسة خيارك، سيد شوارتزبرود، فأعتقد أنه يجب عليَّ إما تأجيل تطوير ملكيتي التي تحتوي على الذهب، أو استئجار باخرة أخرى؟»

«آسف لأنني أجعلك تتحمَّل عناء ونفقات استئجار قارب آخر في حين أن الباخرة «راجا» مناسبة تمامًا لغرضك، يا سيدي. من الممكن، حتى قبل اكتمال مدة الإيجار الأولى، أن تكون الباخرة «راجا» قد عادت إلى ساوثهامبتون، وتنتهي تجاربنا في تجارة الماشية مع الرحلة الأولى. في هذه الحالة، سأكون سعيدًا جدًّا للتنازل عن مطالبتي بباخرتك.»

«هذا جيد جدًّا منك، سيد شوارتزبرود. بالمناسبة، أين الباخرة «راجا» الآن؟»

«من المُحتمَل أن تكون في ميناءٍ ما على طول الساحل الأرجنتيني، جنوب بوينس أيريس.»

«حقًّا؟ إذن ربما يمكنك أن تخبرني بمكان ماكيلر؟»

«ماكيلر؟ تقصد مهندس التعدين، ابن سمسار البورصة؟»

«نعم، اعتقدت أنه يعمل لديَّ، وأرسلته لحضور تحميل الباخرة «راجا»، لكنه اختفى. هل وظَّفته؟»

«لا، لا أعرف شيئًا عنه.»

«اعتقدت أنه ربما أبحر مع الباخرة «راجا».»

«ليس على حدِّ علمي. ألا يعرف والده أين هو؟»

«يبدو أن والده لا يعرف أكثرَ مما أعرف. ربما يعرف بنفس القدْر، أو ربما أقل، أيًّا كانت الطريقة التي ترغب في قول الأمر بها.»

«إنه ليس موظَّفًا عندي، أيها اللورد.»

«أعتقد أنه كان عليه أن يوجِّه لي إشعارًا إذا كان ينوي ترك خدمتي. ربما ذهب للبحث عن منجم ذهب لنفسه.»

«أعتقد أن هناك العديد من مهندسي التعدين أكثر قيمة من ماكيلر الشاب، أيها اللورد. كان دائمًا يبدو لي شخصًا عنيدًا غير مهذَّب.»

«نعم، كان يفتقر إلى التهذيب الذي تمنحه المدينة للرجل. أفترض أن حياته في مختلف البراري التي زارها لم تساعده على اكتساب فن الكياسة. ومع ذلك، كما تقول، هناك الكثير من مهندسي التعدين في لندن، ولا شكَّ أنه عندما يحين الوقت الذي أحتاج فيه إلى واحد، سأجد رجلًا مناسبًا للوظيفة الشاغرة.»

«سأكون سعيدًا جدًّا لمساعدتك في الاختيار، أيها اللورد، إذا كنت مهتمًّا باستشارتي.»

«شكرًا، سأتذكَّر ذلك. فيما يتعلَّق بهذا الإيجار، يجب أن أوقِّع شيئًا، أليس كذلك، على الرغم من أنني أظن أنه لا ينبغي أن أوقِّع حتى يتمَّ استشارة محاميِّي؛ مع ذلك، أشعر بالأمان بين يديك، سيد شوارتزبرود، وإذا كنتَ ستُرسل لي الوثيقة، وتضع علامة بقلم رصاص على المكان الذي يجب أن أوقِّع فيه، فسأهتم بالأمر.»

قال المول بلهفة، وهو يُخرِج الأوراق من جيبه: «لقد أحضرت الأوراق معي، أيها اللورد.»

«هل يمكنك أيضًا أن تُعطيَني قلم حبر؟ آه شكرًا. أنت جاهز بكل شيء لإنجاز أعمالك، سيد شوارتزبرود. هذا ما يعنيه أن تكون رجلًا منهجيًّا.»

أفسح اللورد مساحة صغيرة على الطاولة، وكتب اسمه أسفل وثيقتَين، ومع ذلك، فقد اتخذ الاحتياطات لقراءتهما ببعض العناية قبل إرفاق توقيعه بهما، على الرغم من تصريحه بأنه لا يفهم شيئًا عن هذه الأمور. واشتكى بضعف من الطبيعة الغامضة للأوراق، وقال إنه لا عجب أن هناك حاجةً ماسة للمحامين لتوضيحها. وضع شوارتزبرود الأوراق في جيبه بارتياح بالكاد استطاع إخفاءه، ثم زرَّر مِعطفَه وهو ينهض، أكثر نشاطًا

من الشاب المضجر الذي يبلغ نصف عمره والذي نهض منهكًا من مجهود الكتابة. ومع ذلك، فقد أدلى بملاحظةٍ هادئة عَرضية أثناء انصراف ضيفه، مما أثار الحماسة فجأة في الغرفة وجعل ضيفه يرتجف ويصبح شاحبًا.

«متى قلت إنك تتوقَّع عودة الباخرة «راجا» من لشبونة، سيد شوارتزبرود؟»

لبضع لحظات كان هناك سكون شديد. كان سترانلي يُشعِل سيجارًا آخر، ولم ينظر إلى الرجل المصاب بالرعب، الذي امتلأت عيناه المنتفختان بالخوف.

«لشبونة ... لشبونة؟» شهق مُحاولًا ضمان التحكُّم في ملامحه. «أنا ... أنا لم أذكر لشبونة أبدًا.»

«أوه، بلى فعلت. قلت إنها كانت في مكانٍ ما جنوب لشبونة، أليس كذلك؟»

«قلت بوينس أيريس.»

قام سترانلي بإيماءة تدلُّ على نفادِ صبره كما لو كان منزعجًا من نفسه.

«يا إلهي، بالطبع قلت بوينس أيريس. كم أنا غبي. دائمًا ما يختلط عليَّ هذان المكانان الأجنبيان. أعتقد أن السبب في ذلك هو أن جمهورية الأرجنتين هي واحدة من تلك الممتلكات الإسبانية السابقة، ولأنَّ لشبونة في إسبانيا؛ لذا خلطت بين الاثنين.»

«لشبونة في البرتغال، أيها اللورد؛ إنها عاصمة البرتغال.»

«أنت على صواب. إنها مدريد التي كنتُ أفكِّر فيها، مدريد في إسبانيا، أليس كذلك؟»

«بلى أيها اللورد.»

«وهي ليست ميناءً أيضًا؟»

«أجل، ليست ميناءً، أيها اللورد.»

«وهل تقع لشبونة على البحر؟»

«على نهر تاجوس، أيها اللورد.»

«أنا جاهل، هذا ما أنا عليه. حقًّا يجب أن أذهب إلى المدرسة مرةً أخرى. لقد نسيت كل شيء تعلَّمته هناك. حسنًا، طاب مساؤك سيد شوارتزبرود. إذا كان هناك أي شيء آخر يمكنني القيام به من أجلك، فلا تتردَّد في زيارتي، كما تعلم. يجب علينا نحن المولين أن يقف كلٌّ منا بجانب الآخر، حينما تكون الأوقات صعبة للغاية في المدينة.»

وقف الشاب على رأس الدَّرج، واضعًا سيجارًا بين شفتَيه ويديه في جيبي بنطاله، بينما يشاهد السيد شوارتزبرود الذي رفع يده مُتردِّدًا ليُصافحه وهو يغادر، لكنه فكَّر في الأمر بشكل أفضل، ونزل الدَّرج؛ حيث انتظر بونديربي الصامت بالأسفل ليَفتح له

الباب. عندما وصل شوارتزبرود إلى الطابق السُّفلي، ألقى نظرةً قلقةً لأعلى الدَّرج. كان الشاب لا يزال واقفًا على بسطة السُّلم، يحدِّق متأملًا في ضيفه المُغادِر. أومأ برأسه بلطف، وقال «وداعًا»، لكن التعبير على وجه شوارتزبرود لا يُمكنه أن يُظهِر اضطرابًا أكبر إذا حلَّ الشيطان نفسه مكان سترانلي.

قال سترانلي لنفسه وهو يلتفت بعيدًا: «الرفيق غير المريح للغاية هو ضمير مُتململ، حتى في المدينة.»

أوقف شوارتزبرود سيارة أجرة، وتوجَّه إلى مكتبه في المدينة؛ قلقًا على الباخرة «راجا»؛ سعيدًا لأنه ضمِن تجديد الإيجار دون احتجاج أو تحقيق؛ غير مُرتاح بشأن ملاحظات سترانلي التي يبدو أنها بلا هدف بشأن القراصنة ولشبونة. وعند وصوله إلى مكتبه، طلب حضور كاتبه الذي يثق فيه.

وسأل: «هل من أخبار من لشبونة؟»

«نعم يا سيدي. الشفرة ذاتها. لا أثرَ للباخرة «راجا» هناك، يا سيدي.»

«كم مضى منذ أن أرسلت تحذيرًا إلى جميع وكلائنا على طول ساحل المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط للبحث عنها؟»

«أسبوع واحد فقط من اليوم، سيدي، وقد وصلت برقيةٌ بعد مُغادرتك بوقت قصير، من رجلنا في بريست. ولو كنت أعرف المكان الذي ذهبت إليه، كنت اتَّصلتُ بك يا سيدي.»

كرَّر شوارتزبرود بفارغ الصبر: «أعطني إياها، أعطني إياها، أعطني إياها.» أمسكها بيديه المرتعشتين، وقرأ:

> باخرة تَرفع العلم الإنجليزي، تُدعى «راجا» وقبطانها ويلكي، في الميناء اليوم. تُفرِغ المعدن الخام في قارب شراعي.

أفسح السيد شوارتزبرود ذو الأخلاق المجالَ الآن لنوبة من الألفاظ اللاذعة التي كان من المروِّع سماعها، ولكن بدا كاتبه مُتبلِّد المشاعر معتادًا على ذلك، وثنى رأسه قبل هبوب العاصفة. خلال فترة هدوء قصيرة بسبب ضيق التنفس، غامر بقول ملاحظة واحدة:

«لا يمكن أن تكون سفينتَنا، سيدي. رجلنا هو القبطان سيمونز.»

«ما علاقة ذلك بالأمر، أيها الأحمق؟» صاح شوارتزبرود بأعلى صوت. وتابع: «هذا الوغد العجوز سيمونز يُمكنه تغيير اسمه بسهولة. لقد باعني، الكلب المنافق. من المُحتمَل جدًّا أنه وفراونينجشيلد كلاهما يتآمران ضدي. سيمونز لص، على الرغم من كلِّ اعتراضاته

المنافقة عندما كنا نبرم صفقة. ولا أعتقد أن فراونينجشيلد أفضلُ منه، وهو أذكى منه. سوف يقومون بصهر المعدن الخام في فرنسا، بعد نقله إلى مكانٍ مناسب على طول الساحل في قوارب شراعية. لكن الأمر سيستغرق يومين أو ثلاثة أيامٍ لتفريغها، وسأخيف العجوز سيمونز قبل أن يتم ذلك. لنرى إذا كان هناك باخرة من ساوثهامبتون إلى سانت مالو الليلة. وإذا لم يكن هناك واحدة، يجب أن أذهب إلى بريست عن طريق باريس. لا يُمكنني الثقة بأي شخص آخر للقيام بهذا الأمر.»

في حقيقة الأمر، كان هناك قارب في ذلك المساء لسانت مالو، وهكذا كان الشخصان اللذان انغمسا في محادثةٍ طويلة بشأن الباخرة «راجا» بعد ظُهر ذلك اليوم يلاحقانها ويتجهان غربًا؛ شوارتزبرود في سريره على متن قارب سانت مالو، وسترانلي في سريره على متن قطار بليموث السريع، بينما كانت الباخرة «راجا» العجوز المتينة تشقُّ طريقها بين الاثنين عبر القناة بين بريست وبليموث، متجهةً إلى ميناء بليموث.

في اليوم التالي، استقبل سترانلي ماكيلر بشيءٍ يكاد يقترب من الحماس. لم يكن لدى أيٍّ منهما أدنى شك في أن التوقُّف في بريست قد يساعدهما في تقفي أثر كونراد؛ ولكن حتى لو فعلا هذا، فلا بد أنهما قد عرفا أن وصول الباخرة «راجا» إلى بليموث كان سيترتَّب عليه عواقبُ مُماثلة إذا كان أتباع شوارتزبرود يبحثون بشدة عن مصالحه.

كان مكوث الباخرة «راجا» في بليموث قصيرًا جدًّا؛ إذ لم يُمنح طاقم اليخت سوى الفرصة ليأخذوا أماكنهم على متن الباخرة «راجا»، تحت قيادة القبطان ويلكي، بينما تمَّ وضع الطاقم الذي أحضر الباخرة «راجا» إلى الميناء تحت رعاية القبطان سيمونز، الذي لم تكن باخرته الكبيرة، «ويتشوود»، جاهزةً للإبحار بعد. ثم دارت الباخرة «راجا» حول الزاوية الجنوبية الغربية من إنجلترا، ورست في مرفأ بورتريث الصغير، على مسافةٍ قريبة من فرن الصهر. تم تفريغ حمولة الباخرة «راجا» بأقصى سرعة، ونُقل المعدن الخام بأسرع ما يُمكن إلى الساحة المسيَّجة التي تُحيط بفرن الصهر. اعتقد سترانلي أنه من الجيد أيضًا الحصولُ على مواده الخام بشكل متخفٍّ بأقلِّ تأخير مُمكن؛ لأنه على الرغم من أن بورتريث لم يكن مركزًا سياحيًّا، إلا أنه لا يمكن للمرء أن يكون متأكدًا تمامًا من عدم ذهاب عالمٍ ما بالصدفة إلى هناك؛ حيث سيعرف بالتقاطه عينةً أنها تحتوي على ذهب وليس نحاسًا. إلى جانب ذلك، أبلغ مهندس الباخرة «راجا» عن بعض العيوب في المحركات والمراجل التي يجب فحصُها وإصلاحها للتأكد من كونها آمنةً قبل مواجهة رحلة طويلة مرة أخرى؛ لذلك، حتى لا يضيع الوقت، سارعت الباخرة «راجا» في العودة إلى بليموث للخضوع للإصلاحات اللازمة.

عندما أعاد اللورد ستانلي، بمساعدة ماكيلر، تشغيلَ منجم النحاس القديم في كورنوال بعد هجره لفترة طويلة، ولأنه لم يكن يعرف شيئًا عن الأرقام، كما قال، فقد أولى مسئولية قسم الحسابات للشركة إلى أحد المحاسبين وهو واحد من الاثنَي عشر رجلًا الذين يهتمُّون بشئونه. قبل مُغادرته لندن مُتوجِّهًا إلى بليموث، طلب من هذا المُحاسِب تزويدَه ببيان الربح والخسارة، فيما يتعلَّق بالمنجم. ألقى نظرةً خاطفة على هذا البيان فقط، ولاحَظَ بارتياح أن العمل أدَّى إلى عجز، ووضع المستند في جيبه. عندما غادَرت الباخرة «راجا» بليموث لتشق طريقها حول الجزء السُّفلي من إنجلترا إلى بورتريث، استقلَّ اللورد ستانلي وماكيلر القطار من بليموث، ووصَلا إلى ريدروث في ساعتين و١٥ دقيقة، ومن المحطة استقلَّا السيارة إلى منجم النحاس، وقد أعطى ستانلي لماكيلر بيانَ الربح والخسارة، وأعطاه تعليماتٍ بما يجب أن يقولَه عندما يلتقِي بمُدير المنجم، الذي كان بيتر نفسه قد عيَّنه في هذا المنصب.

عند الوصول إلى مكتب الأعمال، تشاور ماكيلر مع المدير، في حين أن اللورد ستانلي، الذي كان يرتدي ملابسَ جميلة غيرَ مُناسبة تمامًا لمثل هذه المنطقة، كان يتجوَّل، مُهتمًّا اهتمامًا ذكيًّا بما يُحيط به مثل اهتمام سائحٍ عاديٍّ ببيئة مُحيطة غير مألوفة. حدَّق عمال المصاهر المتسخون الكادحون بازدراءٍ سافر في هذا النموذج الإنساني الأنيق، الذي تجوَّل فيما بينهم بشكلٍ غيرِ مُتوقَّع، وأبدَوا ملاحظات على مظهرِه الشخصي تتميَّز بالقوة أكثرَ من اللباقة. لم يولِ الشاب أدنى قدْر من الاهتمام إلى هذه التلميحات غير المُجاملة، لكنَّه كان يتسكَّع وكأنَّه يمتلك المكان، كما اشتكى أحد الرجال. أخيرًا، خرج المدير وماكيلر معًا من المكتب، وطلبوا من جميع عمال المنجم الصعود. توقَّفت التعليقات البذيئة، وانتشر شعور غير مُريح بين الموظَّفين بأن شيئًا غيرَ سارٍّ على وشك الحدوث. كان حدسهم مُبرَّرًا عندما اجتمع جميع الرجال معًا، وبدأ المُدير في التحدُّث. أخبرهم أن إعادة فتح المنجم كانت مجرد تجربة، وأعرب عن أسفه لإضافة أنَّ هذه التجربة قد فشلت من خلال حقيقةٍ أولية بسيطة وهي أنَّ كمية النحاس المُنتجة تُكلِّف أكثرَ مما يُمكن أن تَجنيه في سوق المعادن في العالم. أجريت العمليات بخسارة، ومن ثمَّ اضطُرَّ المالك على مضضٍ إلى تَسريح العمال، باستثناء أربعة، سيبقون للمُساعدة في تحويل بقايا الخام التي تمَّ استخراجها إلى سبائك. استُقبِلت هذه المعلومات في صمتٍ حزين من قِبَل أولئك الذين تأثَّروا بها. لقد واجه كلُّ واحد منهم من قبلُ المأساةَ التي سبَّبتها قلة العمل، لكن العادة جعلت تكرارها أمرًا غير مرحَّب به بالرغم من ذلك.

واصل المدير بعدما توقَّف قليلًا. وقال إنَّ المالك هو اللورد ستراني، وقد أصدر أوامر اعتقَدَ المدير أنها لم يسبق لها مثيل في كل خبرته بسبب سخائها؛ فقد كان لكل رجل أن يحصل على أجر عام. عند هذا الإعلان، تلاشَت الكآبة فجأة، وارتفعت هتافات مدوية من الرجال. وأضاف المدير أنه تمَّ منحه هو نفسه منصبًا مهمًّا في أحد مناجم الفحم التابعة للُّورد في الشمال، وعندها هتف الحشد اللطيف للمدير الذي بدا أنه يتمتَّع بشعبية كبيرة معهم.

وختم المدير قائلًا: «والآن، بما أنَّ اللورد ستراني نفسه حاضر، ربما يختار من بين عمال المصاهر الستة الأربعةَ الذين يرغب في توظيفهم.»

كان ستراني يقف بعيدًا عن المجموعة، يستمع إلى بلاغة المدير، والآن استدار الجميع ونظر إليه باهتمام أكثر من المعتاد. كانت يداه، كالعادة، في جيوبه، وكانت هناك سيجارة بين شفتيه، لم تُخفِ، الابتسامة المرحة التي نظر بها اللورد إلى عمال المصاهر الستة، الذين أصيبوا بالفزع بشكلٍ واضح عندما علموا أنهم كانوا يسخرون بشدة من الرجل صاحب المال؛ الرئيس المُهم الذي دفع الأجور. أخرج اللورد ستراني يده اليسرى ببطء من جيبه، وأخذ السيجارة من بين شفتيه.

وقال: «أعتقد، سيدي المدير، أننا سنَحتفِظ بالستة جميعًا»، وهكذا تمَّ صرف التجمُّع.

تمَّ الإبقاء على مجموعة الرفع إلى أن رُفعت جميع الأدوات والمعدن الخام غير الثابت من قاع المنجم إلى سطح الأرض. نزل ستراني بنفسه عندما قام القفص برحلته الأخيرة، وهناك، باستخدام مصباح يدوي، فحص عمليات الحفر، مستمعًا إلى تفسيرات ماكيلر. عندما وصل إلى ضوء النهار مرة أخرى، أمرَ بتفكيك جهاز الرفع، وهذا العمل التدميري يعني الهجر النهائي لمنجم النحاس. احتج ماكيلر، المُقتصِد، على هذا الهدم.

ابتسم ستراني، لكنه لم يلغِ الأمر. استقر هو وماكيلر في منزل المدير، بعد أن غادر قاطنه إلى الشمال. كان عمال المصاهر الستة من الرجال الوقحين، غير الأذكياء، غير المُتعلِّمين، ولم يرَوا فرقًا بين قضيبٍ أصفر وآخر؛ لذلك كان هناك القليل من المُخاطَرة في التنقيب باستخدامهم.

سأل ماكيلر: «ماذا ستَفعل بسبائك الذهب؟»

«كنت أفكِّر في وضعها في قبو ودائع آمن.»

قال المهندس الحذِر: «ستَحتاج إلى النظر جيدًا إلى أقفالها، ومزاليجها، وقضبانها.»

قال ستراني: «لن تكون هناك مزاليجُ وقضبان. سأترُك السبائك مفتوحة للسماء، دون قفل أو مزلاج. ولن يتطفَّل عليها أحد.»

صاح ماكيلر: «يا إلهي، لن تكون بهذه الحماقة أبدًا؟» وتابع: «يا إلهي، حتى النحاس كان مَحميًّا بأقوى الأقفال وأكثرها أمانًا التي استطعت الحصول عليها.»

هزَّ اللورد ستانلي كتفيه فقط، ولم يقدِّم أي تفسير إضافي لنواياه.

في أول عملية صهر، تمَّ تحويل الذهب إلى سبائك تزن كلٌّ منها حوالي ١٠٠ رطل. عندما غادَرَ عُمال المصاهر في ذلك اليوم، وأغلقت البوابات، قال ستانلي لماكيلر:

«تعالَ معي، وسأُريك قبوَ الودائع الآمن الخاص بي.»

وبهذا رفع إلى كتفه إحدى السبائك؛ التي كانت لا تزال دافئة، ومشى إلى فوَّهة المنجم، وألقاها في الفراغ.

قال ماكيلر مُتذمِّرًا: «ليست فكرة سيئة»، وهو يحذو حذو رئيسه، حتى استقرَّ بينهما كل الذهب من عملية الصهر الأولى على أرضية المنجم العميقة المُظلمة.

في أحد الأيام، بينما كان الاثنان جالسَين معًا يتناولان الغداء المقتصد الذي أعدَّه بيتر، تم إحضار برقية إلى اللورد ستانلي. ضحك الشاب عندما قرأها، ومرَّرها عبر الطاولة لماكيلر، الذي قرأ:

> الباخرة «راجا» جاهزة للإبحار، لكن السلطات القانونية استولَت عليها اليوم تحت تصرُّف رجل يُدعى شوارتزبرود. أنا رهن الاعتقال بتهمة سرقة الباخرة «راجا». لا مانع لديَّ في الذهاب إلى السجن، لكنني بانتظار التعليمات. ويلكي، القبطان.

«يا إلهي، تعقَّبها العدو»، هتف بيتر. وتابع قائلًا: «أتساءل كيف فعلوا ذلك!»

«هذه ليست النقطة التي يجب أن نتساءل عنها، يا بيتر، عندما تتذكَّر أن وصول الشحن ومغادرته يتمُّ الإعلان عنه في كل صحيفة صباحية. العجيب أنهم لم يمسكوا بها منذ أيام. أوه، يا عزيزي، كم يُضايقني الرجال المشاكسون! ها أنت ذا تحاول باستمرار أن تُشركني في قتال، والآن ها هو ذا شوارتزبرود يورِّطني في شبكات القانون، بينما أنا رجل مسالم أكره المعارك والدعاوى القضائية على حدٍّ سواء، لكن الأشخاص الصالحين دائمًا ما يتعرَّضون للاضطهاد، وأظن أنني يجب أن أقبل نصيبي من المتاعب. ومع ذلك، أتوقَّع بعض التسلية مع صديقي شوارتزبرود. إذا لم تساعدني يا بيتر، فلا تُساعِد الشخص الأخرق، وسترى أطرف صراع قانوني حدث على الإطلاق.»

مع هذا ذهب ستانلي ليَرتديَ ملابس المدينة.

قال «بيتر»، وهو يخرج من غرفة نومه، مُرتديًا ملابسه كما لو كان ينوي التسكُّع في بيكاديلي بدلًا من تسلُّق تلال كورنوال، وتابع: «بيتر، سوف أتركك هنا. استمر في عملية الصهر كما لو أننا لم نفترق، وقم بإلقاء أكبر عدد مُمكن من سبائك الذهب في ذلك المنجم، ممتنًّا بحقيقة أنه ليس عميقًا جدًّا وذلك لتحقيق أغراضنا، على الرغم من أن امتلاك الكثير من الذهب قد يؤدي إلى ذلك. لا يعني ذلك أنني أحب طهيك بدرجةٍ أقل، لكني أحب مطبخ النادي أكثر.»

«إذن أنت ذاهب إلى لندن؟»

«في نهاية المطاف إلى لندن، يا ولدي، ولكن أولًا إلى محطة ريدروث؛ ثم إلى بليموث. لا يُمكنني السماح لقبطاني الشجاع أن يُلقى في السجن لمجرد إرضاء كونراد شوارتزبرود، الذي يجب أن يكون هناك بنفسه. يجب أن أُقابل في بليموث شخصًا ضليعًا في القانون، ومن ثمَّ أُربك، وأماطل، وأزعج، وعلى الأقل أُفقِر ذلك اللص العجوز شوارتزبرود جزئيًّا؛ لذلك وداعًا يا بني، وكن جيدًا قدْر الإمكان أثناء غيابي، وعندما تشعر بالفخر بسبب ثروتك المتراكمة، تذكَّر مدى صعوبة دخول رجل غني إلى الجنة، ومن ثمَّ استأنف تواضعك الطبيعي. وداعًا.»

الفصل التاسع

الصراع المالي الأخير مع شوارتزبرود

عند وصول سترانلي إلى ريدروث، أرسل ثلاث برقيات؛ واحدة تُعطي تعليماتٍ لكبار محاميه في لندن ليَطلُبوا من المحامي الرائد في الأمور البحرية في بليموث ليزورَه على الفور في فندق جراند أوتيل في تلك المدينة. والبرقية الثانية طلبت من القبطان ويلكي أن يبتهج؛ حيث كانت الكفالة الكبيرة تقترب منه بالقطار التالي من الغرب، وطلبت منه، في حالة إطلاق سراحه، القدوم إلى جراند أوتيل في حوالي الساعة السادسة. وحجزت البرقية الثالثة جناحًا في جراند أوتيل، وبانتهاء هذه المهمة، كان لدى سترانلي الوقت الكافي للحاق بقطار ٢:٤٩ المتجه إلى بليموث.

عند انطلاقه إلى جراند أوتيل بعد الساعة السادسة بوقت قصير، وجد كلٌّ من القبطان ويلكي والسيد دوكيتس، المحامي المتخصِّص في الشئون البحرية، في انتظاره، وذهب الثلاثة معًا إلى الغرف المحجوزة.

قال الشاب وهو يُصافحه: «إذن لم يضعوك في السجن، أيها القبطان.»

«لا سيدي؛ لقد فكَّروا في حلٍّ أفضلَ من ذلك. في الواقع، يبدو أن هناك قدْرًا كبيرًا من التردُّد بشأن إجراءاتهم. فقد عيَّنوا رجالًا لتولي المسئولية، ثمَّ أخرجوهم مرةً أخرى. وقبل مُغادرتي للسفينة مباشرة، صعدت مجموعةٌ كبيرة جديدة على متنِها. في البداية كانوا سيُقيِّدون يدي، ثم تشاوروا بشأن الأمر وسألوني إن كان بإمكاني دفع الكفالة. لم أكن أعرف ما إذا كنت ترغب في أن أذهب إلى السجن أم لا؛ لذا رفضت الإجابة.»

قال السيد دوكيتس: «هذا أسلمُ شيء في غياب التعليمات.» وتابع: «ما سبب كل هذا، أيها اللورد؟»

قال سترانلي، وهو يُلقي بنفسه على أكثر مقعد مريح يمكن أن يجده، «إنها قضية معقَّدة إلى حدٍّ ما، سيد دوكيتس، وليس من الضروري الخوض في القصة بأكملها في الوقت الحالي.»

هزَّ المحامي رأسه في شكٍّ.

«إذا كنتُ سأقدِّم أي مساعدة، يا لورد سترانلي، أعتقد أنه يجب أن تُخبرني بكل شيء. فالنقطة التي قد تبدو غير مهمة للعقل العادي، غالبًا ما تكون ذاتَ أهمية قصوى لطالب القانون.»

«أنت مخطئ، سيد دوكيتس. ما تُفكِّر فيه هو القصة البوليسية. إنه المحقِّق هو الذي يزوده أبسط حادث بدليل مهم. يجب ألا تُهينَ عقلي من خلال تسميته بالعقل العادي، سيد دوكيتس؛ لأنني أخذت القانون البحري الخاص بي من ذلك الممارس الممتاز، كلارك راسل؛ لذا، عندما يتعلَّق الأمر بالسفن، فأنا أعرف ما أتحدَّث عنه. والنقطة الأولى التي أودُّ أن أثير إعجابك بها هي أنني لن أظهرَ في هذه القضية. فلا أحد سيَعرِف مَن يوظِّفك. والنقطة الثانية هي أنه لن يتم رفع أي دعوى قضائية في المحاكم. يُمكنُني تسوية القضية في غضون ١٠ دقائق فقط بالذهاب إلى المحترم كونراد شوارتزبرود، الذي وضع القانون موضع التنفيذ بلا مُبالاة؛ لكن مثل هذا الإجراء من جانبي سيكون غيرَ عادل إلى حدٍّ كبير بالنسبة لرجل قانون مرموق مثلك يرغب في كسب رسوم نزيهة.»

انحنى السيد دوكيتس بشكلٍ رسمي إلى حدٍّ ما، مع انحناءة رأس نجحت بمهارة في التعبير عن الاحترام لمرتبة اللورد في الحياة، لكن مع رفضٍ لطيف لكلامه المتطاول.

«أنصح موكليَّ دائمًا، سيدي، بتجنُّب التقاضي إذا استطاعوا ذلك.»

«هذا صحيح تمامًا، سيد دوكيتس. هذه آداب قانونية جيدة، ما دامت النصيحة تُقدَّم بطريقةٍ لا تُقنِع العميل. الآن هذه الباخرة، «راجا»، مِلكٌ لي، لكنها مؤجَّرة لعدد من الأشهر من قبِل كونراد شوارتزبرود المذكور آنفًا — آمُل أنني أستخدم عبارات قانونية صحيحة — وكونراد شوارتزبرود المذكور آنفًا هو أحد الأوغاد الأكثر فسادًا وانعدامًا للضمير الذين أنتجتهم مدينة لندن على الإطلاق، وهذا التصريح يُعتبَر تشهيرًا للأسف، لكن دون تحيُّز، وأقوله فقط في حضور الأصدقاء. فالقانون، بالطبع، مُصمَّم لتسوية تلك الخلافات التي قد تُعرض عليه، في وقت قصير وبتكلفة زهيدة، ومع ذلك فإنني أتمنَّى أن يتم تحريف القانون وتحويله عن غرضه الصحيح، بحيث تستغرق هذه القضيةُ أكثرَ من الوقت اللازم قدْر المستطاع، مع الإنذارات، والقيود، والالتماسات المتعارضة، والمحتجين،

والأوامر القضائية، أو أي أشياء أخرى يُمكنُك التفكير فيها. عندما تجد أنك محاصر، سيد دوكيتس، ويجب أن تخرج في النور أمام القاضي، فابعث لي برقية، وستندهش لمعرفة مدى سرعة إبطال كل شيء.»

مرة أخرى انحنى المحامي بشكلٍ رسمي للغاية.

وقال بشكلٍ مؤثر: «أعتقد أنني أفهم سيادتك.»

«أنا متأكِّد من ذلك، وآمل أن تمنحني شرف تذكُّر سرعة فهمك، حتى تتمكَّن من فرض رسوم إضافية على ذلك الأمر عند إرسال الفاتورة. فإنني أؤكد لك، بصراحة تامة، أنه لا شيء يسعدني مثل دفع أجرٍ مناسب لرجل كفء. وإذا حاول هؤلاء الأشخاص مضايقة القبطان ويلكي مرة أخرى، فعليك حمايته، وسأوفِّر الكفالة بأي مبلغ معقول أو غير ذلك. والآن، سيد دوكيتس، إذا سمحت لي بالحصول على بطاقتك، مع عنوانك عليها، سأترك القضية بين يديك.»

امتثل السيد دوكيتس للطلب، وانصرف باحترام. نهض القبطان ويلكي أيضًا، لكن ستراندلي لوَّح له بالجلوس على مقعده مرة أخرى.

«اجلس، أيها القبطان. هل أبحرت «ويتشوود» بعد؟»

«لا يا سيدي، لم تفعل. قابلتُ القبطان سيمونز أمس. جاء إلى الباخرة «راجا» ليأخذ بعض متعلقاته التي كانت لا تزال في مقصورته. وقال إن ويتشوود قد تكون جاهزة للإبحار غدًا أو بعد غد.»

«حسنًا، أعتقد أنني سأذهب لزيارته. أستطيع أن أفعل ذلك قبل العشاء. لقد كان ماكيلر الجدير بالاحترام طباخي لبعض الوقت، وإذا لم تبدأ هذه الدعوى السعيدة الحظ من قبِل ذلك المتبرع العام، شوارتزبرود، لا أعرف ما كان سيحدث لي، لأنَّني لم أرغب في الإساءة إلى مهارة ماكيلر في المطبخ بهجره. ولكن الآن بعد أن أجبرني القانون على تركه، آمُل، أيها القبطان، أن تُشفقَ على رجلٍ وحيد، وتتناول العشاء معي هنا في الساعة الثامنة. سأطلب عشاء سيجعل هذه الحانة تندهش. ستظل معي، أليس كذلك أيها القبطان؟»

«شكرا سيدي، يسرني ذلك.»

«حسنًا، اتفقنا. الآن، إذا أرشدتني إلى «ويتشوود»، فسوف أذهب على متنها لإجراء محادثة مع القبطان سيمونز، وسوف تقابلني في غرفة الطعام في الساعة الثامنة.»

افترق الاثنان بجوار تلك السفينة البخارية الضخمة، «ويتشوود»، وصعد ستراندلي على متنها، وألقى التحية على القبطان سيمونز على ظهر السفينة.

«حسنًا، أيها القبطان، ألم ترحل بعد؟»

قال القبطان المذهول: «نعم أيها اللورد، ليس بعد.» وتابع: «لو كنتَ أبلغتني بأنك قادم، أيها الإيرل، لكنت أعددت العشاء من أجلك. كما ترى، ليس هناك ما يصلح للأكل على متن السفينة.»

«أنا معتاد على ذلك، أيها القبطان. كنت أشكو للتو لويلكي الذي أحضرني إلى هنا، أن ماكيلر كان طباخي، وبدا أنه يتعاطف. ولكن، الأمر مختلف. أريدك أن تأتي لتناول العشاء معي. لقد قمت بدعوة القبطان ويلكي، وسوف نُشكِّل ثلاثيًّا جائعًا حول طاولة مستديرة في جراند أوتيل الليلة الساعة الثامنة. ثلاثة إخوة من بليموث، كما قد تُسمُّوننا: أنتما الاثنان بحَّاران خبيران بالفعل، وأنا هاوٍ. هل ذهبت إلى ذلك الكوخ الصغير على مصب النهر في ساوثهامبتون؟»

«لا، أيها اللورد — ولكني أفكِّر في الأمر طوال الوقت بسرور كبير، وتكتب لي الزوجة أو إحدى الفتيات كل يوم. إنهنَّ سعداء يا سيدي — أقصد أيها اللورد. لم أعرف إلا بعد أن رحلت أنك اشتريت كل هذا الأثاث، ولكن يجب أن تدَعني أدفع ثمن ذلك، أيها الإيرل، بالتقسيط.»

«أوه، لا بأس، أيها القبطان. انتظر حتى أرسل الجابي. لا تَقلَق أبدًا بشأن الدفع حتى يُطلب منك ذلك. هذه كانت قاعدتي في الحياة. الآن، أيها القبطان، اصطحبْني إلى مقصورتك. أتمنَّى أن أجري محادثةً هادئة معك، وعلى سطح السفينة، مع الرجال، ستكون علنية إلى حدٍّ ما.»

قاد القبطان الطريق، وحدَّق سترانلي فيه وهو ينهض.

«آه، إنها تشبه الباخرة «راجا». لكنها تتفوق عليها، أليس كذلك؟»

«بلى، أيها اللورد — أعني سيدي. لم أتوقَّع أبدًا أن أجد نفسي في مقصورةٍ مثل هذه، يا سيدي، وسفينة رائعة مثل هذه أيضًا، بهيكل جيد ومتينة. أود أن أبحر بها إلى مصب النهر في ساوثهامبتون يومًا ما، فقط لأسمح لزوجتي وأبنائي برؤيتها.»

«سأخبرك ما يجب عليك فعله، أيها القبطان. أرسل برقيةً إلى السيدة سيمونز والفتيات، تَطلُب منهن إغلاق المتجر، والحضور على الفور إلى بليموث. سأقوم بالترتيبات اللازمة لهن في جراند أوتيل وسيبقين هنا حتى تُبحر، وهذا لن يتم إلا بعد بضعة أيام. والآن لنباشر عملنا، أيها القبطان. اكتشف شوارتزبرود العجوز مكان الباخرة «راجا»، وقد قفَزَ على متنها بأمرٍ قضائي لعينٍ أو بعض الأفعال الشيطانية لمُحامٍ ما مثل هذا: حاول

أن يأمُر بمثول ويلكي العجوز أمام المحكمة، أو أيًّا كان ما يسمونه؛ على أي حال، شيء يتم باستخدام الأصفاد، لكن الرجل العجوز كان شجاعًا حتى النخاع، وكان على استعداد للذهاب إلى سجن الباستيل نفسه إذا كان ذلك ملائمًا لي، لكني دعوته لتناول العشاء بدلًا من ذلك.»

قال القبطان سيمونز، وهو لا يشعر بأي نوع من السرور: «إذن، سيُحاول شوارتزبرود العثور عليَّ، على الأرجح؟»

«أعتقد هذا؛ لذلك لو كنتُ مكانك لأبقيت عيني الثاقبة على جانب السفينة، فمن المحتمل جدًّا أن يكون شوارتزبرود في بليموث. ومع ذلك، فقد طلبتُ من مُحامٍ مرموق المضيَّ قُدمًا بأقصى سرعة، وأتوقَّع أن يكون لدى شوارتزبرود ما يكفي لشغل عقله في غضون أيام قليلة. الآن، قبطان سيمونز، على الرغم من أن معرفتنا كانت قصيرة جدًّا، إلا أنني سأثق بك تمامًا. فمنذ أن تمَّ اتخاذ هذا الإجراء من قبِل شوارتزبرود، خطر ببالي أن الشخص المناسب للذهاب إلى نهر باراماكابو هو القبطان العظيم الذي كان موجودًا هناك بالفعل، وهذا الشخص هو أنت.»

«حسنًا؛ سيدي، كان القبطان ويلكي هناك أيضًا في يختك، وربما يحبُّ هذه السفينة الجديدة. أنا متأكد من أنه لا يهتم بالباخرة «راجا».»

«أوه، إنه لا يحتاج إلى الاهتمام بالباخرة «راجا». لقد تركها إلى الأبد، وسيتولى قيادة اليخت الخاص بي مرةً أخرى. لا، أنت الرجل المناسب لنهر باراماكابو. أنت تعرف فراونينجشيلد وتعرف عصابته وهو يعرفك. الآن، أتركُ كل شيء لتقديرك الخاص. إذا أخبرت فراونينجشيلد بكل شيء، فمن المُمكن أن يستوليَ على السفينة «ويتشوود»، ويُجبرك على الإبحار إلى لشبونة، أو أي مكان يشاء. كل هذا يتوقَّف على مدى عمق تعامُلِه مع ذلك المحتال الماهر، شوارتزبرود.»

«لن أخبره بأي شيء عن ذلك يا سيدي.»

«هذه نصيحتي الخاصة. لا ينبغي أن أقول شيئًا إلا أنهم وفَّروا لك باخرة أكبر، بحيث يمكنك الهروب بضعف كمية المعدن الخام، وكل ذلك صحيح بما فيه الكفاية. ولكن إذا كانت الظروف التي لا يُمكنُك التحكُّم فيها تجبرك على الكشف عن الوضع الحالي، فأحضر فراونينجشيلد وحده هنا في المقصورة، وتحدَّث معه كما تحدَّثت معك في أعالي البحار. لقد شارَكَ في عملٍ إجرامي، سواء كان خاضعًا للولاية القضائية للعَلم البريطاني أم لا؛ لكن النقطة الأساسية التي أتمنَّى أن توضحها له هي أنني سأحل محلَّ

شوارتزبرود؛ وهذا يعني أنني سأفي بكل وعد وعدَهُ به هذا الوغد، كما فعلت معك. أعلم أن الفضيلة مكافأةٌ في حد ذاتها، لكنني في بعض الأحيان أتمنَّى أن يُتعامل أيضًا مع الفضيلة أكثر بالعُملة المحلية. لا يبدو من العدل أن كل التعويضات الكبيرة عادة ما تكون لصالح الشرير. على أيِّ حال، أنا أثق في هذه السفينة وهذا العمل متوقَّف بالكامل عليك. تصرَّف على النحو الذي تراه مناسبًا، وإذا أرغموك على الإبحار إلى لشبونة أو أيِّ مكان آخر، فأرسل برقية لي بكلِّ ما يحدث حينما تستطيع الوصول إلى جهاز تلغراف. ومع ذلك لا أتوقَّع أي مشكلة من هذا النوع. سيعرف فراونينجشيلد كيف يتصرَّف لينال ما يريد، حتى لو كان شريرًا، وهو ما لا أصدِّقه. الآن، وعدك شوارتزبرود بمبلغ ٥٠٠٠ جنيه إضافية مقابل ثلاث رحلات إلى لشبونة، و٢٠٠٠ جنيه لكلِّ رحلة إضافية. كم عدد الرحلات الإضافية التي تمكَّنت من القيام بها؟»

«لم أتمكَّن من إتمام أي رحلة، يا سيدي، بالباخرة «راجا».»

«حسنًا، دعنا نَقُل اثنتَين. هذا يعادل ٩٠٠٠ جنيه. سأعطيك شيكًا بهذا المبلغ غدًا، ويمكنك تسليمه لزوجتك لتضعه في البنك عندما تعود إلى ساوثهامبتون.»

قال القبطان بنظرة حزن صادقة: «لم أُفكِّر في أخذ ذلك منك يا سيدي.»

«إنه ليس مني على الإطلاق، قبطان سيمونز. سأجعل شوارتزبرود يُسلِّم هذا المبلغ إلى مصرفي. أنا فقط أتوقَّع مدفوعاته؛ وأنقلها منه إليك، إن جاز التعبير. وبطريقة مماثلة سأكافئ فراونينجشيلد، وسأعطيك عددًا كافيًا من القطع الذهبية لتدفع لجميع رجاله، وهذا سيخلق بعض الرضا في المعسكر، على الرغم من عدم وجود مكان في نطاق مسافة قدرها ١٠٠٠ ميل حيث يمكنهم إنفاق بنس واحد. لذا، أيها القبطان، سوف تقوم بتحميل سفينتك بكمية وافرة من المؤن لأولئك الموجودين في المعسكر، وتأخذ إليهم أيَّ شيء تعتقد أنهم قد يحتاجون إليه، وتخبرني بالتكلفة، التي سأضيفها على حساب شوارتزبرود.»

«ولكن أليست هناك فرصة، سيدي، أن يستأجر شوارتزبرود باخرةً أخرى، وفي هذه الحالة قد نضطر للقتال؟»

«لا، لا أعتقد ذلك. أنا أراقب شوارتزبرود العجوز، ومن آخِر تقرير لم يستأجر حتى زورق. لا، لقد مددت الإيجار الخاص بالباخرة «راجا» لمدة ثلاثة أشهر إضافية، وسيأمل في الحصول عليها. سيستغرق الأمر بضعة أيام ليدرك مدى تأخُّر القانون، ومع هذه البداية، جنبًا إلى جنب مع سرعة «ويتشوود»، لن تجد صعوبةً في تعبئة هذه السفينة، والهروب دون مواجَهة أي معارضة. لا، لا أريد أي قتال. كما ترى، لا يُمكنني تجنيبُ ماكيلر، وسيُحزنه كثيرًا أن يعتقد أنه كان هناك شجار ولم يشارك فيه.

هذا اقتراح خطرَ لي للتو، ويُمكنك التصرُّف بناءً عليه أو عدم التصرُّف وفقًا لما تُمليه الظروف. عندما يتمُّ تحميل «ويتشوود» بالكامل بالمعدن الخام، وتكون على استعداد للإبحار، يُمكنك أن تطلب من فراونينجشيلد أن يصعد معك على متنها للقيام بتلك الرحلة على بُعد ١٢ ميلًا في النهر. ويمكن أن يتبعها الزورق البخاري ويعيده مرةً أخرى. أخبره أن لديك شيئًا مهمًّا تقوله لا يمكنك البوح به على الشاطئ، ثم اصطحبه إلى هنا في المقصورة الخاصة بك، واحكِ له كلَّ ما حدث. حينها لا يُمكنه إيقاف «ويتشوود» إذا أراد ذلك. سوف يطيعك طاقمك، وبصرف النظر عن الأوامر التي سيُعطيها لهم لتغيير المسار، لن ينتبهوا له. بيِّن له أنه يستطيع جنْي المزيد من المال من خلال كونه صادقًا بدلًا من اتِّباع خطى شوارتزبرود العجوز. أخبره أنك تسلَّمت التسعة آلاف جنيه الخاصة بك — وبالمناسبة، هذا يذكِّرني أنه من الأفضل أن أعطيك الشيك الليلة قبل العشاء، حتى تتمكَّن من إيداعه في البنك الذي تتعامَل معه في ساوثهامبتون، وتَسلُّم إيصال البنك بالمبلغ قبل أن تبحر. سيكون إيصال الإيداع مبهجًا للسيدة سيمونز تمامًا مثل الشيك — وبعد ذلك يُمكنك إخبار فراونينجشيلد، بضميرٍ حي، أن المال بحوزتك بالفعل. أنا أومن دائمًا بقول الحقيقة لقرصانٍ مثل فراونينجشيلد إذا كان ذلك مُمكنًا على الإطلاق. لا تتخيَّل أنني أعظ أيها القبطان. ما أعنيه هو أن الحقيقة أكثرُ إقناعًا على الإطلاق من أذكى الأكاذيب. سنفترض إذن، أن فراونينجشيلد توصَّل إلى القرار ذاته الذي اتخذته، ووافق على الانضمام إليَّ في الحفاظ على ملكيتي الخاصة من لصٍّ عديم الضمير. في هذه الحالة، أخبره أن شوارتزبرود سيرسل على الأرجح باخرةً أخرى لنقل الخام بعيدًا، بمجرد أن يدرك أنه لا يُمكنه الحصولُ على الباخرة «راجا» مرة أخرى، وأنني أتوقَّع ألا يسمَح فراونينجشيلد وأتباعه لهذه الباخرة بأخذ أيٍّ من المعدن الخام.»

«هل أُخبِره بأن يُغرِق باخرة شوارتزبرود؟»

«يُغرقها؟ لا، يا إلهي، لا. لماذا ستغرقها؟ أخبره بأن يستخدم الإقناع اللطيف، ولا يتخلَّى عن المعدن الخام. لا يُمكن لأفراد الطاقم العادي ملء المخزن بالمعدن الخام الذي يرفض ١٥٠ رجلًا السماح لهم بلمسه. لست بحاجة للقتال. إذا جعل فراونينجشيلد رجاله المائة والخمسين يقفون صفًّا على طول ذلك الحيد البحري، فإن نظرةً واحدة على وجوههم المثيرة ستقنع قبطان أي سفينة بأنه سيكون أكثرَ أمانًا في البحر.

أعتقد أن «ويتشوود» ستُلبِّي أغراضنا بشكل جيد للغاية. فهي كبيرة وسريعة. حاول أن تكتشف، إن أمكن، بالضبط ما وعد به شوارتزبرود فراونينجشيلد ورجاله، وأخبرني

عند عودتك. الآن، أيها القبطان، أعتقد أنك تفهم جيدًا ما هي واجباتك الجديدة؛ لذا انطلق نحو الجنوب بأسرع ما يمكن. في غضون ذلك، يجب أن نتحرَّك نحو جراند أوتيل. أنا متشوق للغاية لتناول ذلك العشاء، وفي الطريق سنُرسل برقية إلى السيدة سيمونز والعائلة. بعد ذلك، سنقضي نحن المعربدِين الثلاثة الليلة معًا؛ لأنني يجب أن أذهب إلى لندن غدًا.»

عمل ماكيلر بجد في عملية الصهر، وألقى الذهب في المنجم المهجور بعد أن تركه مساعدوه طوال الليل. كان مُتشوقًا لسماعِ ما حدث للباخرة «راجا»، وما حدث للقبطان ويلكي الذي كان مُهدَّدًا بالسجن، لكن لم يَرد أيُّ خطاب من اللورد سترانلي، وهو أمرٌ لم يتعجَّب منه؛ لأن جميع أصدقاء سترانلي كانوا يعرفون كرهَه للكتابة.

في صباح اليوم الثالث بعد رحيل سترانلي، تلقَّى ماكيلر برقيةً طويلة من الواضح أنه تمَّ تسليمها في لندن في الليلة السابقة. في البداية، اعتقد ماكيلر أنها كانت مُشفَّرة، لكن الدراسة الدقيقة للرسالة أقنعته بأنه لا حاجة لفك شفرة من أجل استيضاحِ ما جاء بها. وكانت على النحو التالي:

> خذ نصف رطل من الزبدة، ورطلًا من الدقيق، ونصف رطل من السكر غير المكرَّر، وبيضتَين، وملعقة صغيرة من عصير الليمون، وربع كوب من البراندي أو النبيذ. افرك الزبدة، والدقيق، والسكر جيدًا معًا، واخلط البيضتين بعد خفقهما، وأضف عصير الليمون والبراندي. ضع الكعك في مقلاة واخبزه لمدة نصف ساعة في فرن سريع.

تمتم ماكيلر لنفسه ببعض الملاحظات الصارمة حيث فهم أخيرًا مغزى هذه الرسالة. احتجز فتى التلغراف لفترة كافية لكتابة سطرٍ أرسله إلى مسكن اللورد سترانلي بتَكلفة ستة بنسات.

«ماذا فعلت بشأن الباخرة «راجا» … ماكيلر.»

في وقتٍ متأخِّر من بعد الظهر، عاد فتى التلغراف، وأعطى لماكيلر غير الصبور والآن سريع الغضب التعليمات التالية:

«بالنسبة إلى شخصين بمفردهما عند فوَّهة المنجم، خذ طائرًا سمينًا، وأضف الفلفل الأبيض والملح حسب الرغبة، ونصف ملعقة من جوزة الطيب المبشورة، ونصف ملعقة من

قشرة جوزة الطيب المطحونة، وبضع شرائح من لحم الخنزير، وثلاث بيضات مسلوقات مقطَّعات إلى شرائح رفيعة، وربع لتر ماء، وغطِّها بطبقة من العجينة الهشة. يُطهى لمدة نصف ساعة، وعندما ينضج، صفِ الخمر من أجل المرق. ضع طبقة من الدجاج في قاع طبق الفطيرة، ثم طبقة من لحم الخنزير، ثم شرائح البيض المسلوق، مع قشرة جوزة الطيب، وجوزة الطيب، والفلفل، والملح بين الطبقات. ضع ربع لتر من الماء وغطِّه بعجينة هشة واخبزه لمدة ساعة ونصف.»

قال ماكيلر لنفسه: «أظن أنه يعتقد أن هذا مضحك، لكن سيُكلفُه مبلغًا كبيرًا من المال إذا استمر فيه كل يوم.»

قال فتى التلغراف: «هل هناك رد؟»

أجاب ماكيلر: «نعم»، ولأنه احتذى بتهور سترانلي، فقد كتب رسالة أطول مما كان معتادًا عليه:

> كل شيء يسير على ما يُرام هنا. يعتمد الطهي الذي أقوم به على إعداد كعكة الهاردبيك، والوصفة كالتالي: خذ خامًا من أفريقيا وملحًا وفلفلًا حسب الرغبة، واخلطهم مع الفحم الصلب من الشمال، وطلقات سريعة، وفرن ساخن. عندما تُخبز تمامًا، صُبَّها بقوالب من الرمل، وضعها في قبوٍ عميق لتبرد. وفِّر المال الذي تُهدره في هيئة البريد من خلال أن ترسل لي، عبر الطرود البريدية، كتاب الطهي الذي تَسرق منه تلك الأصناف، واستخدم تلغرافًا لإعلامي بما حدث للباخرة «راجا» والقبطان ويلكي.

في المساء جاء الجواب.

> هذه ليست وصفة سيئة منك يا ماكيلر. لم أكن أعتقد أن رجلًا جادًّا مثلك قادر على مثل هذا العبث. الباخرة «راجا» في المحكمة العليا، عليها منازعات قضائية، مقيَّدة بالأصفاد، في ميناء بليموث، صدرَ بشأنها أمرٌ قضائي. أتوقَّع أن يمر وقتٌ طويل قبل أن تخرج الباخرة «راجا» من المحكمة. القبطان ويلكي بخير، وعائد باليخت. تتَّجه «ويتشوود»، بقيادة سيمونز، إلى باراماكابو. أتوقَّع أن أكون معك بعد أن تأخذ وقتك لدراسة المجلد الذي أرسله اليوم بناءً على اقتراحك عبر الطرود البريدية؛ «كتاب السيدة بيتون للتدبير المنزلي»؛ كتاب كبير لكنَّه مفيد.

لكن اللورد سترانلي لم يَعُد، كما وعد، إلى منجم كورنوال. على الرغم من أنه كان يعيش على ما يبدو حياةً بلا هدف في المنزل، أو في أحد نواديه، أو في اجتماع سباق مثير للاهتمام، إلا أنه كان يراقب شوارتزبرود عن طريق عميلٍ سري كفء. وتساءل عن مدى سرعة تمكُّن رجل ذكي مثل المُموِّل من معرفة أن الباخرة «راجا» كانت مقيَّدة ببيروقراطية القانون؛ فقد كانت ثابتة في المرسى كما لو كانت مربوطةً في حائل الأمواج بكابلات من الصلب. وقد قرَّر أن شوارتزبرود ينبغي ألا يزيد من تعقيد الموقف عن طريق إرسال باخرة أخرى في رحلةٍ استكشافية لسرقة المعدن الخام إلى غرب أفريقيا؛ وعندما تلقَّى أخيرًا تقريرًا من عميله يفيد بأن رجال شوارتزبرود كانوا يتفاوضون مرةً أخرى مع السادة سبارلينج آند بيلج من ساوثهامبتون، اعتقد الشاب المتكاسل أن الوقت قد حان للهجوم؛ لذلك اتصل هاتفيًّا بشوارتزبرود، طالبًا منه زيارته في منزل المدينة صباح اليوم التالي، الساعة العاشرة والنصف، حاملًا معه دفتر الشيكات.

رغب شوارتزبرود، متلعثمًا على الطرف الآخر من الهاتف، في مزيد من التوضيح بشأن طلب دفتر الشيكات. وقال إن أموال الإيجار لم تكن مستحقة. ولم يُذكر أي شيء في الوثيقة الموقَّعة بشأن السداد مقدمًا، ولكن سترانلي أنهى المحادثة الهاتفية، وترك المموِّل في حالة تخمين. وبعد بضع دقائق عندما اتصل شوارتزبرود مرةً أخرى بالمنزل، أخبره بونديربي ذو الصوت الهادئ أن اللورد قد غادر إلى ناديه، لكنه يتوقَّع رؤيته على الفور في الساعة العاشرة والنصف في اليوم التالي.

عندما وصل شوارتزبرود، تمَّ إدخاله هذه المرة في مكتب أعمال اللورد سترانلي الذي يكاد يخلو من الأثاث في الطابق الأرضي. كان مُتشوقًا جدًّا لمعرفة سبب الاستدعاء لدرجةِ أنه وجد نفسه قد وصل قبل الموعد بعشر دقائق، وقضى تلك الدقائق العشر بمُفرده في الغرفة الصغيرة. عندما دقَّت الساعة في القاعة العاشرة والنصف، فُتح الباب، ودخل اللورد سترانلي.

«صباح الخير سيد شوارتزبرود. هناك العديد من الأمور الصغيرة المتعلقة بالأعمال أود مناقشتها معك، وبما أنني أتوقَّع أن أغادر لندن قريبًا، فقد اعتقدت أننا قد نَنتهي منها أيضًا.» جلس سترانلي على كرسي على الجانب المقابل للطاولة من رجل المدينة ذي العين الثاقبة، الذي كان يراقبه بحدةٍ ماكرة.

«كما كنتُ أقول لك أيها اللورد، لا يوجد شيء في الأوراق التي وقَّعتها يفيد بأن هناك أي دفعة ستُدفع مقدمًا من أجل الباخرة «راجا».»

«أنت تَعترض إذن على الدفع مقدمًا؟»

«أنا لا أعترض، أيها اللورد، إذا كان ذلك ملائمًا لك. كما ترى، تم دفع الدفعة الأولى إلى السادة سبارلينج آند بيلج.»

«بالطبع، لا علاقة لي بذلك.»

«حسنًا، لم أتوقَّع أن يتم استدعائي لدفع المبلغ الثاني حتى تَربح الباخرة بعض المال.»

«آه، نعم، فهمت. يبدو هذا عادلًا تمامًا. إذن الباخرة لم تكن تربح المال، أفهم ذلك.»

«من السابق لأوانه، أيها اللورد، القول بما إذا كانت تربح المال أم لا.»

«هل ما زالت في أمريكا الجنوبية؟»

«نعم، أيها اللورد.»

«ألم تَعُد منذ أن رأيتك آخر مرة؟»

«لا، أيها اللورد.»

«هذا غريب للغاية»، غمغم سترانلي ليُسمِع نفسه أكثر من الآخر. وتابع: «هذا يُظهِر مدى عدم دقة هذه الصحف اللعينة.»

أخرج من جيبه الداخلي مُفكِّرة صغيرة، وبحث ببطء بين بعض القصاصات الورقية، وأخيرًا أخرج قصاصةً من إحدى الصحف اليومية.

«الصحيفة التي قُطعت منها هذا صدرت بعد يوم أو يومين من لقائنا الأخير. استرعى انتباهي هذه الفقرة لأننا كنا نتفاوض قبل فترة وجيزة بشأن الباخرة «راجا»؛ مفاوضات ناجحة وممتعة، إذا كنت أتذكَّر جيدًا، ووقَّعت على الأوراق التي قدَّمتها لي دون استشارة محامٍ، والانطباع الذي تركته في ذهني هو أنك غادرت راضيًا.»

«أوه، لقد كنتُ راضيًا تمامًا، أيها اللورد، راضيًا تمامًا. نعم، لقد تكرَّمت بتوقيع تجديد الإيجار.»

«قلت، إذا كنت أتذكَّر جيدًا، أن رحلة الباخرة «راجا» كانت مجرد تجربة. وكان لها علاقة بتجارة الماشية؛ مزرعة، أو عدة مزارع، في جمهورية الأرجنتين.»

«صحيح تمامًا، يا سيدي. يُؤسفُني أن أقول إن العمل لم يكن مزدهرًا كما كنت أتمنَّى.»

«أنا آسف لسماع هذا. لطالَما نظرت إلى تربية المواشي على أنها طريقةٌ أكيدة لتكوين ثروة، لكن يبدو أنَّ هناك استثناءات. الآن، لقد قلت لي إنه إذا لم تنجح التجربة، ويبدو للأسف أن الأمر سيكون كذلك، فسوف تقوم بتسليم الباخرة «راجا» إليَّ عندما تعود.»

«لكنها لم تَعُد أيها اللورد.»

«إذن ماذا تعني هذه الصحيفة بقولها إنه بعد أيام قليلة من لقائنا في هذا المنزل وصلت الباخرة «راجا» إلى بليموث من بريست في فرنسا؟»

«لا بدَّ أن هناك خطأ أيها اللورد. هل تسمح لي بقراءة الفقرة؟»

مد شوارتزبرود يده، مُرتجفًا قليلًا، وأخذ قصاصة الورق، وضبط نظارته ليرى أفضل، محاولًا كسب مزيد من الوقت بشكل واضح قبل أن يورِّط نفسه أكثر.

علَّق ستراnلي: «هذه الفقرة موجزة للغاية، ومع ذلك، فهي واضحة بما فيه الكفاية. «وصلت الباخرة «راجا»، بقيادة القبطان ويلكي، إلى بليموث من بريست».»

قال شوارتزبرود أخيرًا، بعد أن أخذ وقته في التفكير: «لا يُمكِن أن تكون هذه الباخرة «راجا» الخاصة بنا. فقبطان الباخرة الخاص بك، أيها اللورد، اسمه سيمونز.»

«سيمونز؟ أوه، القبطان سيمونز من ساوثهامبتون؟ يا إلهي، أنا أَعرِف الرجل. بحَّار عجوز جيد، صريح، صادق، أحد حصون بريطانيا المنيعة. إذن كان سيمونز قبطان الباخرة «راجا»، أليس كذلك؟ ومع ذلك، ربما يكون قد استقال.»

«لا يستطيع الاستقالة في مُنتصَف المحيط، أيها اللورد.»

«أوه، لقد عرفت ما حدث. لقد عرفت أن القباطنة تم نقلُهم من باخرة إلى أخرى في أعالي البحار.»

«لم أَسمع بمثل هذا الشيء من قبل، أيها اللورد، إلا إذا تمَّ تعطيل إحدى السفن، ثم تُركت عندما جاءت سفينة أخرى.»

«عزيزي سيد شوارتزبرود، اقبل تأكيدي بأن هؤلاء الشياطين الجريئين من قباطنة البحر يقومون بأشياءَ بمجرَّد أن يكونوا بعيدين عن أنظارنا، وتلك الأشياء لن نُفكِّر نحن الرجال الشرفاء على الشاطئ في قبولها.»

«اعتقدت أنك قلت للتو إنهم حصون بريطانيا المنيعة؟»

«هكذا هم كذلك، لكن الحصون، سيد شوارتزبرود، يجب أن تكون مصنوعةً من أخشابٍ أكثرَ صلابة وخشونة من تلك التي تُبطِّن المقصورة. يجب ألا تعتقد أنني أنسب أي شيء إجرامي إلى القبطان سيد شوارتزبرود؛ لا على الإطلاق، ولكن غالبًا ما بدا لي أنهم لا يولون دائمًا هذا الاهتمام الدقيق للقانون الذي يُحرِّك رجال الأعمال لدينا في مدينة لندن، على سبيل المثال. فقبطان خارج الولاية القضائية لإنجلترا، بقدْر ما قد يصدمُك سماع ذلك، سوف يجرؤ على فعل أشياءَ من شأنها أن تجعل شعرنا يقف، وتجعل المحامي

أو القاضي يفقد الوعي. الآن، هناك القبطان سيمونز، الذي تحدَّثتَ عنه للتو. أخبرني أنه قام بأعمال شيطانية في أجزاء بعيدة من العالم والتي لن يفكِّر في القيام بها أسفل ذلك المدخل في الشارع الرئيسي لساوثهامبتون.»

بلَّل مُروِّج الشركة شفتيه، ومسَّد برفقٍ على الجزء السفلي من وجهه بيده المفتوحة. كان اللورد سترانلي يبتسم في وجهه بترقُّب لطيف، كما لو كان يتمنَّى بعض التأييد المتعاطف لتصريحاته التي أدلى بها. أخيرًا تحدَّث رجل المدينة.

«ربما كانت لديك خبرة مع البحارين أكثرَ مني، أيها اللورد. كنتُ أظن دائمًا أن يكونوا نوعًا فظًّا من الناس، صادقين إلى حدٍّ معقول مثل بقيتنا.»

«كان من المتوقَّع، سيد شوارتزبرود، أن يتردَّد قلبك الطيب في تصديق أيِّ شيء يدينهم. ولأنك لن تفعل هذا أو ذاك، فأنت تعتقد أن الأشخاص الآخرين أبرياء. خذ القبطان سيمونز، على سبيل المثال، ومع ذلك، عندما أفكِّر فيه أتذكَّر، بالطبع، أنه كانت هناك ظروف مخففة في حالته. كان القبطان سيمونز قد وضع عينَه على منطقةٍ صغيرة، خمسة أفدنة تقريبًا، تمتد حتى مصب النهر في ساوثهامبتون. كان هناك كوخ وشُرفة، ويبدو أن الشرفة أغرت القبطان سيمونز بإطلالتها الهادئة، وهو يمر عبر مصب النهر في ساوثهامبتون في قيادة الباخرة «راجا» العجوز السيئة السمعة. لكن سيمونز لم ينجح أبدًا في توفير المال لشراء هذا المسكن المُتواضِع، ولكن في النهاية عُرض عليه أكثر بكثير من المال اللازم إذا فعل شيئًا مُعيَّنًا. لقد كانت رشوة، سيد شوارتزبرود، وربما لم يرَ في البداية إلى أين كان يوجِّه مقدمة الباخرة «راجا» العجوز المُفلطَحة. لم يدرك تمامًا إلى أي مياهٍ عكرة وملوَّثة سيقوده مساره. ولكن سيمونز تراجع عندما رأى أخيرًا أنه كان يتورَّط في عمليات سرقة، وفي عمليات سطو واسعة النطاق، وفي جرائم قتل محتملة، وفي غرق سفن بأطقمها.»

ظهر تعبيرٌ لطيفٌ عن القلق على وجه اللورد سترانلي عندما رأى الرجل أمامه في ضيق واضح، وهو يهبِط أكثرَ وأكثر في كرسيه. كان وجهه مُروِّعًا: فقط بدت عيناه على قيد الحياة، وكانتا ثابتتين على خصمه لا تتحرَّكان، تسعيان بجهد للتغلغل في الفكر أو المعرفة التي قد تكون وراء قناع الإهمال الذي كان يرتديه.

«هل أنت بخير سيد شوارتزبرود؟ هل ترغب في القليل من الشراب؟»

قَرع الجرس دون انتظار إجابة.

وقال: «أحضر بعض الويسكي والصودا، وكذلك زجاجة من البراندي.»

تناول شوارتزبرود رشفة حذرة أو اثنتين من المشروبات المخفَّفة.

سأل قائلًا: «هل ذُكرت أي أسماء؟»

«أخبرني سيمونز أن الذي أغواه كان رجلًا من المدينة؛ وغدٌ له مكانة كان يرغب في الربح من خسارة شخص آخر، ولم يتردَّد في السرقة ما دام آمنًا من الناحية القانونية في لندن، ويتعرَّض آخرون للمُخاطَرة. فقد كان عليهم أن يخاطروا، وكان عليه أن يؤمِّن الممتلكات. بل إنني أشكُّ في أنه كان ينوي دفع التعويض الذي وعد به. وقد بلغ في حالة سيمونز تسعة آلاف جنيه، ولم يكن هناك حاجة إلا إلى ألف جنيه لشراء المكان الذي أراده بشدة.»

«لكن لا بد أن سيمونز كان يعلم، إذا عُرض عليه هذا المبلغ، أنه كان يُجري صفقة مشبوهة؟»

«هذا بالضبط ما قلته له، لكن كما ترى، كان قد ألزم نفسه قبل أن يُدرك ما كان يورِّط نفسه فيه. قلت له: «اترك الأمر بِرمَّته. لديك ما يكفي من الأصدقاء الذين سيشترون هذا المكان الصغير ويُقدِّمونه لك. وأنا على استعداد للتبرع بجزء من المال»، وهكذا رحل سيمونز. لقد انطلق، كما فهمت، على باخرة أخرى. لديه أصدقاء ذوو نفوذ جعلوه في وضعٍ أفضل من الوضع الذي كان فيه. الآن، كما قلت، أنا على استعداد لدفع بعض المال لشراء ذلك المنزل الصغير بالقرب من ساوثهامبتون. كم ستعطي من المال يا سيد شوارتزبرود؟»

أخذ شوارتزبرود الآن جرعة من الويسكي والصودا. كان يستعيد شجاعته.

«هل تقصد أن تُخبرني، لورد سترانلي، أنك اتصلت برجلٍ مشغولٍ مثلي للمجيء إلى ويست إند لتطلب منه تبرُّعًا خيريًّا؟»

«لكن بالتأكيد أنت تتبرَّع للعديد من المؤسسات الخيرية، سيد شوارتزبرود؟»

«لا. فقط قدْر ما يُمكنني فعْله لتفادي العجز المالي، دون حدوث مشكلات مع الآخرين. أنا أومن بكوني عادلًا قبل أن أكون كريمًا. إذا دفعت ديوني، فهذا كلُّ ما يمكن لأي رجل أن يطلبه.»

«إنه المبدأ الأكثر صحة، سيد شوارتزبرود، لكنه صعب بعض الشيء، كما تعلم. بعض الرفاق المساكين يتعرَّضون لمعاناة شديدة، وبالتأكيد قد نوقف أعمالنا للحظة، ونساعدهم المساعدة الكافية التي تسمح لهم بالخروج من هذه الضائقة.»

أنهى شوارتزبرود الويسكي والصودا، ولم يُدلِ بأي تعليق آخر.

«لم أتشرَّف بطلب زيارتك لأغراض خيرية فقط. هناك أعمال مُتداخلة معها. لكنك، شوارتزبرود، تُحاول أن تضع الجانب الأسوأ من نفسك أمام العالم. أنت حقًّا رجل كريم جدًّا. بداخلك أنت كذلك؛ الآن أنت تعرف ذلك.»

«لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر، أيها اللورد، ولا أفهم اتجاه هذه المحادثة.»

«حسنًا، لقد توصَّلت إلى استنتاجٍ مفاده أنك أحد أكثر الرجال كرمًا في لندن. لقد قمتَ بأشياءَ أعتقد أنه لن يُحاول أيٌّ رجل أعمال آخر في لندن القيام بها. أنت تفعل الخير خلسة، وتخجل من أن يُعرف ذلك، كما قال الشاعر على ما أعتقد. لقد كنتَ تُقدِّم لي معروفًا كبيرًا، ومع ذلك فقد التزمت الصمت حيال ذلك.»

«ماذا تقصد؟»

«يا إلهي، أعني فراونينجشيلد ورجاله المائة والخمسين على الحيد البحري الذهبي الخاص بي.»

صاح شوارتزبرود بأعلى صوت، وقفز على قدميه: «ماذا!»

«لم يكن لديَّ مانع في اختطاف ماكيلر. هذه طبيعة وظيفته، ومهندس التعدين يجب أن يتوقَّع القليل من العنف في هذا العالم.»

«لا علاقة لي بذلك أيها اللورد.»

«لا، لقد كان فراونينجشيلد هو مَن فعل ذلك. ألا أقول إنكَ بلا لومٍ تمامًا؟ عندما علمت ببعثة الباخرة «راجا»، والأموال المقدَّمة للقبطان سيمونز، والتعويض الذي كان سيُعطى لفراونينجشيلد، وإرسال الخام إلى لشبونة؛ عندما سمعت كلَّ هذا، كان عقلي متعصبًا لدرجةِ أنني قلت لنفسي: «ها قد ألقيت القبض على أكبر لصٍّ في العالم.» لكن عندما علمت أنك قد فعلت ذلك، فهمت على الفور ماذا كان غرضك. كنت ستَصهر هذا المعدن الخام دون أن تُحمِّلني أي مصاريف، وتأخذه في سبائك إلى إنجلترا، وتقول، «تفضَّل، لورد سترانلي، أنت رجل طيب. ولا تفهم أي شيء عن التعدين أو الأساليب القاسية في هذا العالم. ها هو ذا ذهبك».»

سكب شوارتزبرود كأسًا مليئة بالبراندي في حلقه، وانهار في كرسيه.

«كما ترى، سيد شوارتزبرود، كان هناك بديلان فقط ليَقبل بهما عقل سيئ مثل عقلي: أولًا، أنك الرجل الأكثر كرمًا في العالم؛ ثانيًا، أنك أكثر اللصوص جرأة في العالم. هل تعتقد أنني ترددت؟ ليس للحظة. كنت أعرف أنك لست لصًّا. اللصوص موجودون في وايت تشابل، وسوهو، وإيست إند بشكل عام، ولكن ليس في مدينة لندن. كلهم رجال

قانون هناك. أنت لست لصًّا، أليس كذلك سيد شوارتزبرود؟ بلى. إذن اجلس أيها الرجل الصادق، واكتب لي شيگًا بالتسعة آلاف جنيه التي سبق أن دفعتها للقبطان سيمونز، وبالمبلغ الذي وعدت به فراونينجشيلد. وأنا أقبل الفائدة العائدة من كرمك بالنية ذاتها التي يُقدَّم بها. فأنا لا أسألك أين الذهب، سأعتني أنا بذلك الأمر؛ لكن يجب ألا تبحر السفينة الجديدة التي تحاول استئجارها إلى باراماكابو. لا يمكنني قبول المزيد من المساعدات الطيبة منك. كلُّ ما أطلبه منك هو كتابة شيك بهذا المبلغ بحيث يفي بالوعود التي قطعتها لسيمونز وفراونينجشيلد. لهذا طلبت منك إحضار دفتر الشيكات الخاص بك.»

جلس شوارتزبرود، متذمِّرًا، على الطاولة وسحب دفتر الشيكات الخاص به.

الفصل العاشر

الاجتماع مع محافظ البنك

إن مجرَّد تجميع الأموال لا يستدعِي درجةً عالية من الذكاء. فالمهارة الخفية في هذا العمل أكثرُ قيمة من ذكاء شكسبير. وغالبًا ما ينجح مكر الثعلب اللئيم حيثما تفشل قوة الأسد الشجاع. وبالطبع هناك رجال مُحترمون يجمعون ثرواتهم من خلال الصناعة، أو الاكتشاف، أو الاختراع؛ رجال يتبرَّعون لإخوانهم من المخلوقات، ويكسبون الأموال من خلال تحقيق مساعيهم لإثراء العالم بدلًا من أنفسهم. لكنَّ مُضارِبًا في البورصة مثل شوارتزبرود، الذي يتمتَّع بدهاء مُبهَم لقروي جشع جاهل، يصبح مجرَّد وحش مفترس، لا ينتج شيئًا؛ يسمُن على مِحَن الآخرين وخسائرهم؛ متخفٍّ ووحشي مثل نَمرٍ آكلٍ للبشر. من المحتمل أنه مع تقدُّم الحضارة، سيتم عزلُ مثلِ مصاصِ الدماءِ هذا عن رفاقه مثلَ المجذومِ في الأراضي الشرقية.

منذ لقائه الكارثي الأول مع اللورد سترانلي، كان شوارتزبرود يتحرَّك بدافع كراهية شريرة لهذا الشاب الذي يبدو أنه يتمتَّع بالحياة غير مبالٍ بشيء، والذي بدا أن اهتمامه يتركَّز بشكل أساسي على الملابس، ولكن عندما التقيا مرارًا وتَكرارًا، أصبح هذا الحقد مصبوغًا بخوف يزداد ببطء، ليس من ذكاء الرجل النبيل اللطيف، ولكن من حظه الجيد الرائع؛ لأنه لا شيء يمكن أن يقنع شوارتزبرود بأن سترانلي يمتلك ذكاءً من أي نوع. لقد اعتبر هذا المُموِّل المبتدئ مجرد رجل متأنِّق مهذَّب ولكن بلا عقل. بالنسبة لشخصٍ ثري مثل شوارتزبرود، فإن كتابة شيك للوفاء بوعوده للكابتن سيمونز وفراونينجشيلد نادرًا ما يكون أكثرَ أهمية من رمي رجل عادي لبنس إلى مُتسوِّل. لكن شوارتزبرود أطال التفكيرَ في ذلك، وجزَّ على أسنانه، وأقسم على الانتقام. الآن، الانتقام صفة غير مجدية. في حياتنا الشاقة الحديثة، يخاطر الرجل الذي يهدر التفكير في الانتقام بالتخلُّف عن الرَّكْب، ولكن في وقت الأزمات مثل هذا الانحراف في التفكير في التفاهات، عندما يجب أن

تكون جميع الحواس في حالةِ تأهُّب للاستعداد للعاصفة القادمة، قد يكون قاتلًا. كان شوارتزبرود مثل رجلٍ في قارب مفتوح في البحر، مع الكثير من القماش المبسوط، والذي، بدلًا من توجيه عينه الثاقبة نحو الأفق، وتقصير الشراع، كان غاضبًا لأنَّ شخصًا ما سكب كوبًا من الماء في قاع القارب وفكَّر مليًّا في طريقة تَنشيفه، وقذف الخرقة المبللة في وجه الشخص الذي سكب الكوب. كان هناك إعصار مالي يقترب من شأنه أن يُخرِّب العديد من المنازل في إنجلترا وأمريكا قبل أن يأخذ مجراه. وكان الملاحون الأذكياء في المياه الغادِرة للتمويل يستعدون للفِرار من دون أشرعة حتى تتحسَّن الظروف.

يمكن الاعتراف على الفور بأن اللورد سترانلي لم يَعُد يشك فيما سيأتي أكثر من شوارتزبرود نفسه؛ لأنه، كما اعترف اللورد مرارًا، لم يفهم هذه الأشياء. ولقد قضى، دون توعُّد أو اتهام، على كل فرصةٍ لمزيد من تدخُّل شوارتزبرود في منجمه. وعرف شوارتزبرود أن اللورد سترانلي كان يمتلك كلَّ حقيقة في القضية، وأن هذه الحقائق، إذا تمَّ تقديمها في محكمة قانونية، فمن الممكن جدًّا أن تحبس مموِّل المدينة في السجن لبقية حياته، وقد اعتمد سترانلي، بشكل صحيح تمامًا، على هذا الخوف الذي يُقيِّد يد شوارتزبرود.

مرَّت السفينة البخارية الكبيرة «ويتشوود» دون مضايقة من البحار الجنوبية إلى البحار الشمالية وعادت مرةً أخرى، وزوَّدت مصاهر ماكيلر الكادحة المخزن الآمن بحوالي ألفي طن من الذهب الخالص.

عندما بدأ رجال المدينة في العودة من عطلتهم الصيفية، انتشر خبرٌ غير رسمي في قاعات الأغنياء مما أثار حماس الأذكياء هنا وهناك. كان الخبر مفادُه أن بنك إنجلترا كان في ورطة. في ثلاث مناسَبات مُنفصِلة في غضون عدة أسابيع، تمَّ رفع معدل الفائدة البنكية، وأصبح الآن رقمًا مرتفعًا للغاية لدرجةٍ أنه هدَّد بفحص المؤسسة والمضاربة خلال الخريف القادم، عندما كان الجميع يأمل في أن تتحسَّن الأعمال التجارية في المدينة. بدأ المصرفيون الحذرون في طلب قروضهم، وهي طريقة البنك لتقصير الشراع. وتمَّ التخلِّي عن المشاريع الطموحة هنا وهناك بسبب الخوف من نقص الأموال. وتمَّ تأجيل الشركات التي يتطلع مُروِّجوها إلى تعويمٍ ناجح قبل عيد الميلاد. كانت الأحوال في المدينة راكدة، وكان الأشخاص الماهرون في التنبؤ يخشَون من أن يأتي ما هو أسوأ. في بداية شهر أكتوبر، انتشرت شائعةٌ شريرة، قائمة على مقالٍ مثير للغاية في مجلة صفراء في نيويورك. هذه الشائعة، بسبب مصدرها، فقدت مصداقيتها في البداية، لكن في الوقت الحالي أدرك العالم أن هناك أساسًا جيدًا لها. قالت صحيفة نيويورك إنه بمجرَّد أن وضَعَ الهواة الماليون في

البرلمان البريطاني في مجموعة القوانين قانونًا يأمر بنك إنجلترا بحلول الأول من يناير بالحفاظ على احتياطي الذهب عند ١٠٠ مليون جنيه إسترليني، تمَّ تشكيل نقابة قوية من خبراء ماليين في وول ستريت لاحتكار الذهب. غالبًا ما كان القمح مُحتكَرًا، لصالح فرد واحد سواء في نيويورك أو شيكاجو، مقابل خسارة شاملة لعالَم جائع، لكن لم يُحاول أحد حتى الآن احتكار الذهب. لا يُمكن إنتاج القمح حسب الرغبة. فبمجرد الانتهاء من نثر البذور، يُمكِن لعلماء الرياضيات أن يُقدِّروا بدقة شديدة، بالنظر إلى محصول كامل، الحد الأقصى لعدد بوشل القمح المحتمل طرحه في السوق في الخريف القادم، ولا يمكن لأي شخص أن يُضيف إلى هذه الكمية؛ لأن إنتاج القمح يعتمد على بطء تقلب الفصول. كان الأمر مختلفًا مع الذهب؛ فقد كان من الممكن إنتاج الذهب في الصيف والشتاء، ليلًا ونهارًا، ومن ثمَّ لا يجرؤ أي فرد، حتى لو كان غنيًّا مثل الملك ميداس، ولا أي نقابة، مهما كانت قوية، حتى الآن على محاولة احتكار الذهب. كان القمح يُستهلك عامًا بعد عام، لكن الذهب كان مستمرًّا بشكل عملي، محفوظًا في صورة حُليٍّ، وسبائك، وصحون، وما إلى ذلك. العملات المعدنية القديمة، التي تمَّ سكُّها منذ عدة قرون قبل ولادة المسيح، كانت لا تزال موجودة، وعلى الرغم من أن بعض حبات القمح التي كانت تُزرع في زمن الفراعنة كانت تستقر في راحة بعض المومياوات، إلا أن الجزء الأكبر من قمح العام قبل الماضي كان بالفعل مطحونًا، ومخبوزًا، ومأكولًا. يبدو، إذن، أن أجرأ محاولة انقلاب مالي على الإطلاق تمَّ تنفيذها بنجاح على يد رجال وول ستريت. ومع ذلك، أشارت صحيفة نيويورك إلى أن هذا لم يكن هو الحال. وبقدْر ما يمكن أن تكون عواقب الاحتكار هائلة، لم يكن هناك، بعد كل شيء، خطرٌ كبير على المؤسسات. فالذهب، على عكس القمح، سلعة أساسية. وكانت أسعار القمح ترتفع وتنخفض. ولكن لم يتغيَّر سعر الذهب عمليًّا. ولم يدفع هؤلاء الرجال أسعارًا باهظة مقابل الذهب، لكنهم التزموا الصمت فقط، ومن خلال مساعدة عملائهم في جميع أنحاء العالم، قاموا إما بتأمين حيازةٍ فعلية للمعدن المتاح، أو حصلوا على خيار بشأنه، والذي لن ينتهي حتى يونيو، بينما أجبر القانون الجديد بنك إنجلترا على حيازةِ ما لا يقل عن ١٠٠ مليون جنيه إسترليني من الذهب في الأول من يناير. وحتى لو فشل الاحتكار، فلن يترتَّب على ذلك خسارة للمحتكرين؛ لأنهم كانوا يمتلكون المعدن الفعلي الذي يُباع من أجله كل شيء. فلا يُمكن أن يحدث أيُّ انخفاض مثير في سعر الذهب، كما كان من المُحتَّم أن يحدث في حالة القمح إذا فشل الاحتكار، بينما كنتيجة للتأجيل، إذا اضطُرَّ البنك إلى الوفاء بشروطه، فإن الربح الذي سيتم تقسيمه سيكون

هائلًا. وذُكر أيضًا أن رجال وول ستريت قاموا بتأمين الأوراق النقدية وطلبات الذهب بضمان بنك إنجلترا والتي كانوا سيُقدِّمونها في لحظةٍ حاسمة، مطالبين بالمعدن، ومن ثمَّ يواجهون هذه المؤسسة الموقَّرة مع البديل الجذري لقبول شروطهم، أو تعليق الدفع. وحاولت صحيفة «التايمز» في مقال رئيسي، يهدف إلى تهدئة ذهن الجمهور، إظهار أن اقتراح احتكار الذهب أمرٌ مُستحيل؛ وأنه سيتم إخراج الملايين والملايين من الذهب المخزَّن في الوقت المناسب إذا تم عرضُ ما يكفي له؛ وأن هذه الملايين بحوزة أشخاصٍ لا تعرف وول ستريت شيئًا عنهم وليس لديها وسيلة للتواصل معهم.

هذا المقال كان له بعض الأثر في إيقاف حالة الذعر، أو على الأقل في تأجيلها. والتزم المسئولون عن إدارة بنك إنجلترا الصمت، كالمعتاد، ولمدة أسبوع بدا أنه لم يكن هناك شيء كارثي على وشك الحدوث، وكانت ثقة الإنجليز كبيرةً جدًّا في أهم مؤسساتهم المالية. ثم بدأت الأسهم من جميع الأنواع في الانخفاض بسرعة. وانهارت شركة مهمة، ثم أخرى، وأخرى، وأدرك الرجال الأذكياء أن كلًّا من إنجلترا وأمريكا تواجهان أكبرَ كارثة مالية في العصر الحديث. وبدا أن العقوبة تُناسِب الجريمة؛ لأنه في أمريكا التي نشأت منها الأزمة، كان الذعر أشدَّ بكثير مما كان عليه في إنجلترا، وفي جميع أنحاء الولايات المتحدة، وخاصة في الغرب، كان هناك إدانة متزامنة لوول ستريت التي اعتادت على الغضب الشعبي؛ لذا لم تُعِر الأمر سوى القليل من الاهتمام.

عُقدت اجتماعات في إنجلترا تدعو الحكومة إلى إلغاء مشروع القانون، وإعطاء البنك مزيدًا من الوقت، ولكن، كما أشير، لم يطلُب البنك وقتًا، وعلى الرغم من أن المحافظ والمديرين عُرفوا بمعارضتهم بشدة لمشروع القانون، بالكاد يُمكن للحكومة أن تتكرَّم بتقديم الإغاثة حيث لم يتم التماسها.

جلس اللورد ستراندلي مستريحًا على أحد الكراسي المريحة المكسوة بالجلد الذي ساعد في التخفيف من تقشُّف الحياة في غرفة التدخين في نادي كامبرداون. كان يتأمل فيما حوله. يضع رجله اليمنى على اليسرى؛ ويضم أطراف أصابعه معًا، وتحدِّق عيناه الجميلتان الصادقتان في طبقة الدخان الرقيقة، ولا يرى شيئًا على ما يبدو. أحد الرجال الذي نجَح في اقتراض المال منه في يومٍ سابق، والذي تجاهل اللورد ستراندلي تحيتَه، ليس بسبب الأموال المُقترضَة، ولكن ببساطة لأنه لم يرَ المُقترِض، أشار لبعض الأصدقاء أن ستراندلي يعتقد أنه يُفكر، الأمر الذي أثار الضحك؛ لأن هؤلاء الناس لم يعرفوا أن الملاحظة نفسها صدرت قبل سنوات عديدة، وكانوا أيضًا يتوهَّمون بأن ستراندلي غير قادر على التفكير.

نادي كامبرداون، كما يعلم الجميع، معروفٌ بكونه مركزًا رياضيًّا أكثر من كونه مُنتجَعًا لرجال الأعمال، ومع ذلك فهو يضمُّ اثنين أو ثلاثة من هؤلاء في قائمة أعضائه المختارة بعناية. دخل واحد منهم، وتوقَّف عند الباب، ونظر حوله للحظة وكأنه يُريد أن يجد كرسيًّا بمفرده، أو يبحث عن صديقٍ يتوقَّع مقابلته. كان هذا ألكسندر كوربيت، مدير بنك سيلوين، وهو رجل حليق الذقن ذو ملامح قاسية، وكان يتولَّى إدارة هذا البنك، وعلى الرغم من كون البنك مؤسسة خاصة، كان يتمتَّع بمكانة عالية في التقدير العام تكاد تكون مثل بنك إنجلترا ذاته. عندما وقف كوربيت هناك، تغيَّرت الطبيعة الحالمة لنظرة اللورد سترانلي إلى شيءٍ يقترب من اليقظة.

وقال: «كوربيت، هنا كرسي في انتظارك.»

أسرع المصرفي الخُطى، دون تردُّد، إلى الأمام وجلس. كان هناك حزم واضح محدَّد في كل حركة من حركات جسده والذي تناقض بشكلٍ لافت للنظر مع الطريقة اللامبالية المتكاسلة التي يتبعها معظم الأعضاء؛ رجل حازم يصعب إغضابه، حتى المرء الذي يعرف القليل عنه بإمكانه أن يستشفَّ طبيعته هذه.

سأل سترانلي: «ماذا تشرب؟»

«لا شيء، شكرًا لك. لقد مررتُ للتو بالنادي لتناول وجبة العشاء، وحيث إنَّني لديَّ بضع لحظات إضافية، سأستمتِع الآن بسيجار واحد؛ ثم يجب أن أعود إلى البنك.»

«ماذا، في هذه الساعة من المساء؟ اعتقدت أن البنوك تُغلق في الساعة الرابعة، أم أنها الثالثة؟»

قال كوربيت، باختصار، وهو يحمل عود ثقاب لسيجاره: «أتوقَّع أن أكون هناك طوال الليل.»

«أردت أن أطرح عليك بعض الأسئلة.»

«اسأل.»

«أنت تعلم أنني جاهل مثل الطفل بكل الأمور المتعلِّقة بالتمويل، العالي والمنخفض؟»

«نعم، أعرف ذلك.»

«ما سبب كل هذه الجلبة، كوربيت؟»

«أي جلبة؟»

«يا إلهي، الروايات التي قرأتها في الصحف المسائية، والصحف الصباحية أيضًا، في هذا الشأن. يقولون إن هناك حالةً من الذعر في المدينة. هل هذا صحيح؟»

ضحك المصرفي قليلًا؛ ضحكة خافتة جافة كئيبة.

وقال: «نعم، هناك حالة من الذعر.» وتابع: «آمُل ألا تَقضيَ عليك. قيل لي إنك كنت تشتغل في المدينة منذ فترةٍ بشكلٍ غير جدي. هل هذا صحيح؟»

«أوه، مجرد أعمال صغيرة، كوربيت، نيابةً عن بعض أصدقائي.»

«هل كنت تضارب مؤخرًا؟»

«أوه، لا. لا أمتلك الذكاء ولا المعرفة اللازمة للنجاح في المدينة.»

«الذكاء والمعرفة غير مرغوب فيهما الآن. المطلوب هو النقد. يُمكن لأكبرِ أحمقَ لديه نقود جاهزة تحقيق المزيد في هذه اللحظة أكثر من رجل حكيم يتمتَّع ببحر من المعرفة.»

قال سترانلي مبتسمًا: «إذن من الأفضل أن أتدخَّل في هذه الحالة من الاضطراب.»

«خذ نصيحتي، وتجنَّب الأمر. هناك مخاطر. أرى من خلال صحف الليلة أن كونراد شوارتزبرود قد انهار، وأخذ معه ستة أو سبعة رجال يُعتَبرون أكثر المُموِّلين حدة في المدينة. في الأوقات العادية، قد يُفترض أن مكانتهم لا تشوبها شائبة.»

«شوارتزبرود مُفلِس! إذن يجب أن يكون إفلاسًا احتياليًّا، بالتأكيد؟»

«لا، ليس كذلك. لقد خسر كل شيء. لم يكن لديه وقت للتحوُّط، أو بإمكانك أن تخمِّن أنه كان سيفعل ذلك.»

«كوربيت، ما سبب كل هذا؟ ألا يستطيع رجلٌ بذكائك القوي تبسيط الأمر مثل تبسيط الحروف الأبجدية لطفل صغير بمكانتي؟»

«السبب بسيط بما فيه الكفاية. إنها محاولة لفعل الشيء الصحيح بطريقةٍ خاطئة. السبب هو قانون احتياطي الذهب لبنك إنجلترا، الذي تمَّ إصداره في مايو الماضي، وسيدخل حيز التنفيذ في الأول من يناير من العام المقبل. يُلزم هذا القانون بنك إنجلترا بالاحتفاظ باحتياطي قدره ١٠٠ مليون جنيه ذهب؛ حيث كان في السابق يحتفظ بحوالي ٣٠ مليونًا فقط. هل تفهم ما قلته حتى الآن؟»

«نعم، كوربيت، أفهم. في الواقع، أتذكَّر في شهر مايو الماضي أني التقطت عن طريق التلغراف اللاسلكي جزءًا من خطاب وزير المالية بشأن مشروع القانون هذا بالذات، لكنني لم أفهمه في ذلك الوقت، ولا أفهمه الآن.»

«حسنًا، الهدف الذي سعى القانون إلى تحقيقه هو الشيء الذي دافعت عنه طوال ١٠ سنوات ماضية، ولكن طريقة تحقيقه هي مثالٌ آخر على الحماقة المُتغطرِسة للديمقراطية التي تتدخَّل في علمٍ يتطلَّب سنوات من التدريب وعقولٍ من نوع خاص. تعتقد الديمقراطية

أن الطريقة الصحيحة لعمل شيءٍ ما هي الطريقة المُتَّبعة في هدم أسوار أريحا. يضربون الطبول وينفخون في الأبواق ويخرجون في مسيرات. الآن، السمة المزعجة لهذه القضية هي أن وزير المالية كان يعلم في ذلك الوقت حماقة تصرُّفه، رغم أنه، بالطبع، لم يدرك الكارثةَ الهائلة التي كانت ستقع ليس فقط على بلده، ولكن على كل دول العالم الموسرة. كان ينبغي أن يصمد أمام ضغط أتباعه الجاهلين غير العقلانيين. وكان ينبغي أن يُرتِّب لمقابلةٍ مع مديري بنك إنجلترا؛ وكان يجب أن يُخبرَهم أن مشروع قانونٍ من هذا النوع لا مفرَّ منه إذا لم يُرتِّبوا الأمور في مؤسَّستهم بأنفسهم. كان ينبغي أن يرتِّب معهم بهدوء، دون أي دقات على الطبول، أو نفخ في الأبواق، حتى يجمع البنك الاحتياطي المطلوب ببطء. ثم كان ينبغي أن ينهض من مكانه في البرلمان، ويُعلن أن بنك إنجلترا لديه بالفعل المَبلغ من الذهب الذي يعتقِد جميع المُموِّلين الوقورين أنه ضروري إذا أردنا التخلُّص من هذا المعدَّل للفائدة البنكية المُتقلِّب إلى الأبد.

بالطبع، يقع اللوم أيضًا على بنك إنجلترا نفسه؛ كونه فرعًا من فروع الحكومة لجميع الأغراض العمَلية. كان يجب أن يطلب مقابلة، وأن يتوصَّل إلى بعض التفاهم قبل تمرير مشروع القانون ليُصبح قانونًا. كنتُ أتوقَّع أن اللوردات سوف يرفضونه، وربما اعتقدوا الأمر ذاته. ومع ذلك، فقد مرَّ بكلا المجلسَين، وحصل على الموافَقة الملكية، ثم وقع الضرر. هؤلاء الرجال الأذكياء في وول ستريت رأوا في الحال احتمالات الوضع، كما يفعلون مع كل التشريعات التي تنقصُها الخبرة. وظلَّ البنك صامتًا ومُتزنًا؛ ولم يعطِ أي كلمة حتى يومنا هذا، وبعد ذلك، في ساعةٍ متأخرة جدًّا، أظهر محنته برفع معدَّل الفائدة البنكية مرارًا وتكرارًا، على أمل أن يجذب هذا الأمر الذهب، في حين أن ذلك كان مجرَّد رفع إشارة استغاثة، وتعريف العالم كله بحقيقة أنه ينجرِف إلى شاطئٍ تهبُّ باتجاهه الرياح.»

«هل تقصد أن تقول، كوربيت، أن هناك احتمالًا أن يوقف بنك إنجلترا الدفع؟»

«لا، أنا لا أذهب إلى هذا الحد. هنا نأتي إلى العنصر الكوميدي للمأساة، والذي يُظهر الحماقة المسترسلة التي تمَّ بها صياغة مشاريع القوانين البرلمانية هذه. لا توجد عقوبة مُلحَقة بالقانون؛ إنه يأمر البنك فقط بتوفير مثل هذا الاحتياطي بحلول هذا التاريخ. ولكن إذا لم يفعل البنك ذلك، فلا يُمكن فرض غرامة، ولا يُمكن وضع المحافظ في السجن بسبب غطرسته. لو كنتُ محافظًا لبنك إنجلترا، لكنتُ ازدريت البرلمان، والقانون، ونقابة احتكار الذهب. يجب أن أقول إنه بمجرد أن يكون ذلك مناسبًا لي، سأجمع هذا الاحتياطي

البالغ ١٠٠ مليون، لكن مثل هذا الإجراء كان مُستحيلًا في الوقت المحدَّد؛ لذلك يجب ألا أُحاول الامتثال للقانون في الوقت الحالي.»

«ماذا ستكون نتيجة مثل هذا التصريح من جانب المحافظ؟»

«لا أعلم. من المُحتمَل أن يكون له نتيجة مُهدِّئة؛ أو قد يزيد من حدة الذعر. بالطبع، عندما بدأ المحافظ يدرك أنه سيكون من الصعب الحصول على الذهب، كان ينبغي عليه أن يتوجَّه إلى البرلمان أثناء انعقاد الجلسة، وأن يحصُل على مشروع قانون إغاثة، بتأجيل الموعد، على سبيل المثال لعام آخر، ولكن، مثلما قلت، تمسَّك بكرامته؛ وتمسَّكت الحكومة بكرامتها، وجلبا خرابًا وكارثةً لا داعي لهما على البلاد.»

«أليس من المُمكن أن يحصل البنك على ٧٠ مليونًا إضافية بحلول الأول من يناير؟»

«لا أرى أيَّ احتمال لذلك، إلا إذا كانوا مُستعدِّين لدفع ٢٠٠ مليون لتسوية خلافات نقابة وول ستريت.»

«هل حصلت نقابة وول ستريت على الذهب؟ أعني العملة الفعلية؟»

«نعم، ولإظهار ثقتها، توجد الأموال بالفعل في خزائن هنا في لندن؛ لذلك يبدو أن النقابة لا تخشى أن تُصادر حكومتنا الذهب كما فعل كروجر قبل بدء حرب ترانسفال. أفهم أن النقابة أخطرت بنك إنجلترا أن سعر هذا المعدن سيرتفع ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني يوميًّا حتى يقبل البنك مقترحاتها.»

«كوربيت، هل يجب أن يكون الذهب الذي يحتفظ به بنك إنجلترا احتياطيًّا في صورة قطع ذهبية فعلية، أم معدن خام؟»

«إما هذا أو ذاك.»

«لنَفترِض أنه في الأول من يناير أعلن محافظ بنك إنجلترا أن هناك ما قيمته ١٠٠ مليون جنيه من الذهب في خزائنه. ماذا سيكون التأثير على البلد؟»

«سترانلي، ينطوي هذا السؤال على أكثر مما تعتقد. لم أكن على يقين مطلقًا من أنك جاهل كما تتظاهر. سيُخبرُك معظم الرجال في المدينة أن مثل هذا الإعلان قد يخفِّف الأزمة على الفور، ولكن إذا لم يتم قول أي شيء حتى الأول من يناير، وتم إصدار الإعلان في ذلك الوقت، فأنا لست متأكدًا، ولكن الوضع سيكون كارثيًّا مثل حالة الذعر السابقة. سيكون مثل الإطلاق المفاجئ لزنبرك قوي ومضغوط، وأي شيء مفاجئ وقوي يمكن أن يعطِّل الآلات. أعتقد أن النتيجة الحتمية ستكون الارتفاع الفوري للأسهم إلى ما هو أكثر من قيمتها الفعلية. هذا، من ثمَّ، من شأنه أن يجلب الخراب لكثير من أولئك الذين لم يتأذَّوا

من هبوط الأسهم. سيكون لدينا سوق مضطربة للغاية حتى تستقر الأمور وتعود إلى نصابها. والآن عليك أن تعذرني يا سترانلي. يجب أن أنصرف.»

ألقى المصرفي عقبَ سيجاره وخرج. ذهب اللورد سترانلي إلى إحدى الطاولات وكتب عدة رسائل. كان من بينها طلب لإجراء مقابلة في موعدٍ مبكِّر أرسلت إلى محافظ بنك إنجلترا. وفي رسالةٍ أخرى أمرٌ أُرسل إلى بيتر ماكيلر في كورنوال. ورسالة ثالثة ليَحظى بشرف الاجتماع بالسيد كونراد شوارتزبرود. ثم أخذ سترانلي تقويم السنة التي شارفت على الانتهاء، وحسب ببطء عدد الأيام المتبقية فيها.

قال في نفسه بعد أن أنهى العد: «أعتقد أنه سيكون هناك وقت كافٍ.»

بعد أربعة أيام من الدرس الذي تلقَّاه اللورد سترانلي حول الأزمة، خصَّص أول موعد له لمقابلة شوارتزبرود في مكتب الأعمال الصغير في منزل المدينة. صُدم الشاب من مظهر المموِّل المسن، وبقدْر ما كان يكرهه، لم يسعْه إلا أن يشعر بالأسف تجاهه. كان يبدو أكبر بـ ١٠ سنوات تقريبًا مما كان عليه عندما التقيا آخر مرة. كان وجهه شاحبًا، متعبًا، مرهقًا، وكتفاه منحنيتَين بسبب العبء المتزايد الذي ألقته عليهما المصيبة. السمة الوحيدة التي لم تتغيَّر هي عيناه، ومنهما كان يلمع بريقٌ خبيث لكراهية لا تُقهر.

بدأ شوارتزبرود الحديث: «تلقيت رسالتك من النادي.» وتابع: «وقد أتيت، كما ترى، ها قد أتيت. لا أخشى مقابلتك؛ أيها الواشي الأبله، الواثق من نفسه، لا يُمكنُك أن تسبِّب لي المزيد من الأذى. لقد فعلت أسوأ ما يُمكنك فعله، وإذا كنت قد دعوتني إلى هنا لتحتفل بانتصارك عليَّ، فأنا أمنحك هذه المتعة، وأعترف بحرية أنك سبب كل مصائبي.»

«أستمحيك عذرًا، سيد شوارتزبرود، لكنَّك مخطئ تمامًا فيما تقوله. يعود سبب محنتك إلى ما هو أبعد من أيِّ فعلٍ قمت به. كانت البداية في اليوم الذي قرَّرت فيه سحق آل ماكيلر. لقد ساعداك؛ الأب والابن. وكانا رجلَين بريئين وصادقين. كلٌّ منهما ساعدك بطريقته الخاصة في إمكانية الحصول على ثروةٍ غير محدودة تقريبًا. وهذا لم يُرضِك. وعقدت العزم على أن تأخذ منهما أجورهما المستحَقة، وأن تدفعهما إلى الحضيض معدمين. لقد حدث من خلال واحدة من نزوات القدْر تلك التي تُحافظ على إيماننا بالعدالة الأبدية، أنه في اليوم الذي توصلت فيه إلى هذا القرار كنت رجلًا محكومًا عليه بالفشل.»

«هذا ما دعوتني إلى هنا لتُخبرني إياه، حقًّا، أيها الكلب الذليل، أيها الجرو الحقير، يا مَن حققتَ ثرواتك من خلال سرقات أسلافك.»

«يبدو أن لغتك، سيد شوارتزبرود، قد تشوَّبت بسبب حالة الذعر الشديدة. لم أكن أنوي الإشارة إلى الماضي على الإطلاق. لقد حدَّدت موضوع محادثتنا في اللحظة التي دخلت

فيها الغرفة، وأنا اتبعتك فقط، وسعيت جاهدًا لإزالة سوء الفهم من عقلك فيما يتعلَّق بالأسباب الأصلية للأشياء. لا، دعوتي لهذا المنزل كان لها هدفٌ آخر تمامًا. ولن أجهد سذاجتك بأن أطلب منك أن تُصدِّق أنه عندما سمعت قبل أربعة أيام أنك أفلست، أول ما بدَرَ إلى ذهني كان الشعور بندم بسيط. لا أحب أن أرى الناس يعانون.»

ضحك الرجل العجوز، مثل صرير مبرد على منشار.

«بالطبع أنا لا أطلب منك تصديق ذلك، ويجب أن آسف لمثل هذا الضغط على أي إيمان بالطبيعة البشرية قد تمتلكه؛ لذلك لا تقلق بشأن تصريحاتي، التي تَعتبرُها بلا شك غير معقولة. هل لديك أي أموال متبقية؟»

«لا شيء على الإطلاق.»

«ماذا عن زملائك الستة؛ هل نفدت كل أموالهم؟»

«حتى لو كان لديهم مال، فلن يأتمنوني على بنس واحد. أنت تتحدَّث عن إيماني بالطبيعة البشرية. حسنًا، لقد اختفى الإيمان بالطبيعة البشرية بداخلي. لقد بذلت قصارى جهدي من أجلهم، وخسرتُ كل نقطة في اللعبة، بالإضافة إلى أموالهم وأموالي.»

«حسنًا، سيد شوارتزبرود، يجب أن نردَّ اعتبارك. أمتلك ما أعتقد أنه أفضل سيارة حمراء في لندن، وسيكون سائقي بمثابة إضافة جيدة إلى فخامة موكب الإمبراطور. سأُعيرُك سائقًا وسيارة لبقية اليوم، وإذا قدتَ سيارتك في الشوارع حول البنك لبضع ساعات، فإنَّ أولئك الذين كانوا يُظهِرون ازدرائهم لك سيرفعون قبَّعاتهم بدلًا من ذلك.»

«أظن أنك تعتقد أن هذا مُضحك، لورد سترانلي. أنت ترغب في أن تعرضني في سيارتك مثلما كان يستعرض الرومان أسراهم في مركباتهم الحربية عند هزيمتهم. لا أعرف لماذا أتيتُ إلى هنا، لكني أحذِّرك من أنني لم أَحضُر لأتعرض للإهانة.»

«بالطبع لا. من غير المعقول أن تتخيَّل أنه من الممكن أن أهين رجلًا في منزلي. الآن استمع إليَّ. لقد طلب المصرفي الذي أتعامل معه خدمة ألا أسحب منه أي شيكات حتى ينتهي هذا الاضطراب. بالطبع، إذا سحبت شيكًا، فسيَقبله، لكنَّني أعطيته وعدي. تحت المقعد الخلفي لهذه السيارة، أخفيت ثماني سبائك من الذهب، وزن كلٍّ منها ١٠٠ رطل أو ما يقرب من ذلك، وتُقدَّر قيمتها بحوالي خمسة آلاف جنيه إسترليني. هذا يعني ٤٠ ألف جنيه بالضبط من السلعة التي تولول بها كل لندن في الوقت الحالي. لا أعرف بالضبط ما موقف المُفلس، وقد يكون من الممكن أن يأخذ الدائنون سبائك الذهب هذه إذا علموا أنك تَمتلكها؛ ومن ثم بادل باسمي إذا كنت ترغب في ذلك؛ بوصفك وكيلي. اذهب

في هذه السيارة إلى البنك الذي تتعامل معه، واجعل الحمالين يحملون السبائك للداخل. هناك سوف يزنونه ويُقدِّرون قيمته، ويَمنحونك المبلغ المُستحَق للكمية. الآن، انتبه لي بشدة. اشترِ بقيمة تلك السبائك أسهُمًا تتمتَّع كما تعلم ببعض القيمة الحقيقية، ولكنها الآن أقل بكثير من مُستواها المُناسب. احتفظ بهذه الأسهم حتى الأول من يناير؛ حيث ستشهد بدايةَ أكبر انتعاش عرفته لندن على الإطلاق. أنصحك بالبيع في أقرب وقت بعد يوم رأس السنة الجديدة قدْر الإمكان؛ لأنه من المرجَّح أن تَرتفِع الأسهم بصورة جنونية إلى نقطةٍ أعلى مما قد تتمكَّن من الحفاظ عليه لاحقًا. يأتي هذا الذهب من منجمٍ كان في حَوزتِك من قبل، ويشعر عقلي الحقير غير الناضج السخيف بعدم الارتياح بسبب ديونك منذ فترة طويلة، وأنا الآن سعيد بفرصة السماح لك بالحصول على حصةٍ من ربح المنجم، إذا تفضلت بقبولها.»

سرعان ما اختفَت وحشية المُموِّل المُدمَّر عند ذكر الذهب، وحل مكانها طريقة التذلل القديمة، مع محاولة تملُّق للتخفيف من قسوة تصريحاته السابقة، وهو تغيير في الأسلوب جعل الشاب يبتعِد عنه قليلًا، ويُنهي المقابلة على عجل.

«لا تقلق، سيد شوارتزبرود. الكلمات لا تكسر العظام، ما لم تتسبَّب في دفع مُتلقِّيها لقائلها إلى أسفل درج شديد الانحدار. السيارة في انتظارك عند الباب. يعتقد السائق أن المعدن الموجود أسفل المقعد نحاس. سيُخبرك المصرفي الذي تتعامل معه أنه ذهب؛ لذا حافظ عليه حتى يصبح في حوزته بأمان. حسنًا، حسنًا، لا تَشكُرني، أتوسَّل إليك. أؤكد لك أنني لا أسعى للامتنان، لكني لا أملك الكثير من الوقت اليوم. في غضون نصف ساعة سألتقي بمحافظ بنك إنجلترا؛ لذا يجب أن أودعك.»

«ألن تأتي معي، إذن، في سيارتك الخاصة، أيها اللورد؟»

«شكرًا لك، لا. أعتقد أنه من الأفضل أن تتمَّ رؤيتك بمفردك في السيارة إذا كانت هناك شائعات بشأن مكانتك في المدينة. وإذا سألك أحد عن تكلفة السيارة، يُمكنك إخباره بأن سعرها هو ٢٠٠٠ جنيه صافيًا. سوف ترحل بالسيارة، وسأستقلُّ أنا قطار الأنفاق، كوني شخصًا ديمقراطيًّا. طاب يومك، سيد شوارتزبرود، طاب يومك.»

بذلك نزل اللورد سترانلي في المصعد الضخم في قطار الأنفاق، وفي الوقت المناسب خرج لضوء النهار عند بنك إنجلترا. ووصل إلى غرفة الانتظار قبل دقائق قليلة من موعده، وفي الوقت المحدَّد بالضبط تم استدعاؤه، وإرشاده للدخول؛ لأن الالتزام بالمواعيد من كياسة الملوك ومحافظي بنك إنجلترا.

إن الأسلوب الصارم، شبه المتسلِّط لهذا المتحكم في الأمور المالية أربك الشاب، وجعله يشعر كأنه دودة غبار غير مُجدية مثلما أشار إليه شوارتزبرود. استاء سترانلي، الذي كان دائمًا شديد التأدُّب مع المتسول أكثر من معاملته للملك، من الإحساس بالدونية الذي أصابه عندما واجهه حاكم البنك البغيض. قال لنفسه:

«يا إلهي، هل من الممكن إذا التقيتُ برجلٍ كبير بما فيه الكفاية أن أتذلَّل داخل روحي كما يفعل شوارتزبرود بجسده؟»

ومع ذلك، فإن هذا التردُّد الطفيف في الكلام الذي كان غالبًا ما يُزعجه في اللحظات الحرجة سيطر عليه الآن، وكراهيته لأي محاولة لكسب احترام الرجل الحديدي أمامه أرسلته للاتجاه الآخر، وكان يعلم أنه خلال العشر دقائق القادمة سيُعتبَر أكثر شخص أحمق ويائس في لندن. ومع ذلك، لم يعتبر نفسه أحمق، وقد منَعَه حسُّه الفكاهي الخفي من القيام بأي محاولة لإضفاء الحكمة على محادثته التي بدت مناسبة جدًّا لهذه الغرفة الكئيبة.

عندما قدَّم سكرتير المحافظ رسالة اللورد سترانلي إليه، رفض رئيس البنك بشكلٍ قاطع إضاعة الوقت مع عضوٍ من الطبقة الأرستقراطية لا يعرف شيئًا عنه، ولكن السكرتير، الذي كان من اختصاصه معرفة كل شيء، ألقى كلمة واحدة في عبارة قصيرة جذبت انتباه المحافظ.

«إنه اللورد سترانلي «الغني»، سيدي.»

كانت كلمة «غني» هي القشة التي تمسَّك بها الرجل الغارق. ها هو ذا سترانلي الذي يُمثِّل التناقض الحي لتلك العبارة «آخر المتأنقين». ها هو ذا تجسيد روح بيكاديللي وبوند ستريت في مواجهة ديكتاتور شارع ثريدنيدل القاسي غير المُهتم بملابسه، تقطيبة على الحاجبين الكثيفين لرجل، يقابلها ابتسامةٌ سخيفة تافهة على شفاه الآخر. عند رؤية هذه الابتسامة، رأى المحافظ على الفور أن فكرته الأولى كانت صحيحة. كان يجب ألا يُضيِّع لحظة في هذه التفاهة، ومع ذلك كانت أمامه المهمَّة الشاقة المتمثِّلة في تزويد المؤسسة التي يترأسها بما قيمته ٧٠ مليون جنيه إسترليني من الذهب في غضون خمسة أيام، أو الوقوف بخزي أمام العالم. كان اليأس يخنق الأمل المُنقضي لأنه أدرك أن هذا الأبله الذي يتكلَّف الابتسام لا يمكن أن يكون الحل لهذه المشكلة المستعصية؛ ربما تعطي هيئته القوية انطباعًا جيدًا، لكن تلك الابتسامة المتكلَّفة أفقدته مصداقيته.

قال بصوتٍ عالٍ، منفعلًا، بلا صبر، وبسرعة: «ماذا يُمكنني أن أفعل لك أيها اللورد؟»

ضحك ستراني متهكمًا: «حسنًا، سيدي، هناك … هناك العديد من الأشياء التي يُمكنك القيام بها من أجلي. في … في المقام الأول لا تمانع في جلوسي، أليس كذلك؟ يبدو لي أنني أستطيع التحدُّث بشكلٍ أفضل عند الجلوس. لم … لم أتمكَّن حقًّا من إلقاء خطاب في حياتي، حتى بعد العشاء، لمجرد أنه يتعيَّن على المرء أن يقف، هل تفهم قصدي؟»

«آمل، أيها اللورد، ألا تعتقد أنه من الضروري إلقاء خطاب هنا.»

«لا، لا، لقد تمنَّيت فقط حديثًا هادئًا»، قال اللورد ذلك، وهو يسحب كرسيًّا دون دعوة، ليجلس. وتابع: «كما ترى، أنا لست جيدًا في الحسابات، ولديَّ معرفة قليلة جدًّا بالأعمال التي أمتلكها؛ لذلك أنا مُضطرٌّ لإشراك ١٢ رجلًا محترفًا لرعاية أموري.»

قال المحافظ بغضب: «نعم، نعم، نعم، نعم.»

«حسنًا، كما ترى، أيها المحافظ، أتصرُّف بين الحين والآخر دون طلب أي نصيحة من هؤلاء الرجال. يبدو أمرًا سخيفًا نوعًا ما، ألا تعتقد ذلك؟ الاحتفاظ بـ ١٢ محاميًا، والقيام بالأمور بنفسي، أليس كذلك؟»

«بلى. ما علاقة كل ذلك ببنك إنجلترا؟»

«سأصل إلى ذلك. كما ترى، نحن جميعًا مُشبَعون بالشعور بالاحترام للبنك كما نشعر تجاه الكنيسة، والبحرية، والملِك، وأحيانًا الحكومة، ولكن هذا ليس دائمًا، على سبيل المثال، عندما يُصدرون قوانين سخيفة حول احتياطي الذهب الخاص بك، بدلًا من المجيء إليك بطريقة ودية، كما أفعل، وتسوية الأمر بهدوء.»

«أنا أتَّفق معك تمامًا، أيها اللورد، لكن وقتي محدود للغاية، وأنا مُضطرٌّ …»

«بالطبع، يا سيدي، بالطبع. هذه الأفكار ليست خاصة بي على الإطلاق. لم أكن أعرف الكثير عن الأزمة حتى قبل أربعة أو خمسة أيام عندما كان السيد كوربيت … ألكسندر كوربيت، كما تعلم، من بنك سيلوين. ربما تعرفه؟»

«أنا أعرف السيد كوربيت — نعم.»

«حسنًا، هذه هي آراؤه، وأنا أتفق معه، كما تعلم.»

اعترف المحافظ: «السيد كوربيت خبير في الأمور المالية»، وكأنه بدلًا من مدح الرجل الغائب، كان يدينه.

«الآن، ما يزعجني بشأن الذهب هو هذا. تزن القطعة الذهبية ١٢٣ حبة، كسرًا عشريًّا — حسنًا، لقد نسيت الأرقام العشرية، لكن ربما تعرف عنها الكثير. لا أستطيع أن أتذكَّر أبدًا — لأخبرك الحقيقة، في اللحظة التي أصل فيها إلى الكسور العشرية، أضيع. يُمكنني معرفة أن اثنين واثنين أربعة، لكن أكثر من ذلك …»

قاطعه المحافظ: «أؤكد لك أيها اللورد، أن عددًا كبيرًا من الناس لا يستطيعون تجاوز هذا الحد. إذا تفضلت، وتكرمت، بإخباري بما تريده بالضبط، فسوف أضمن أن تكون إجابتك موجزة وسريعة.»

«حسنًا. للوصول مباشرة إلى صميم الأعمال، إذن، هل لديك ١٢ أوقية للجنيه الذهب، أم ١٦؟»

كانت أصابع المحافظ تنقر على السطح الصلب للطاولة. نظر إلى ضيفه، لكنه لم يقُل شيئًا.

«عندما أتورَّط مع الكسور العشرية أو الكسور الاعتيادية، فهذا سيئ بما فيه الكفاية، ولكن عندما لا أعرف ما إذا كانت الجنيهات التي أتعامل معها ١٢ أوقية أم ١٦، فإن السهولة تصبح نوعًا ما ميئوسًا منها — آه، أرى أنك في عجلةٍ من أمرك. أخبرني الآن كم ستكون قيمة سبيكة ذهب تزن ١٠٠ رطل، وسنَصرف الذهن عن الوزن التروييسي والوزن الأفواردوبوي. فقط أعطني تقديرًا تقريبيًا.»

قال المحافظ بهدوء مشئوم: «لورد ستراتلي، هل أتيتَ إلى هنا ولديك انطباع أن بنك إنجلترا هو مدرسة أطفال؟»

احمرَّ وجه اللورد ستراتلي خجلًا بلونٍ وردي رقيق، حتى أصبحت وجنتاه ناعمتين وقرمزيتين مثل فتاة تتلقَّى أول عرض زواج لها. كان ازدراء الرجل أمامه غير مخفيٍّ لدرجةِ أن ستراتلي المسكين اعتقد، وهو يغلق يده المفتوحة، أنه قد يشعر به، كثيفًا جدًّا في الهواء. لقد انغمس بيأس في مسارٍ آخر.

وقال متلعثمًا: «عزيزي المحافظ»، محاولًا استرضاء خصمه من خلال الأُلفة الودية، «كما أخبرتك، إنني أُكنُّ احترامًا كبيرًا لبنك إنجلترا. كما ترى، أنا ميسور الحال إلى حدٍّ ما، وخلال اليوم أو اليومين الأخيرين، راهنتُ بتهوُّر، واستثمرت في الأسهم والسندات بكل الأصول المتاحة التي أمتلكها باستثناء واحد. وقد درست هذا الأمر ...»

قال المحافظ: «أوه، درست هذا الأمر.»

«نعم، حسبما استطعت، وأعتقد أنه بعد الأول من يناير، ستشهد لندن أكبر انتعاش في الأسهم والسندات حدث في تاريخ التمويل.»

«ما أسبابك لمثل هذا الاعتقاد أيها اللورد؟»

«الاحترام — الاحترام الذي أُكنُّه لبنك إنجلترا. نريد أن نرى بنك إنجلترا يتحسَّن ويعود لما اعتدنا عليه. إنه لأمر مُهين أن تعتقد أن مدَّعيًا مثل وول ستريت سيكون قادرًا

على خداع مؤسسة جليلة مثل هذه. يا إلهي، يبدو الأمر كما لو أن شخصًا ما تحدَّث بقلَّة احترام عن جدة المرء. أريد أن أرى البنك يتحسَّن، ولهذا أنا هنا.»

قفز المحافظ من مكانه. نهض مثل تمثال الغضب.

«أيها اللورد، هذه المقابلة يجب أن تنتهي. لا يستطيع بنك إنجلترا مساعدتك في المضاربات الخاصة بك. كان يجب أن تستشير ألكسندر كوربيت إذا كنت ترغب في الحصول على مبلغٍ إضافي من المال، إذا كان هو المصرفي الذي تتعامل معه.»

نهض سترانلي عندما رأى المحافظ واقفًا على قدميه.

«لقد فعلت ذلك.»

«إذن من الأفضل أن تعود إليه. بالتأكيد لم ينصحك برؤيتي؟»

«لا، لكن ما قاله لي عن الموقف جعلني أشعر بالرغبة في مقابلتك.»

«هذا صحيح. حسنًا، لورد سترانلي، لقد قابلتني. أتمنَّى لك يومًا طيبًا يا سيدي.»

ازداد احمرار وجه سترانلي بسبب ما اعتبره طردًا وقحًا. لم يكن معتادًا على أن يُعامل بهذه الطريقة. أرجع كتفيه للوراء، وتركت الابتسامة شفتيه.

قال، بشكل صارم تقريبًا كما تكلم الآخر: «إذن أنت لا تُريد الذهب؟»

«أي ذهب؟»

«ذهبي.»

«اعتقدت أنك قلت إن جميع أصولك قد تمَّ استثمارها في شراء الأسهم.»

«قلت يا سيدي كلَّ ما عندي من أصولٍ ما عدا واحدًا. الأصل الوحيد المتبقي هو الذهب.»

«ذهب؟»

«نعم.»

«في أي صورة؟»

«في صورة سبائك.»

«كم لديك من الذهب؟ ما قيمته؟»

«الآن، أيها المحافظ، سأقولُها لك صراحة، كرجل لآخر، أنت غير منطقي بعض الشيء. ألم أخبرك أني ما لم أتمكَّن من ضرب ١٢٣ كسرًا عشريًّا — أيًّا كان الرقم النهائي — فلن أستطيع حتى تقديره؟ طلبت — وآمُل أن أكون قد طلبت بلطف — مساعدتك في حساب قيمة ذهبي، لكنك بدأت تتحدَّث عن مدارس الأطفال. كما ترى، لديَّ منجم في كورنوال يحتوي على ٢٠٠٠ طن من الذهب.»

قاطعه المحافظ بنفاد صبر: «هُراء»، وتابع: «لا توجد مناجم ذهب في كورنوال.»

«سيدي، لم أقل إن هناك مناجمَ ذهب. المنجم الذي أتحدَّث عنه هو منجم نحاس.»

«لقد سئمت من هذا الخداع، أيها اللورد، وأعتقد أنني ودعتك بالفعل.»

«إذن أنت لا تريد ذهبي؟»

«كم جنيهًا من الذهب الخام لديك؟»

«جنيهًا؟ أوه، أنا لا أُقدِّر ذهبي بالجنيهات. أحمل حاليًّا ما يزيد عن ٢٠٠٠ طن.»

«٢٠٠٠ طن! هل تقصد في صورة معدن خام؟»

«بالطبع لا. إذا لم يكن بنك إنجلترا مدرسة أطفال، أظن أنه ليس فرنًا للصهر أيضًا. هذا الذهب، كما أخبرتك، قد صُهر وتحوَّل إلى سبائك. لقد جئت في قطار الأنفاق لأحافظ على موعدي لأنني أعرت سيارتي الرئيسية لرجلٍ يُدعى كونراد شوارتزبرود. أرى سيارتي واقفة بالخارج، وبما إنني أعطيت شوارتزبرود ثماني سبائك من هذا المعدن، وأخبرته أن يأخذها إلى بنكه، يبدو أنه قد أخذها إلى هذا البنك؛ لذلك إذا كانت مدرسة البنات هذه قد اشترت هذه السبائك الثماني، قد نذهب في الحال ونفحصها. تم تقسيم الألفَي طن الخاصة بي إلى سبائك مشابهة لتلك التي باعك إياها شوارتزبرود.»

«أين الذهب الخاص بك؟»

«لا يزال هناك ١٠٠٠ طن منه في كورنوال، ولكن يُمكن تسليمه هنا في غضون يوم أو يومين. أما الألف طن الأخرى فهي على متن قطار خاص من السكك الحديدية الغربية العظمى، والذي وصل بالفعل إلى لندن، وقد تكون محتوياته في خزائنك هذا المساء إذا أسرعت شاحناتك.»

جلس المحافظ على كرسيه بعجالةٍ أكبرَ مما توقَّع، وسحب منديلًا ومسح جبينه.

«هل تقول الحقيقة، أم هل — هل — ما تقوله، أيها اللورد، لا يُصدَّق.»

«حسنًا، تعالَ إلى مستودع بضائع السكك الحديدية الغربية العظمى، وانظر بنفسك. لطالَما تجنبت المدينة بوصفها مكانًا ساخرًا، لكن لم يكن لديَّ أيُّ فكرة أن عدم الإيمان كان منتشرًا جدًّا هناك كما يبدو.»

«١٠٠٠ طن من الذهب! بقيمة ١١٠ ملايين جنيه إسترليني!»

«ها قد رأيت مدى سهولة الحساب عندما يتعامَل معه رجلٌ خبير بالأرقام. هل هذه قيمة الألف طن الخاصة بي؟»

«من أين أتى هذا الذهب؟»

«من ساحل غرب أفريقيا؛ منجم فوق الأرض قيِّم للغاية أملكه هناك. لقد عملنا معظم العام في نقل الخام إلى كورنوال وصهره، وإلقاء السبائك في منجم نحاس فارغ أملكُه، والذي أسميه قبو الودائع الآمن الخاص بي.»

«كم تطلب مقابل هذا الذهب؟»

«أوه، أنا لا أطلب أي شيء على الإطلاق. أنا لست رجل أعمال، كما أخبرتك. لقد تبيَّن لي أن الذهب سيكون آمنًا تمامًا في خزائنك كما هو الحال في منجم النحاس الخاص بي؛ لذلك استخدمت قطارًا خاصًّا لإحضار نصفه. يمكنك الحصول على النصف الآخر إذا كنت ترغب في ذلك.»

«أيها اللورد، هل ستُرافقني في سيارتي إلى مستودع بضائع السكك الحديدية الغربية العظمى، وتريني قطارك الخاص؟»

«أيها المحافظ، يسعدني ذلك.»

بعد بضعة أيام، جلس اللورد ستراتلي أمام فطوره الشهي، وابتسم وهو يقرأ المقال الرئيسي في صحيفة «التايمز»:

> كما يعلم قراؤنا، لم ننضم إلى احتجاجِ الصحافة المُثيرة التي فعلت الكثير لتضليل الرأي العام في كلٍّ من إنجلترا وأمريكا. لم يهتزَّ أبدًا للحظة واحدة، خلال كل الاضطرابات، إيمانُنا بأعظم مؤسسة مالية وأكثرها احترامًا، بنك إنجلترا. في الرابع عشر من أكتوبر أشرنا إلى استحالة احتكار الذهب مهما كانت قوة النقابة المالية التي تولَّت أعمال سيزيف المخادِعة الجشعة. كم من الوقت ظلَّ هذا الكنز، الذي تُضاهي قيمته بعض القصص في «ألف ليلة وليلة»، في خزائن البنك، لا أحد يستطيع معرفة ذلك غير المحافظ وهؤلاء الذين يثق فيهم. بينما كان يسود البلاد تنبؤات بفشل البنك في الامتثال لقانونٍ جديد وعبثي، كان المسئولون عن توجيه مؤسستنا المالية الرائدة بهدوء وصمتٍ قد جمعوا معًا مَبلغًا لا يكاد يُتصوَّر تصل قيمتُه إلى ٣٠٠ مليون جنيه إسترليني من الذهب البكر. تلك الصحف التي تصدَّرت المَوقِف على مدى الأشهر الأربعة الماضية في تضليل قرائها، وإحداث أزمة في البلاد، تَدين الآن بمُنتهى الصخب محافظ البنك لأنه لم يتحدَّث مُبكرًا. ولكن إذا تعهَّد محافظ البنك بالرد على التصريحات الخبيثة أو الجاهلة المتعلِّقة بالمؤسسة التي يترأَّسُها بجدارة، فلن يتبقَّى أمامه سوى القليل من الوقت لأداء تلك الوظائف التي أنجزها ببراعة. فأولئك الذين

يؤمنون ببلدهم يُكافئون. والارتفاعات التي تكاد تكون غير مسبوقة التي بلغتها الأسهم والسندات تعني إثراء كل مُستثمر لم ينجرف في حالةِ ذعرٍ لا معنَى لها. وبالنسبة لأنفسنا، لم نَحُد أبدًا في السراء والضراء عن …

ضحك اللورد سترانلي.

وقال: «ها هي ذي «التايمز» التي اعتدتُ عليها، كم أنت حكيمة! مثل جدة تناسب رفقة بنك إنجلترا العجوز في شارع ثريدنيدل!»


هنــداوي